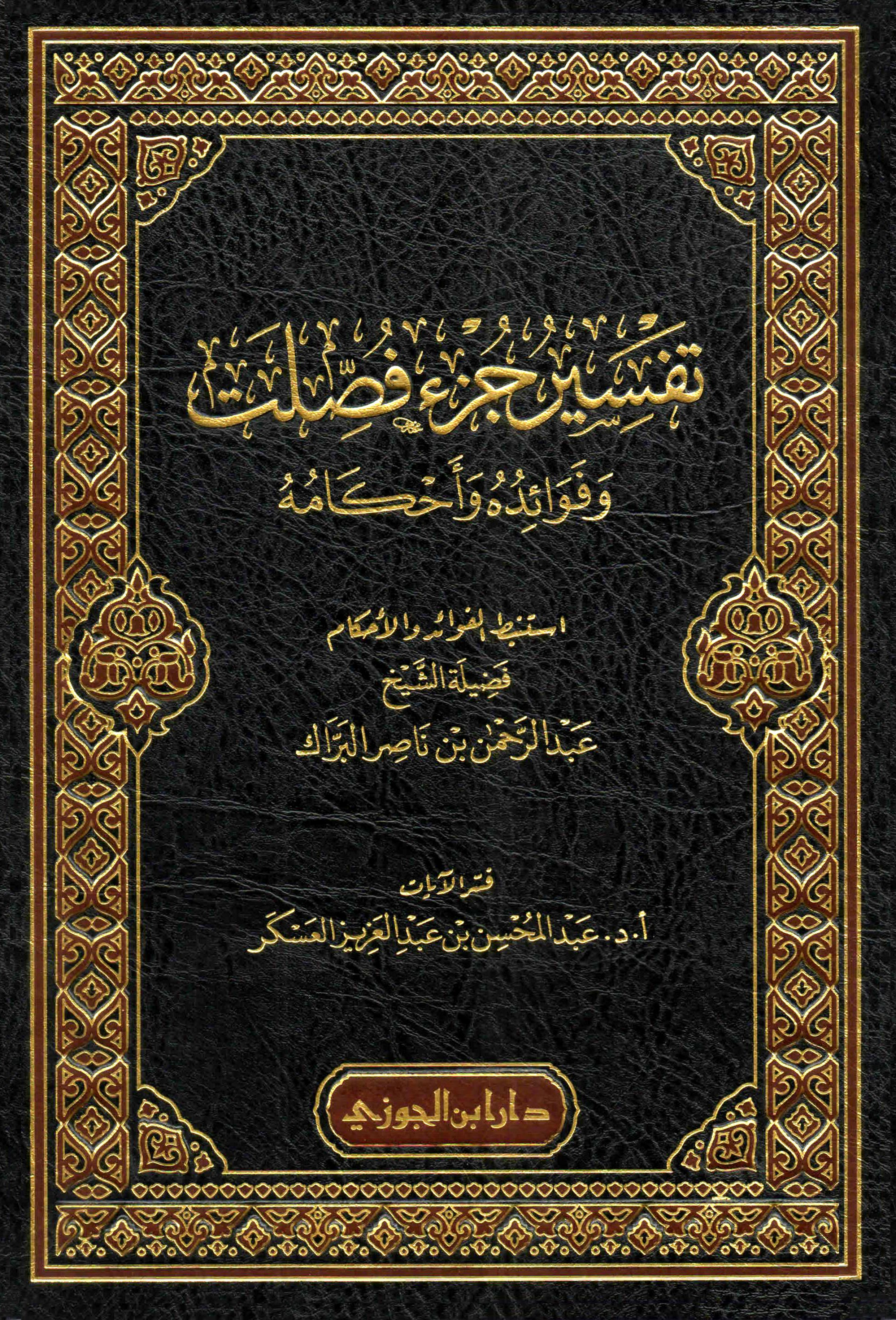
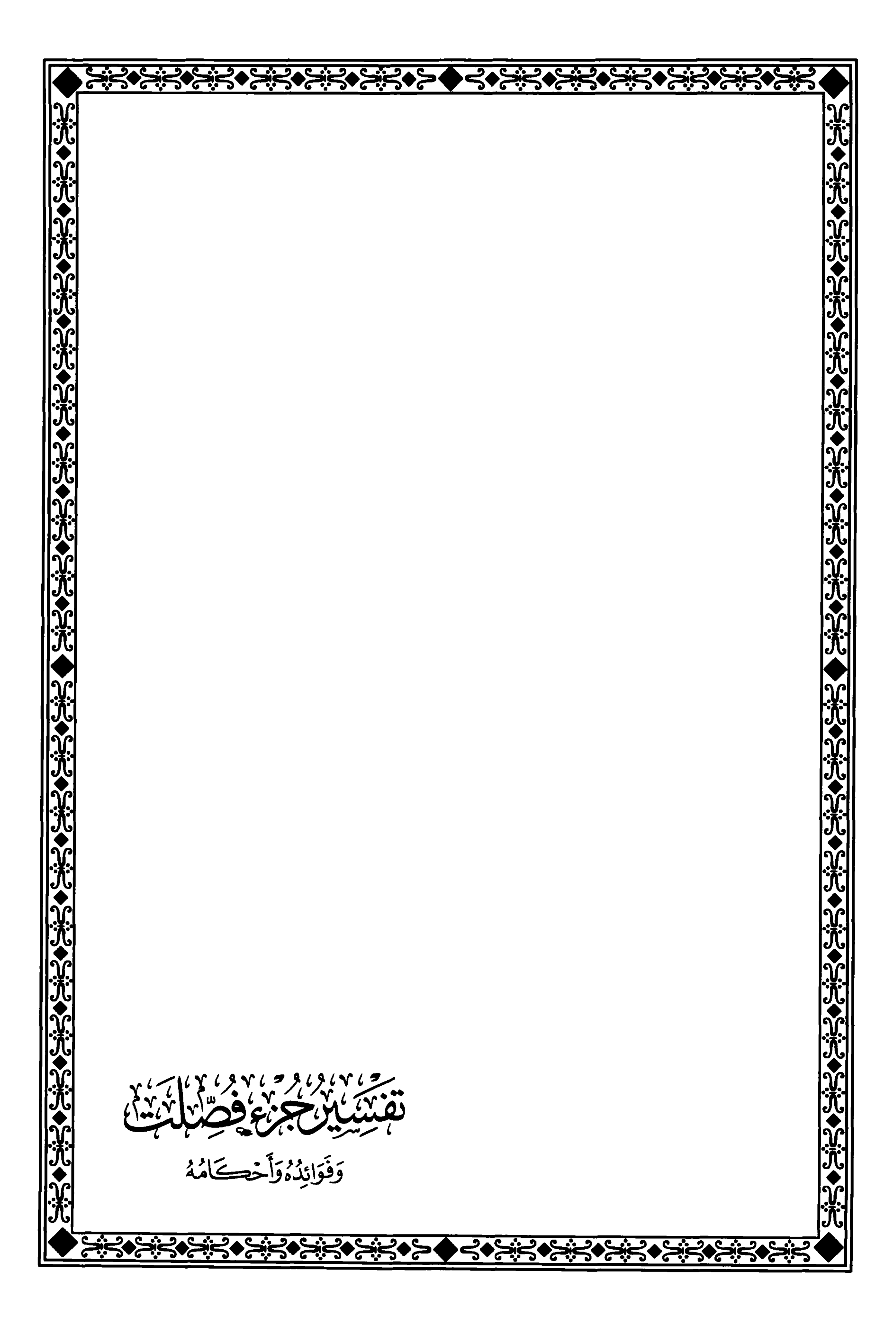
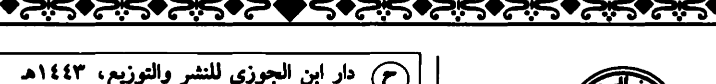


تفسير جزء فصلت
وفوائده وأحكامه
استنبط الفوائد والأحكام
فضيلة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر البراك
فسر الآيات
أ.د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر
دار ابن الجوزي


تفسير جزء فصلت
وفوائده وأحكامه





دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣

٠١٣٨٤١٢١٠٠

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العسكر، عبد المحسن بن عبد العزيز

تفسير جزء فصلت وفوائده وأحكامه./عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر؛ عبد الرحمن بن ناصر البراك.- الدمام، ١٤٤٣هـ

٣٥١ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٩٧٨ - ٦٠٣ - ٨٣٣٨ - ٤٩ - ٠

١ - القرآن - تفسير أ. البراك، عبد الرحمن بن ناصر (مؤلف مشارك) ب. العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٣/٦٤٦١

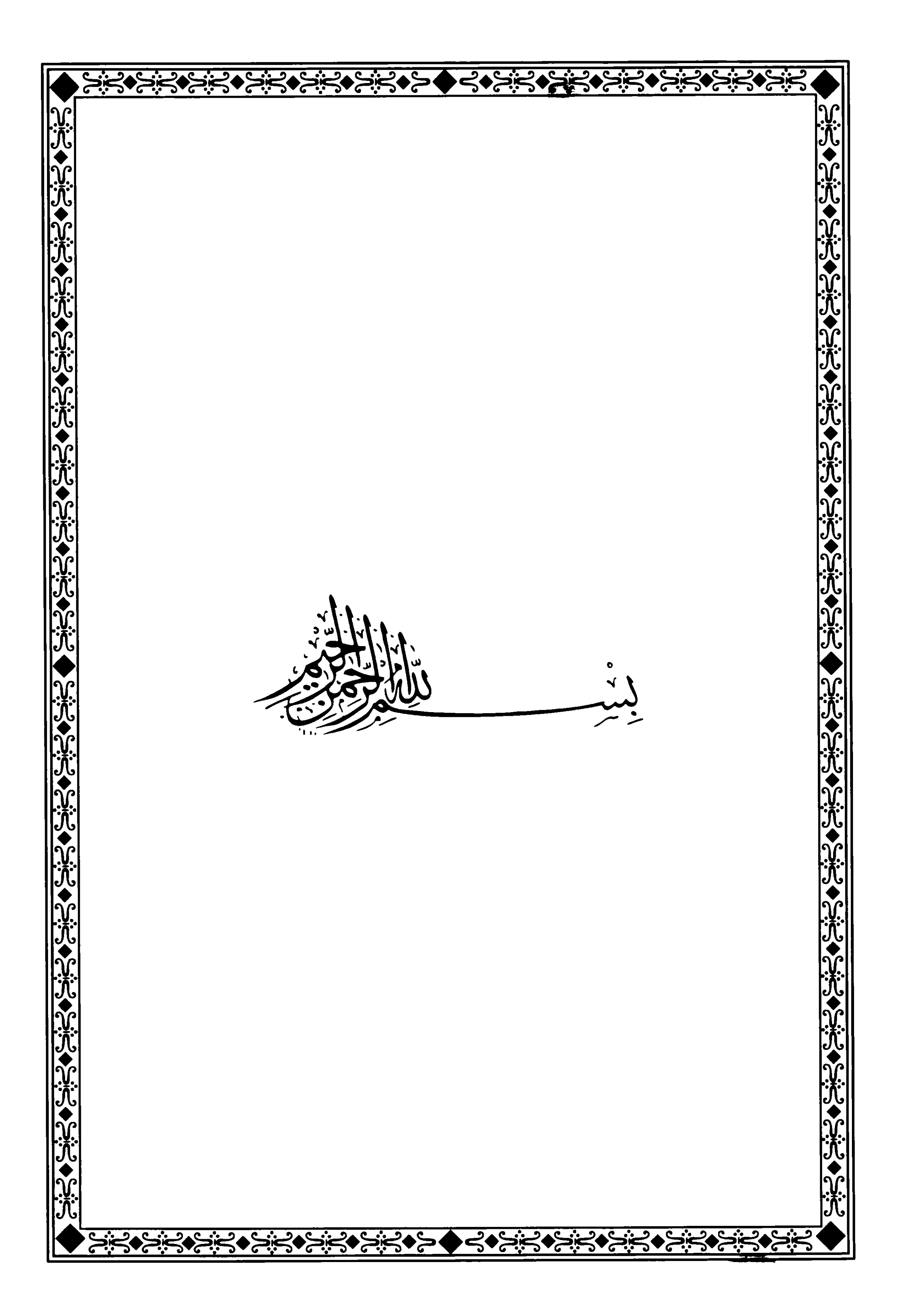
الطبعة الأولى

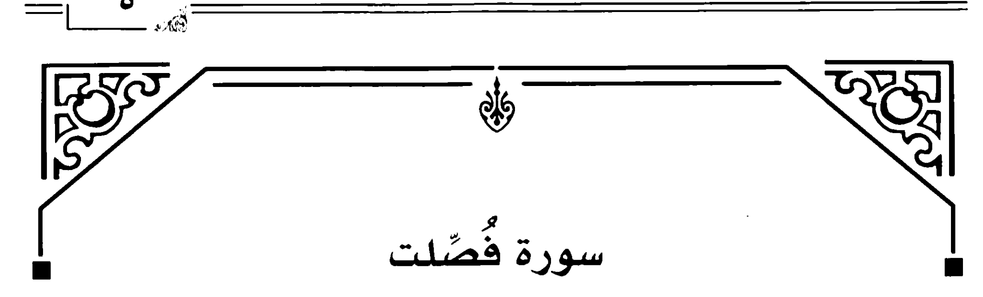
١٤٤٣هـ

طبع على نفقة محسن كريم

جزاه الله خيرا

الباركود الدولي: 9786038338490


بسم الله الرحمن الرحيم



سورة فُصِّلت

هذه سورة فُصِّلت، وسميت في «صحيح البخاري» سورة حم السجدة[١]؛ لأن بها سجدة من سجدات القرآن، وهي مكية بالإجماع، وعدد آياتها أربع وخمسون، وافتتحت بحرفين من الحروف المقطعة، هما الحاء والميم، وتنطق هكذا: حامِيم، بكسر الميم الأولى وسكون الميم الثانية، فهذه السورة من آل حم، وهي الثانية منها.

تضمَّنت آياتُها الأولى من (١) إلى (٨) التنويهَ بتنزيل القرآن مفصَّلةً آياتُه بلسان عربي، وذمَّ المعرضين عنه، المتبجحين ببُعدهم عن الإيمان به وبالرسول ﷺ، وما أمر اللهُ نبيَّه بالرد عليهم، وذكرَ عاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

كما تضمَّنت الآيات من (٩) إلى (١٢) توبيخَ الكفار على شركهم بالله الذي خلق السماوات والأرض، حتى جعلوا له أندادًا وهو رب العالمين، كما تضمَّنت جملة من دلائل ربوبيته تعالى وإلٰهيته؛ كخلقه الأرض في يومين، وتقديره أقواتها في يومين، وخلقه السماوات في يومين، وانقياد المخلوقات بقدرته، وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح، وذلك كلُّه تقدير العزيز العليم.

وتضمنَّت الآيات من (١٣) إلى (١٨) تهديدَ المعرضين عن دعوة الرسول ﷺ، وإنذارَهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود الذين كفروا بالله

---

(١) البخاري (كتاب تفسير القرآن) سورة حم السجدة (٦/ ١٢٧).

وكذَّبوا رسله، واستكبروا في الأرض، وما عاقب الله به عادًا من الريح في أيام نحسات، وما عاقب به ثمود من صاعقة العذاب الهون، ونجاة الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهم رسل الله والمؤمنون معهم.

وتضمَّنت الآياتُ من (١٩) إلى (٢٩) وصفَ حال الكافرين أعداء الله، وهم يُحشرون إلى جهنم، وتشهد عليهم أسماعُهم وأبصارُهم وجلودُهم، وعتابَهم لجلودهم لشهادتها عليهم، وبيانَ سبب شهادة جوارحهم عليهم، وفي هذه الآيات الخبر عن تسليط الشياطين على أولئك الكافرين واقترانهم بهم، لذلك حَقَّ القولُ عليهم بالشَّقاء في جملة الأمم الذين حقَّ عليهم القول، وكانت عاقبتهم الخسران، كما تضمَّنت الخبرَ عن الكفار وصدهم الناس عن القرآن مغالبةً لله وحزبه، ثم تهديدهم بأسوأ مصير، وهو الخلود في النار، التابعون منهم والمتبوعون، حتى يطلب الأتباع أن يصير المتبوعون تحتهم في العذاب ليكونوا من الأسفلين.

وتضمَّنت الآيات من (٣٠) إلى (٣٦) الإخبارَ عن أهل الإيمان والاستقامة الذين قالوا: ربُّنا الله، ثم استقاموا أن الملائكة تتنزل عليهم، وتبشرهم بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأنه أولياؤهم في الدنيا والآخرة، وبما أعدَّ الله لهم في الجنة من النُّزل يوم القدوم عليه سبحانه، كما تضمَّنت الثناءَ من الله على الداعين إليه، العاملين بطاعته، الصَّادعين بإسلامهم، كما تضمَّنت الموازنةَ بين السيئة والحسنة من الأعمال والأقوال، وأنهما لا يستويان، وفيها الأمر بدفع السيئة بالحسنة، والترغيب في ذلك بما يُثمره من زوال العداوات وصفاء الوُد، مع التنويه بمقام الدفع بالتي هي أحسن، وأنه لا يبلُغه إلا أولو الصبر والحظ العظيم، ثم خُتمت الآيات بما يدفع شر العدو الباطن الخفي، وهو الشيطان، وذلك بالاستعاذة من شره بالله السميع العليم.

وتضمَّنت الآياتُ من (٣٧) إلى (٤٠) التذكير ببعض آيات الله الكونية من الليل والنهار والشمس والقمر، وإحياء الأرض بعد موتها، والأمر بالسجود له تعالى وحده، والتنويه بعبادة الملائكة له، ودوام تسبيحهم؛ تعظيمًا لهم، وثناء عليهم، وتحقيرًا للمشركين المستكبرين عن عبادته تعالى، والتباين بين عاقبة الملحدين والموحدين، وتهديد المكذبين المعرضين عن آيات الله بأن الله بما يعملون بصير.

وتضمَّنت الآيات من (٤١) إلى (٤٦) ذمَّ الكافرين بالذكر الذي هو القرآن، والتنويهَ بشأنه، وتسليةَ الرسول ﷺ، وتعنُّتَ المشركين على النبي ﷺ؛ إذ لم يؤمنوا بهذا القرآن ولا باليوم الآخر، فلم يكن القرآن هدى لهم، وإنما كان هدى وشفاء للمؤمنين، كما كانت التوراة هدى للناس، ولهذا نوَّه الله بها بعد التنويه بالقرآن، ولكن بني إسرائيل اختلفوا في كتابهم، وكانوا في شك من أمرهم، فذمَّهم الله لاختلافهم وشكِّهم، ثم أتبع ذلك بذكر سُنَّة الله الجزائية للمحسنين والمسيئين، فكلٌّ له عمله الصالح وعليه وزره، ولا يظلم ربك أحدًا.

وتضمَّنت الآياتُ من (٤٧) إلى آخر السورة الإخبارَ عن ردِّ علم الساعة إلى الله وحده، وإحاطةَ علمه تعالى بما يخرج من الثمار من أكمامه، وبما تحمل به الإناث وتضعه، والخبرَ عن بعض مواقف القيامة يوم ينادي الله المشركين توبيخًا لهم؛ لإظهار خيبتهم من تعلُّقهم بشركائهم؛ فيعلمون حينئذ أن لا محيص لهم من عذاب الله، كما تضمَّنت الآياتُ الخبر عن الإنسان الكافر في حالَيه في السراء والضراء، وهو القنوط في حال الضراء، والغرور والتكذيب في حال السراء، ثم ذكر تهديد الكافرين بالحساب والعذاب الغليظ، ثم ذكر تعالى حال جنس الإنسان إذا أنعم الله عليه، وإذا مسَّه الشر؛ فحاله الإعراض في النعماء، والدعاء العريض في البأساء.

ثم خُتمت السورة بتقرير المشركين وتهديدهم إذا كذَّبوا بهذا القرآن، وهو حقٌّ من عند الله، وأنهم بذلك لا أحد أضلُّ منهم، وأنه تعالى سيُريهم من آياته الأفقية والنفسية ما يدل على أنَّ هذا القرآن حقٌّ، وأدلُّ من ذلك أنه تعالى على كل شيء شهيد، وأكَّد سبحانه أن أولئك الكافرين في شكٍّ من لقاء الله، وأنه تعالى بكل شيء محيط.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾.

المعنى الإجمالي:

في هذه الآيات تنويهٌ من الله تعالى بالنعمة العُظمى على العباد، وهي تنزيل هذا القرآن من الرحمٰن الرحيم، وقد فُصلت آياته بلسان عربي مبين، مشتملًا على البشارة والنِّذارة، ولكنْ أعرض الأكثرون، وكانوا لا يسمعون.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿حمٓ﴾ هذان حرفان من حروف المعجم، ويُعرفان عند علماء التفسير بالحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن، مثل: ﴿الٓمٓ﴾، و﴿صٓ﴾، و﴿قٓ﴾، وتُنطق بأسمائها، فيقال: ألف لام ميم، وصاد، قاف، وحا ميم، وهذه الحروف لا محل لها من الإعراب، وقد اختلف المفسرون في معناها اختلافًا كبيرًا، وحاصل كلامهم فيها يرجع إلى **قولين**:

الأول: أنها ليس لها معنى مفهوم، فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

الثاني: أن لها معنى، ثم اختلفوا في المعنى المراد. وفي بعض ما ذكروا إغراب، وأصح ما ذُكر في ذلك أنها تنبيه للأذهان، وإشارة إلى إعجاز القرآن، وإقامة للحجة على المعاندين الذين قالوا عن القرآن: إنه

كلام بشر، فكأنه قيل لهم: إن هذا القرآن منظوم من هذه الحروف التي تعرفونها ويتألف منها كلامكم، ومع ذلك لا تقدرون على أن تأتوا بسورة من مثله، وأنتم أهل البيان وأمراء البلاغة، فإذا ثبت عجزُهم تبيَّن لهم أنه ليس كلام بشر، وقامت الحجة عليهم به.

ويؤيد هذا التفسير: أن هذه الحروف المقطعة غالبًا ما تُتبَع بذكر القرآن، كما في هذه السورة، وكما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقوله: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١]، وقوله: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: القرآن تنزيل من الرحمٰن الرحيم؛ أي: منزَّل، فـ﴿تَنزِيلٞ﴾ مصدر وقع موقع اسم المفعول مبالغة في إثبات نزوله، كما قالوا: فلان عَدْل ورِضًى، فالقرآن منزَّل موحًى به ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿مِّنَ﴾ ابتدائية؛ أي: ابتداؤه وإنشاؤه من الله ﷻ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ أي: ذو الرَّحمة الواسعة ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؛ أي: الرَّاحم لمن يشاء من عباده؛ فالرَّحمٰن يدل على الرَّحمة الذاتية اللازمة لذاته، والرَّحيم يدل على الرَّحمة الفعلية التي تكون بمشيئته، هذا معنى كل واحد من هذين الاسمين الكريمين إذا جاءا مقترنين، وإذا جاء أحدهما فهو متضمِّن معنى الآخر.

وتخصيص هذين الاسمين بالذكر يدل على أن نزول القرآن رحمة من الله لعباده يهديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وأنه نعمة عظيمة باقية إلى يوم القيامة، تناط به جميع المصالح الدينية والدنيوية، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: القرآن كتاب، وأخبر عنه بذلك لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، وفي المصاحف ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: بُيِّنت معانيه من التوحيد، والوعد والوعيد، والحلال والحرام، والقصص والأخبار، والمواعظ والعبر، والأمثال، غاية التبيين، فسبحان من أنزله! وبحلية الإيجاز والإعجاز جمَّله وكمَّله!

قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: فصِّلت آياته حال كونه قرآنًا عربيًّا، والقرآن مصدر كالغُفران والشُّكران، وهو مصدر بمعنى اسم المفعول؛ أي: المقروء، ثم صار القرآن علمًا على هذا الكتاب المنزل من عند الله ﷻ ﴿عَرَبِيًّا﴾ العربيُّ المنسوب إلى العرب؛ أي: أنزلناه باللسان العربي ليحفظوه ويفهموه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، فهو بيِّن لهم، ولو كان بغير لغتهم لم يفهموه، واللغة العربية هي أوسع اللغات وأفصحها، وأدلُّها على ما في الضمائر، ولقد عظم شرفها بنزول القرآن بها.

وقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يدل على أن ما في القرآن من الألفاظ والتراكيب عربيٌّ، وما ادُّعي أنه أعجمي مثل سندس وإستبرق، فهو من توافق اللغات، أو هي ألفاظ أعجمية وجدت في عصور الفصاحة فعُرِّبت، فأما أسماء الأعلام الأعجمية فلا خلاف في وجودها في القرآن؛ لأنها محكيَّة مثل: إبراهيم، وإسحاق، وطالوت ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يعلمون معانيه؛ لأنه نزل بلسانهم، ويعقلون ما فيه من الدلائل الظاهرة والآيات الباهرة، ويعلمون أنه في أعلى طبقات البلاغة حيث جاء بأَفصح الألفاظ في أحسن نُظوم التأليف مضمَّنًا أصحَّ المعاني، فلا غرو أن تقاصرت عنه أشعارُهم، وتضاءلت دونه خطبهم وأسجاعُهم.

وذكر اللهُ بعض أوصاف القرآن؛ فقال سبحانه: ﴿بَشِيرًا﴾؛ أي: مبشِّرًا بالجنة للمؤمنين العاملين ﴿وَنَذِيرًا﴾؛ أي: منذرًا؛ أي: مخوِّفًا بالعذاب الأليم للكافرين المكذبين، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾؛ أي: فانصرف معظمهم ـ أي: مشركو مكة ـ عن الإيمان بالقرآن والاستجابة له، استكبارًا وعنادًا ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لذلك ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفكر وتدبر، فكأنهم لا يسمعون.

الفوائد والأحكام:

١ ـ الإشارة إلى إعجاز القرآن للعرب بافتتاح السورة بحرفين من الحروف المقطَّعة، التي يتألف منها كلام الناس، ومع ذلك تحدَّى اللهُ الثقلين أن يأتوا بمثله فما استطاعوا.

٢ ـ أن القرآن منزَّل من عند الله تعالى.

٣ ـ إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والتنزيل لا يكون إلا من علو.

٤ ـ أن إنزال القرآن رحمة من الله بالعباد، كما يقتضيه الاسمان الشريفان: الرحمٰن والرحيم.

٥ ـ الامتنان من الله على عباده بإنزال كتابه قرآنًا عربيًّا.

٦ ـ إثبات هذين الاسمين الكريمين: (الرحمٰن) و(الرحيم)، وما دلَّا عليه من الرحمة العامة والخاصة.

٧ ـ أن القرآن كلام الله لفظه ومعناه؛ لأن ابتداء نزوله منه.

٨ ـ الرد على من يقول: إن كلام الله معنى نفسيٌّ؛ كالأشاعرة والكُلابيَّة.

٩ ـ أن آيات القرآن مفصَّلة؛ أي: مبيَّنة.

١٠ ـ أن القرآن منزل بلسان عربي.

١١ ـ أن قيام الحجة على العرب أظهر من غيرهم؛ لأنه بلسانهم.

١٢ ـ الرد على من يقول: «إن في القرآن ما لا يفهمه أحد»؛ كالمفوِّضة في نصوص الصفات.

١٣ ـ فضل اللغة العربية لنزول القرآن بها.

١٤ ـ حفظ اللغة العربية؛ لوعد الله بحفظ القرآن، وهي تابعة له.

١٥ ـ أنه لا يفقه القرآن إلا أولو العلم بدلالات الكلام.

١٦ ـ أن القرآن حقيق بتدبره، والتفكر في معانيه.

١٧ ـ أن القرآن بشير؛ لما فيه من البشارات للمؤمنين.

١٨ ـ أنه نذير؛ لما فيه من النُّذُر للمكذبين.

١٩ ـ أن أكثر العرب قد أعرضوا عن هذا القرآن؛ لذلك لا يستجيبون.

٢٠ ـ سَفَه الكفار بإعراضهم عن هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات العظيمة.

٢١ ـ أن كفرهم عن استكبار وعناد، لا عن قصور في دلالات القرآن.



ثم أكَّد اللهُ الخبر عن إعراضهم بذكر ما قالوا عن أنفسهم؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآياتُ الإخبار ببعض أقوال المشركين المُنْبئة عن إصرارهم على الكفر، وتعليم الله نبيَّه ﷺ الردَّ عليهم، وتهديدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة، وختمت بذكر عاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟﴾؛ أي: المشركون للرسول ﷺ حين دعاهم إلى الإيمان ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾؛ أي: في أغطية، جمع (كِنان) مثل زِمام وأزِمَّة، وهو أبلغ مما لو قيل: على قلوبنا أكنَّة؛ لكون القلوب مظروفة؛ أي: في أغطية كثيفة محيطة بها من كل جانب، فهي لا تفقه ولا تعقل شيئًا ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والإيمان ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾؛ أي: صَمَم فهي لا تسمع قولَك، وأصل الوَقر الثِّقَل، والفعل وقَر من باب وعَد، ويستعمل لازمًا ومتعديًا، يقال: وقَرت أذنُه، ووقَر الله أذنَه فوقَرت، وهذا لبُغضهم لما دعاهم الرسول إليه، فكأن أسماعهم معطَّلة

﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾؛ أي: ستر مانع من الرؤية فلا نراك بأبصارنا، فانسَدَّتْ عليهم طرقُ الفهم والإدراك، فلا هم يفهمون بقلوبهم، ولا يسمعون بآذانهم، ولا يرون بأبصارهم.

ولم يقولوا: وبيننا وبينك حجاب؛ لأن هذه العبارة تدل على مطلق الحجاب؛ بل جاؤوا بـ﴿مِن﴾ الابتدائية الدالة على أن الحجاب مبتدأ من الجانبين، فالمسافة مملوءة من الحجاب، فلا فراغ فيها، فكأنهم يقولون: الحجاب ابتدأ منا ومنك ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾؛ أي: فامض على دينك، واعمل ما شئت من الكيد لنا ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾؛ أي: على ديننا، وهذا تحدٍّ وتهديد، وتأكيدهم الكلام بـ﴿إن﴾ يدل على إصرارهم على الكفر.

قوله سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ﴾؛ أي: قال الله للنبي ﷺ: قل لهم: ما أنا إلا بشر ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾ في البشرية في الجنس والصورة والهيئة؛ فلست مغايرًا لكم، ولكن الله خصَّني بالوحي والرسالة ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الموحي هو الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ [سبأ: ٥٠]، ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ أي: إنما معبودكم الحقُّ إلٰهٌ واحد ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ أي: اسلكوا إليه الطريق القويم، وذلك بتوحيده وعبادته ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾؛ أي: اطلبوا مغفرته، وقدَّم الأمر بالاستقامة، وهي فعل ما ينبغي وهي من التحلية، على الأمر بالاستغفار، وهو إزالة ما لا ينبغي وهذه هي التخلية، وهذا خلاف القاعدة أن التخلية قبل التحلية، والجواب: أن ذلك الاستغفار إنما هو مما يعرض للاستقامة من التقصير، وهو من تمام الاستقامة.

ولما رغَّب اللهُ في الخير والطاعة حذَّر من الشرك؛ فقال تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: عذاب وهلاك للمشركين من شركهم بربهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: لا يؤدون زكاة أموالهم، وقال بعض

العلماء: بل المراد الذين لم يزكوا أنفسهم بالتوحيد، ولم يطهروها من الشرك، واحتجوا بأن الزكاة لم تفرض إلا في المدينة والسورة مكية، والصحيح أن فرض الزكاة وقع بمكة، والآية دليل على ذلك، وأما تعيين النُّصُب وأصناف المستحقين فكان بالمدينة.

قوله تعالى: ﴿وَهُم﴾؛ أي: المشركون ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: بالحياة الآخرة، وسميت آخرة؛ لأنها بعد الحياة الدنيا ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون للبعث والحساب والجزاء، وخصَّ منع الزكاة بالذكر وقَرَنه بالكفر بالآخرة؛ لأن المال أَحَب شيء إلى الإنسان، فإذا بذله في سبيل الله كان دليلًا قويًّا على صدق إيمانه بالله ورجاء ثوابه، كما قال ﷺ: **«والصدقة برهان»**[1].

ولما ذكَر الكافرين وجزاءهم ذكَر المؤمنين وما أعد لهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُواْ﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولا يكون العمل صالحًا إلا بشرطين: أن يكون خالصًا لله تعالى، وأن يكون على وفق الشرع ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾؛ أي: ثوابٌ غير مقطوع؛ بل دائم، كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥]، وانظر إلى كرمه تعالى؛ حيث سمَّى الثواب أجرا؛ كأنه مستحَقٌّ للعبد في مقابل عمله، مع أن ما يقوم به المكلَّف مهما بلغت عبادته قليلٌ بالنسبة إلى ما يستحقه الله من الطاعة والعبادة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ فيها شاهد لما أخبر الله به عن حال المشركين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ٤٥

(١) رواه مسلم (٢٢٣) عن أبي موسى رضي الله عنه.

وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

٢ ـ فيها شاهد لقوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٨].

٣ ـ مجاهرة الكفار بالإصرار على التكذيب والعناد لدعوة الحق.

٤ ـ شدة كراهة المشركين للقرآن.

٥ ـ شدة عداوة المشركين للرسول ﷺ، وتَحَدِّيهم له.

٦ ـ تعليم الله نبيَّه ﷺ الردَّ عليهم بما مضمونه أنه لا يدعي تفضُّلًا عليهم إلا بما منَّ الله به عليه من الوحي أن الإلٰه واحد.

٧ ـ أن الرسول بشر، ليس له خصوصية في خلقه.

٨ ـ الرد على من يزعم أن الرسول مخلوق من النور الإلٰهي.

٩ ـ أن الرسول ﷺ بشر حقيقة كسائر البشر في خلقه وطبيعته.

١٠ ـ أن ما أوحى الله به إلى نبيِّه يتضمن دعوة المشركين إلى الاستقامة إلى الله، وذلك بعبادته وحده لا شريك له، والتوبة إليه من شركهم وتكذيبهم.

١١ ـ تهديد من أصر منهم على الشرك والكفر بالآخرة.

١٢ ـ أن المشركين لم يُزَكوا أنفسهم بإخلاص الدين لله، ولم يُخرجوا زكاة أموالهم، وهذا موجَب الوعيد في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

١٣ ـ الوعيد على ترك الزكاة.

١٤ ـ أن من موجبات كفرهم وسوء عاقبتهم كفرَهم بالآخرة.

١٥ ـ أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

١٦ ـ ذكر عاقبة المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

١٧ ـ اعتبار العمل الصالح في حصول الثواب.

١٨ ـ أن ثواب الجنة دائم لا ينقطع؛ لقوله: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

١٩ ـ أن من سنَّةِ القرآن: الجمعَ في الذكر بين الفريقين السعداء والأشقياء، وذكر عاقبتهما.

٢٠ ـ إثبات الدار الآخرة.

لمَّا أمر الله نبيّه أن يعلن للمشركين أن إلٰههم واحد، ذكر ما يدل على ربوبيته وإلٰهيته، وهو خلق هذا العالم العلوي والسفلي؛ **فقال سبحانه:**

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ توبيخَ المشركين على كفرهم بالله وشركهم به سبحانه، مع ظهور دلائل ربوبيته تعالى وإلٰهيته، ومنها خَلْق الأرض في يومين، وجَعْل الجبال رواسي، ومنها: أنه قدَّر في الأرض أقواتَها، وبارك فيها في يومين، فهذه أربعة أيام سواء لمن سأل عن مدة خلق الأرض، كما تضمَّنت الآيتان الأخيرتان الإخبارَ عن خلق السماوات السبع، وانقيادَ السماوات والأرض بأمره تعالى، وتزيينَ السماء الدنيا بمصابيح، وحفظَها من شر شياطين الإنس والجن.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول للمشركين: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ الهمزة الأولى لإنكار كفرهم وتوبيخهم ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ أكَّد وصف المخاطبين بالكفر بـ(إنَّ) ولام الابتداء تغليظًا للإنكار عليهم؛ حيث أشركوا بالله مع قيام

دلائل التوحيد أمام أعينهم في هذا الكون الفسيح وفي أنفسهم، على أنه تعالى واحد لا شريك له.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]؛ أي: من حيث الإنكار على المشركين كفرهم بالاستفهام، إلا أن آية فصلت اقترنت بتأكيد نسبة الكفر إليهم بـ(إن) واللام.

وعبَّر تعالى عن ذاته المقدسة ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ تعظيمًا لشأنه تعالى، واستعظامًا لكفرهم. المعنى: عجبًا لكم! كيف تكفرون بالله العظيم خالق الأرض بعد العدم، على سعتها وعظمها، وبدئ بذكر الأرض قبل السماء؛ لأنها قريبة منهم؛ فهي تحت أقدامهم ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ جمع نِدٍّ، وهو الشَّبه والمِثل، والجملة عطف تفسير لبيان نوع كفرهم؛ أي: وتجعلون له نظراء مساوين له في استحقاق العبادة من الأصنام وغيرها ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: ذلك الخالق للأرض هو ربُّ المخلوقات كلِّها؛ أي: خالقها ومالكها ومدبِّرها، وهذا تأكيد لإبطال عقيدة الشرك.

قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ الجملة معطوفة على ﴿خَلَقَ﴾؛ أي: وجعل في الأرض جبالًا ثوابت كالأوتاد؛ لئلا تميد بأهلها ﴿مِن فَوْقِهَا﴾؛ أي: من فوق الأرض يراها الناس فيصيبون من منافعها، ويتذكرون بها الخالق ﷻ ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾؛ أي: وجعل الأرض مباركة كثيرة الخيرات بما أودع فيها من المياه والمعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس، وما بثَّ فيها من الحيوان والطير، وما أنبت عليها من الزروع وسائر الطيبات ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾؛ أي: وقسَّم فيها أرزاق أهلها حسبما تقتضيه حكمته تعالى، فتجد في كل بلدة من التجارات والأشجار والمنافع ما لا تكاد تجده في الأخرى، ويتبادل الناس ذلك فيما بينهم،

وتستقيم الحياة ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ مكمَّلة باليومين السابقين، تقول العرب: خرجنا من صنعاء إلى مكة في عشرين يومًا، وإلى المدينة في ثلاثين يومًا، يريدون ثلاثين يومًا من خروجهم من صنعاء إلى المدينة، فيكون إيجاد نفس الأرض في يومين هما: الأحد والاثنين، وإيجاد هذه الأشياء في يومين آخرين هما: الثلاثاء والأربعاء، والمجموع أربعة أيام، وخَلْق السماء في تتمة ستة، فتكون هذه الآية موافقة لسائر الآيات، وهذه الأيام كأيامنا في الدنيا؛ لأن الله يخاطبنا بما نعلم من دلالات اللغة المعلومة لنا.

قوله سبحانه: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، ﴿سَوَآءٗ﴾ اسم مصدر بمعنى استواء منصوب بفعل مقدر؛ أي: استوت تلك الأيام استواءً؛ يعني: متساوية لا تفاوت بينها في أقل لحظة ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ليس متعلقًا بـ﴿سَوَآءٗ﴾؛ بل هو متعلق بمحذوف؛ أي: هذا جوابٌ للسائلين عن خلق الأرض.

وجُعلت مدة خلق الأرض بما فيها ضِعفَ مدة خلق السماوات مع كونها أكبر من الأرض وأدلَّ على القدرة؛ للدلالة على أن الله يخلق ما شاء كيف شاء زمانًا أو كيفية، فيخلق ما شاء في مدة طويلة أو قصيرة.

ولما انتهى الكلام في خلق الأرض ذكر خَلْق السماء؛ فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: قصد إلى خَلْق السماء ﴿وَهِيَ دُخَانٞ﴾؛ أي: كالدُّخان، قيل: إنه البخار المتصاعد من الماء الموجود قبل خلق السماوات والأرض، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٧].

دلَّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أن خَلْق الأرض كان قبل خَلْق السماء، ولا يعارض هذا قولَه تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ

دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات ٢٧ ـ ٣٠]؛ فإن الله خلق الأرض ـ أولًا ـ غير مدحوَّة، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

قوله سبحانه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾؛ أي: فقال اللهُ للسماء والأرض قولًا حقيقيًّا بكلام مسموع ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ أي: انقادًا لأمري طائعتين أو كارهتين، والظاهر أنه أمر تكليف لا أمر تكوين؛ لأن أمرَ التكوين لا يقتضي إرادة من المأمور حتى يكون طائعًا أو كارهًا؛ بل يجب عليه الانقياد للأمر، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فهذه الآية تدل على أن السماوات والأرض والجبال لها إرادة قابلة للتكليف.

قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾؛ أي: أتينا طائعتين لك منقادَتين لأمرك، وهو كلام حقيقيٌّ، والله تعالى أعلم بكيفيته، ومال كثير من المفسرين إلى أن قول السماء والأرض ليس على حقيقته، وإنما هو مجاز وتصوير لتأثير قدرته تعالى فيهما، وهذا صرفٌ للنص عن ظاهره، وتأويل لا دليل عليه، والذي خلقهما قادر على إنطاقهما، وليس لنا أن نسأل: كيف يكون ذلك الكلام؟ قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اختلف الناس في هذه المقالة من السماء والأرض، فقالت فرقة: نطقت حقيقة، وجعل الله تعالى لها حياة وإدراكًا يقتضي نطقها. وقالت فرقة: هذا مجاز، وإنما المعنى أنها ظهر منها من اختيار الطاعة والخضوع والتذلل ما هو بمنزلة القول أتيْنا طائعين، والقول الأول أحسن؛ لأنه لا شيء يدفعه وإنما العبرة به أتم، والقدرة فيه أظهر»[١].

وقوله سبحانه: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ دون طائعتين، عبَّر بجمع

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٧).

المذكر العاقل؛ لوصف السماوات والأرض بأوصاف العقلاء، وفيه مراعاة الفواصل.

قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾؛ أي: فأتم الله خَلْقَ السماوات السبع بإتقان ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ هما: يوم الخميس ويوم الجمعة، فصارت الأيام ستة، والله سبحانه قادر على أن يخلق السماوات والأرض في أقل من لمح البصر؛ لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون، ولكن خلقها في ستة أيام لحِكَم يعلمها تعالى، قال بعض العلماء: من هذه الحكم أن الله يُعلِّم العباد التأني في الأمور، والله أعلم. ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ الوحي هنا بمعنى الأمر التكويني، وهو الإيجاد والخَلْق؛ أي: أوجد في كل سماء ما اقتضته حكمتُه من ملائكة وكواكب وغير ذلك، ويحتمل أن يراد بالوحي الوحي الشرعي، وهو أمر الملائكة بما شرع لهم من العبادات والطاعات؛ فالآية محتملة للنوعين أو شاملة لهما.

قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ مؤنث الأدنى؛ أي: السماء القريبة منكم ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ جمع مصباح، وهو ما يستضاء به؛ أي: وزيَّنا السماء بالنجوم المضيئة، وتنكير ﴿مصابيح﴾ تفخيم لشأنها، وتزيين السماء بها إنما يكون في الليل، فإن ضوءها يثقب الظلام، كما قال سبحانه: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ التفات بديع من الغيبة إلى التكلم؛ فإنه قال أولًا: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ وقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، وقال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾، وكلُّ ذلك على الغيبة، ثم قال سبحانه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ بضمير التكلم،

وفائدة هذا الالتفات: لَفْت الأنظار إلى بديع صنع الله في السماء، وما أودع فيها من العجائب.

قوله تعالى: ﴿وَحِفۡظٗاۚ﴾ منصوب بفعل مقدر؛ أي: وحفظنا السماء حفظًا من الشياطين واستراقها للسمع؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٦، ١٧]؛ فإن الشيطان المسترق للسمع يُرمَى بشهاب صادر من الكوكب لا بالكوكب نفسه؛ لأنه قارٌّ في الفَلَك.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: المذكور كله بتفاصيله من الخلق المتقن والإبداع ﴿تَقۡدِيرُ﴾؛ أي: إيجاد وتدبير ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾؛ أي: القوي الذي لا يُغلب ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ أي: المحيط علمه بكل شيء، وما أحسن خَتْم الآيات بهذين الاسمين الكريمين: العزيز والعليم! فإنه يشير إلى أن خَلْق السماوات والأرض على هذ النمط البديع العجيب، والإيحاء والتزيين والحفظ كائن بالقدرة التامة والعلم الكامل.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أمر الله نبيّه ﷺ بالاحتجاج على المشركين بذكر أدلة التوحيد.

٢ ـ مصارحة الكفار بكفرهم؛ وتحريم مداهنتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾.

٣ ـ تسفيه عقول المشركين بجعل الأنداد لربِّ العالمين.

٤ ـ إثبات قدرة الله وحكمته ورحمته.

٥ ـ إثبات ربوبيته تعالى العامة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٦ ـ أنه تعالى المستحق للعبادة.

٧ ـ إثبات الجعل الكوني؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾.

٨ ـ إفراد الجبال عن الأرض في الذكر والخلق.

٩ ـ الإشارة إلى حكمة خلق الجبال فوق الأرض.

١٠ ـ منة الله على عباده بخلق الجبال فوق الأرض؛ لئلا تميد بهم.

١١ ـ التنبيه على ما أودع الله في الأرض من البركات، وأسباب الأقوات.

١٢ ـ التصريح بأن ذلك كان في يومين زائدة على يومي خَلْق الأرض.

١٣ ـ النصُّ على مجموع الأيام التي خلقت فيها الأرض وما فيها.

١٤ ـ تفصيل ستة الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض.

١٥ ـ أن خَلْق السماوات بعد خَلْق الأرض.

١٦ ـ أن خَلْقها في يومين.

١٧ ـ أن من حكمة بعض ما في القرآن من أخبار: الإجابةَ عمَّا قد يَسأل عنه الناس، كما قال في يوسف وإخوته: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، وقال هنا: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

١٨ ـ كمال طاعة المخلوقات لله، وانقيادهن لأمره.

١٩ ـ إثبات الكلام لله.

٢٠ ـ إثبات النطق لبعض الجمادات.

٢١ ـ أن السماوات خُلقت من دخان، وهو بخار الماء، على ما ذكر المفسرون.

٢٢ ـ أن من معاني الاستواء: القصد إلى الفعل في مكان عال، وهو فعل ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ المعدَّى بـ﴿إِلَى﴾.

٢٣ ـ أن السماوات سبعٌ.

٢٤ ـ إثبات قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى، في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾، وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا﴾.

٢٥ ـ تزيين السماء الدنيا بالمصابيح، وهي النجوم.

٢٦ ـ حفظ السماء الدنيا بالنجوم.

٢٧ ـ أن خلق العالم العلوي والسفلي بتقدير وتدبير.

٢٨ ـ إثبات الاسمين الكريمين: (العزيز) و(العليم)، وما دلَّا عليه من صِفَتي العزة والعلم لله تعالى.

لمَّا ذكر اللهُ في ابتداء السورة صُدودَ مشركي مكة عن الإسلام، وتحديهم للرسول ﷺ، وذكَّرهم بآياته الباهرة في خلق السماوات والأرض وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح؛ خاطب رسولَه ﷺ **بقوله**:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآياتُ تهديدَ من أعرض من المشركين عن دعوة التوحيد بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، وهما قبيلتان عربيتان بائدتان، ومساكن عاد بالأحقاف جنوبي جزيرة العرب بين عُمان وحضرموت، ومساكن ثمود بالحِجْر شمالي الحجاز، فعاد وثمود أشركوا بالله وكذبوا رسل الله، وتعنَّتوا عليهم، وأخبر تعالى أن عادًا استكبروا في الأرض، وافتخروا بقوتهم، وقالوا: من أشدُّ منا قوة؟! فردَّ اللهُ عليهم بأنه تعالى هو الذي خلقهم، وهو أشد منهم قوة، ثم أخبر بأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا في أيام، وهي سبع ليال وثمانية أيام، فنالوا بذلك خزي الدنيا والآخرة.

ثم أخبر تعالى عن إهلاكه لثمود بالصاعقة فذاقوا عذاب الهون، وخُتمت قصة الأُمتين بالخبر عن عاقبة المتقين، وهم الرسل وأتباعهم.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾؛ أي: فإن أعرض المشركون عن الإيمان بعد هذا البيان الباهر، والبرهان القاهر، وأصَرُّوا على الكفر، وهو التفات من الخطاب في قوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿أَعۡرَضُواْ﴾، فإنهم لما أعرضوا أعرض عن خطابهم ﴿فَقُلۡ﴾ لهم ـ أيها الرسول ـ: ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ﴾؛ أي: خوَّفتكم ﴿صَٰعِقَةٗ﴾؛ أي: عذابًا مُهلكًا، وأصل الصاعقة نار تنزل من السماء تُحرق وتُبيد، مصحوبة بصوت شديد، وسمِّي العذابُ صاعقةً بجامع الاستئصال في كلٍّ منهما ﴿مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ﴾؛ أي: مثل عذاب ﴿عَادٖ﴾ وهم قوم هود ﴿وَثَمُودَ﴾ وهم قوم صالح، وعاد هلكوا بالريح، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٦]، ولكنَّ اللهَ سمَّى عذابهم صاعقة؛ لأن الريح صعقتهم وفعلت بهم فعل الصَّاعقة، فأبادتهم ودمرتهم تدميرًا.

وأما ثمود فهلكوا بالصاعقة كما قال تعالى هنا: ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾، وسمَّاها اللهُ طاغية في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]؛ أي: بالصيحة الطاغية؛ أي: المجاوزة للحدِّ في الشدَّة، وسماها صيحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، وذكر سبحانه أنهم أخذتهم الرجفة؛ أي: الزلزلة؛ لأن الرجفة مسبَّبة عن الصيحة، قال ﷻ: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وخُصَّت عاد وثمود بالذكر؛ لأن كفار مكة يعلمون أخبارهم، ومنهم مَن شاهد ديارهم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾، ﴿إِذْ﴾ ظرف زمان متعلق باسم الفاعل ﴿صَٰعِقَةِ﴾؛ أي: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقتهم حين جاءتهم الرسل، وهما رسولان، فرسول عادٍ هودٌ، ورسول ثمودَ صالحٌ، وعَبَّر بالجمع عن الاثنين؛ لأن من كذب رسولًا فهو مكذب لجميع الرسل ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: جاؤوهم من كل جهة، واجتهدوا في هدايتهم، تارة بالترغيب وتارة بالترهيب، ودعوهم بكل وسيلة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿أَلَّا﴾ أصلها: أنْ لا، وأنْ هي المفسِّرة؛ أي: قائلين لهم: لا تعبدوا إلا الله وحده، وهذه دعوة الرسل كلهم، فهي دعوة التوحيد، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قوم عاد وثمود ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسال رسول نهتدي به ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ رسلًا إلينا لا بشرًا مثلنا، وهذا من جهلهم؛ لأنه لو كان الرسول ملَكًا ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

ثم قالوا مصرِّين على تكذيبهم ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون، وليس في قولهم: ﴿أُرْسِلْتُم﴾ إقرار برسالتهم، وإنما قالوا ذلك استهزاءً؛ أي: بناءً على دعواكم أنكم مرسلون، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الفاء للتفريع على ما تقدم، فهو تفصيل بعد إجمال؛ لبيان نوع كفر عاد وسوء عاقبتهم ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يعني: أنهم مع كفرهم تكبَّروا تكبُّرًا عظيمًا على الله وعلى رسله وعلى عباده المؤمنين، واحتقروهم ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ليس معنى ذلك؛ أنه

يوجد استكبار بحق؛ بل هذا فيه تشنيع عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]، فلا مفهوم لهذا القيد؛ فإن قتل النبيين لا يكون بحق؛ كذلك الاستكبار في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أشد منَّا قوة، وهذا غرور منهم، وجحد وإنكار لما يعلمونه من أن خالقهم أشدُّ منهم قوة، ولهذا ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾؛ أي: أو لم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ وخلق كلَّ شيء، وهو بيان لضعفهم ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فهذا تقرير بعلمهم أن الله أشدُّ منهم قوة، ومَن عَلِمَ أن غيرَه أقوى منه، وكان عاقلًا، انقاد له فيما ينفعه ولا يضره ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: يكفرون بمعجزات رسولهم وإنذاراته وبدلائل التوحيد، وأضاف اللهُ الآياتِ إلى نفسه المقدسة تعظيمًا للآيات، فهي حريَّة بالإيمان بها.

ثم ذكر اللهُ ما أنزل على عاد من العذاب؛ فقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾؛ أي: ريحًا عظيمة شديدة البرد والصوت والعصف فأبادتهم جميعًا ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾؛ أي: أيَّام مشؤومات عليهم، جمع نَحْس؛ يعنى: أنها أيام سوء شديدة، وهي ثمانية أيام، كما ذكر اللهُ ذلك في قوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، وليس في الآية ما يدل على جواز التشاؤم بالأيام؛ لأن هذا خبر من الله بصفة هذه الأيام؛ لما وقع فيها.

وانظر: لما افتخر القوم بقوتهم أهلكهم اللهُ بشيء من ألطف مخلوقاته، وهي الريح الهواء، فما أحقرهم! وما أهونهم على الله ﷻ!

قوله تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾؛ أي: كي نذيقهم عذاب الذل والهوان ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهذا في مقابل استكبارهم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ

﴿أَخۡزَىٰ﴾ اللام هي لام الابتداء، فهي تؤكد مضمون الجملة؛ لأنها وعيد؛ أي: ولعذاب الآخرة أشدُّ ذلًّا وهوانًا؛ حيث يراهم جميعُ الأمم، وهم يُقاسون أشدَّ العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ [الزمر: ٢٦]، ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا أحد ينصرهم، ولا يستطيعون نصر أنفسهم.

قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ أي: بيَّنا لهم طريق الخير على لسان نبيّهم صالح ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ﴾؛ أي: فاختاروا الضلال، وهو الكفر ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو الإيمان ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾؛ أي: فأصابتهم صاعقة العذاب المهين لهم، فالهُون مصدر بمعنى الهَوان والذُّل، أريد به اسم الفاعل مبالغة؛ كأن العذاب هو الذل نفسه، كما يقال: رجل عدْل؛ أي: عادل ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ أي: بسبب كسبهم، وهو اختيارهم الكفر والضلال ﴿وَنَجَّيۡنَا﴾ من العذاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ برسل الله هود وصالح ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: يتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

الفوائد والأحكام:

١ - سوء عاقبة الإعراض عن هدى الله.

٢ - تهديد المعرضين بسُنَّة الله، وهي إهلاك من كفر بالله، وعصى رسله.

٣ - إثبات القياس؛ فالمكذبون للرسول ﷺ مستحقون للعذاب؛ كاستحقاق عاد وثمود؛ لاتحاد العلة، وهي التكذيب والإعراض.

٤ - حرص الرسل على تبليغ رسالات الله، وهداية أقوامهم.

٥ ـ أن الرسل جاؤوا بالدعوة إلى توحيد العبادة؛ لقوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾.

٦ ـ إيمان عاد وثمود بالملائكة؛ لقوله: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾.

٧ ـ إقرارهم بتوحيد الربوبيَّة.

٨ ـ أن الإقرار بتوحيد الربوبية لا يُدخِل الإنسانَ بمجرده في الإسلام حتى يُقِرَّ بتوحيد الإلٰهية.

٩ ـ مجاوزة الإنسان للحد في الطغيان؛ لقوله: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾.

١٠ ـ الرد على المبطل بما يتضمَّن ما يسلم به.

١١ ـ جواز استعمال أفعل التفضيل في حق الله، مثل: أعلم وأرحم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ﴾.

١٢ ـ أن عادًا وثمود لما أشركوا بالله وعتوا عن أمره تعالى عاقبهم الله في الدنيا.

١٣ ـ أن عادًا لم يهلكوا بصاعقة؛ بل بريح عاتية، وسمَّاها صاعقة لأنها فعلت بهم فعل الصاعقة.

١٤ ـ أن الريح مرسلة من الله بأمره؛ لقوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾.

١٥ ـ في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]؛ أي: التي لا خير فيها.

١٦ ـ إثبات الإرسال الكوني.

١٧ ـ أن هلاك عاد كان في أيام، وأما ثمود فأهلكوا بالصاعقة مصبحين، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

١٨ ـ أن عذاب عاد أطول وأشد، وعذاب ثمود أسرع وأخف.

١٩ ـ مناسبة عقاب كل من الأُمَّتين لجُرمها؛ فعاد كانت أكفر، فكان عذابها أشد وأطول.

٢٠ ـ أن الحامل لعاد على الكفر هو الاستكبار.

٢١ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله؛ لقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾.

٢٢ ـ أن عذاب الآخرة أشدُّ من عذاب الدنيا، وشواهد ذلك كثيرة.

٢٣ ـ أن الكافر يجمع له بين عذاب الدنيا والآخرة، بخلاف المؤمن؛ فإن الله لا يجمع له بين العقوبتين، فإن عاقبه في الدنيا لم يعاقبه في الآخرة، كما قال ﷺ: «**من أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له**»[(١)].

٢٤ ـ إثبات الهداية العامة التي معناها الدلالة والإرشاد؛ لقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾.

٢٥ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

٢٦ ـ أن العَمَى نوعان: عمى بصر وعمى بصيرة، وهو الذي استحبته ثمود، ففيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

---

(١) البخاري (٦٧٨٧)، ومسلم (١٧٠٩) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

٢٧ ـ أن التكذيب والإعراض عن هدى الله سبب لعذاب الله العاجل والآجل.

٢٨ ـ التحذير من إيثار العَمَى على الهدى.

٢٩ ـ أنه لا نصير للكافرين يقيهم عذاب الله؛ لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

٣٠ ـ إثبات الأسباب في الخير والشر؛ لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

٣١ ـ أن العمل الذي يتعلق بالدين يسمَّى كسبًا.

٣٢ ـ أن التقوى سبب النجاة من عذاب الدنيا والآخرة.

ولمَّا بيَّن اللهُ عقوبةَ عاد وثمود في الدنيا، أخبر عن عذابهم وعذاب أمثالهم في الآخرة؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ عن حشر أعداء الله الكافرين إلى النار، وأنهم يُساقون ويُدفعون إليها مُكرَهين، وعن شهادة جوارحهم وجلودهم عليهم بما عملوا، وعن الحوار بينهم وبين جوارحهم إذا شهدت عليهم، وأنهم يوبخون على أنهم لم يكونوا يحذرون هذا المشهد، وأن الذي حملهم على عدم اتقاء شهادة جوارحهم عليهم بأعمالهم ظَنُّهم أن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون، ولهذا يقال لهم: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وحينئذٍ يقال لهم: اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم، وإن يعتذروا مظهرين عدم الصبر فإنه لا يقبل عذرهم، ولا يُزال عَتبهم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: واذكر ـ أيها النبي ـ

لقومك يومَ يُجمع أعداءُ الله الكفار ويساقون ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ويُدفَعون إليها بعُنف، وكانوا يكذبون بها في الدنيا ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يُرد أولهم على آخرهم ليجتمعوا فيها جميعًا، ويرى بعضُهم بعضًا، وهذا يدل على كثرتهم، نسأل الله السلامة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية، والجملة بعدها مستأنفة ﴿إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾، ﴿إِذَا﴾ شرطية ظرفية، و﴿مَا﴾ زائدة لتوكيد ربط الشرط وهو ﴿جَآءُوهَا﴾ بالجواب وهو ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني: أن الشهادة وقعت حين وقفوا على النار، فهما في زمان واحد.

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ﴾ قبل دخولهم النار ﴿سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾؛ أي: نطقت جوارحُهم وشهدت عليهم، وليس نطقها بأعجب من نطق الإنسان ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب؛ فيفتضحون على رؤوس الأشهاد، والظاهر أن شهادة الجوارح تكون بعد إنكارهم، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فتشهد عليهم الجوارح حينئذٍ.

قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ﴾؛ أي: وقال أعداءُ الله لجلودهم لائمين لها، متعجبين منها: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وفضحتمونا، ونحن ندافع عنكم لخلاصكم من النار، كما جاء الحديث في «صحيح مسلم» في مخاصمة العبد لربه أنه «**يختم على فِيه؛ فيقال لأركانه: انطقي؛ فتنطق بأعماله، ثم يخلَّى بينه وبين الكلام؛ فيقول: بُعدًا لكُنَّ وسُحقًا؛ فعنكنَّ كنت أناضل**»[1]، وفي رواية: «**فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله**»[2].

قوله سبحانه: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: قالت جلودُهم مُجيبة لهم: أنطقنا الله ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من الحيوان والجماد، مما يريد الله

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٩) عن أنس ﷺ. (٢) مسلم (٢٩٦٨) عن أبي هريرة ﷺ.

إنطاقه ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: أوجدكم بعد العدم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الآن للحساب والجزاء.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ يحتمل أن يكون هذا استئنافًا من كلام الله تعالى، أو من تمام كلام الجلود، ويؤيده قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وهو - على كِلا القولين - توبيخٌ للمخاطبين الكفار في ذلك الموقف العصيب موقف الخزي والحسرة، وتذكير لهم بماضيهم السيِّئ، وتهديد للكفار الأحياء في الدنيا بالموقف المخزي الذي ينتظرهم. المعنى: وما كنتم تستخفون عن جوارحكم عند ارتكابكم الفواحش والآثام حذرًا أن تشهد عليكم الجوارح؛ ولا يتأتى للإنسان أن يستخفي عن جوارحه؛ لأنها أجزاؤه التي يتكوَّن منها ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ﴾؛ أي: باستخفائكم عن الأعين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهو ما خفي من أعمالكم، ولذلك وقع منكم الجدال والتكذيب؛ فشهدت عليكم الجلود والأعضاء، وفي الآية التحذير من الغفلة عن مراقبة الله للعبد في جميع أحواله.

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدل منه ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ صفة لـ﴿ظَنُّكُمُ﴾، والخبر ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾؛ أي: ظنُّكم السيِّئ ﴿ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ وهو أن الله لا يعلم أعمالكم القبيحة، فهذا الظن ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾؛ أي: أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾؛ أي: فصرتم ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ على النار وعذابها ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾؛ أي: محل إقامة لهم، من قولهم: ثوى فلان بالمكان إذا أقام فيه، وهذا تيئيس لهم؛ لأنه لم يقل: فإن يصبروا فالفرج قادم،

قال تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطور: ١٦]، ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾؛ أي: يطلبوا العُتبى؛ أي: رضا الله عنهم ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾؛ أي: ما هم من المرضيِّ عنهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات النار، دار الكافرين.

٢ ـ أن الكفار أعداء الله، وهو ـ تعالى ـ عدوهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

٣ ـ أن مصير الكفار يوم القيامة إلى النار.

٤ ـ أنهم يُحشرون إلى النار، ويُوزَعون، ويدفعون إليها دفعًا.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

٦ ـ أنهم إذا جاؤوا النار شهدت عليهم جوارحُهم، وهذا من مشاهد الخزي المُشار إليها في قوله سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

٧ ـ إنطاق الله لجوارحهم.

٨ ـ لَوْمُهُم لجلودهم أنْ شهدت عليهم.

٩ ـ أن شهادة جوارحهم كانت بإنطاق الله لها بما شهدت به.

١٠ ـ أن الجوارح تكون خصومًا لأصحابها يوم القيامة.

١١ ـ أن نُطقَ كلِّ ناطق كائنٌ بإنطاق الله له.

١٢ ـ أنه تعالى خالق الناطق ونطقه.

١٣ ـ إثبات عموم قدرة الله.

١٤ ـ إثبات أن للعبد فعلًا؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

١٥ ـ أن الله تعالى وحده هو المبتدئ لخلق العباد وإليه يرجعون يوم القيامة.

١٦ ـ أن القرآن متضمن لأدلة عقلية على التوحيد والبعث والنبوة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

١٧ ـ إثبات قياس الأَوْلى، وذلك من قياس البعث على ابتداء الخلق، وإنطاق الجلود على الخلق أول مرة.

١٨ ـ إثبات علم الله بأعمال العباد.

١٩ ـ مضرة الجهل والغفلة عن إحاطة علم الله، وأن ذلك سبب الخسران المبين.

٢٠ ـ أن ذلك هو الحامل لهم على عدم الحذر من شهادة جوارحهم عليهم.

٢١ ـ أن صبر الكفار عن عذاب النار لا يخلصهم منها، ولا يخفف عنهم عذابها.

٢٢ ـ أن اعتذار الكفار وهم في النار لا يُقبل.

٢٣ ـ أن الكفار لو اعتذروا لم يُقبل عذرهم.

٢٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧].

لمَّا ذكر اللهُ عذابَ الكافرين في الآخرة بيَّن سبب كفرهم؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بأن الله يسلِّط على الكافرين وبعض العصاة شياطين، تُزيِّنُ لهم كفرهم ومعاصيهم السابقة واللاحقة، وحقَّت عليهم كلمةُ الكفر أنهم لا يؤمنون، فكانوا بذلك من جملة الأمم الخالية التي حقَّ القولُ عليهم بالشِّقوة من الثقلين، وكانوا جميعًا خاسرين، ثم أخبر تعالى عن قول بعض الكفار الصادِّين عن القرآن ودعوة الرسول ﷺ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، ثم أقسم تعالى أنه سيعذبهم عذابًا شديدًا، ويجزيهم أسوأ جزاء على أسوإ أعمالهم، ثم فسَّر ذلك الجزاء بأنه النار التي أَعَدَّها لأعدائه، وأنهم مُخلَّدون فيها، وذلك جزاء جحدهم بآيات الله، ثم أخبر عن الكفار الأتباع وهم في النار يُعذَّبون، يدعون ربهم أن يريهم من أضلَّهم من الرؤساء والكبراء؛ ليجعلوهم تحتهم في النار، حتى يكونوا من الأسفلين في دَرَكات النار.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾؛ أي: وهيَّأنا لهؤلاء الكافرين الجاحدين في الدنيا ﴿قُرَنَاءَ﴾؛ أي: أصحاب سوء ملازمين لهم من شياطين الجن والإنس ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من المعاصي الحاضرة والمستقبلة؛ لأن الخلْف والوراء قد يطلق ويراد به الأمام، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]؛ أي: أمامهم.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: وزيَّنوا لهم الدنيا بفعل المعاصي، وزيَّنوا لهم الآخرة بأنهم لا يعذَّبون فيها، وأن مصيرهم الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: الجنة، فكذَّبهم الله بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، وكما قال سبحانه في هذه السورة عن المكذب: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج: ٣٨].

قوله سبحانه: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾؛ أي: وثبت عليهم القولُ ووجب، وهو قول الله تعالى، وهو أنهم يُعذَّبون في النار، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿فِي أُمَمٍ﴾؛ أي: وجب عليهم القولُ في جملة أمم كانوا على شاكلتهم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: مضت وهلكت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ﴾؛ أي: جميعًا أولهم وآخرهم ﴿كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أتم الخسران يوم القيامة، حيث استحقوا النار.

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ أي: لا تُصغوا إليه إذا تلاه عليكم محمد، والإشارة بـ﴿هَٰذَا﴾ للتحقير ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ اللغو هو: الكلام الذي لا فائدة فيه؛ أي: ارفعوا أصواتكم بالهذيان والصِّياح والصَّفير، لتخلطوا عليه، فلا يتمكن هو من القراءة، ولا يتمكن أحد من سماعه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾؛ أي: رجاءَ أن تغلبوا محمدًا فلا يتبعه أحد، يفعلون ذلك لأنهم يعلمون أن للقرآن هيبة وتأثيرًا في القلوب؛ فهو في أعلى طبقات الإعجاز، حلاوةَ ألفاظ، وبلاغةَ عبارات، وسموَّ معان، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

ثم يُقسِم اللهُ تعالى على عذاب الكفار، فيقول سبحانه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾؛ أي: فوالله لنذيقنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من هؤلاء المستهزئين وغيرهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ أي: قويًّا لا نظير له، فلا يخفف ولا ينقطع، و﴿شديد﴾ صفة مشبَّهة تُفيد المبالغة، وتنكير ﴿عذاب﴾ لعظمه، وأنه لا يُحاط بوصفه، فهو عذاب مُتَنَاهٍ في الشدة، لا يعلم مقدارَه إلا الله ﷻ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: جزاءَ سيئاتهم؛ فيشمل الكفرَ وما دونه، فهم عملوا أعمالًا كثيرة، والله يجازيهم على كفرهم ومعاصيهم، كما قال تعالى في المؤمنين: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾؛ أي: سيئاتهم ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥]؛ أي: حسناتهم، وعلى هذا فأفعل التفضيل في المواضع الثلاثة ليس على بابه.

قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطف بيان للخبر، هذا أحسن إعراب للآية ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذُكِر من العذاب الشديد والجزاء على أسوأ الأعمال ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ وهو أسوأ مصير ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾؛ أي: لهم في النار دار الإقامة الدائمة،

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، ﴿جَزَاءً﴾؛ أي: جازيناهم جزاءً شديدًا ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: بسبب جحدهم بآياتنا، وهي القرآن؛ أي: ينكرونها عنادًا.

ثم بيَّن تعالى ما يقوله الكفار في النار؛ فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا﴾؛ أي: يا ربنا ﴿أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾؛ أي: الفريقين اللذين أضلانا من شياطين الجن والإنس ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾؛ أي: في النار ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾؛ أي: في دَرَكاتها السُّفلى منها، يقولون ذلك من شدة غضبهم عليهم؛ لأنهم كانوا السبب في دخولهم النار.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله عظيم؛ لأنه ذكر نفسه بصيغة الجمع الدالة على التعظيم ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ وقوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾.

٢ ـ أن من عقوبات الكفر والتمادي في العصيان: تسليطَ الشياطين على الإنسان، وذلك أسوأ العقوبات.

٣ ـ أن قرناء السوء يُزيِّنون للكافر والعاصي كفرَه أو معصيَته في الماضي والمستقبل.

٤ ـ وجوب الحذر من قرناء السوء.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، وقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

٦ ـ أن من زُيِّن لهم الكفر فقد حقَّ عليهم القول بالشقاء المؤبَّد؛ فلا ترجى لهم هداية.

٧ ـ الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾.

٨ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾.

٩ ـ أن هؤلاء الذين سُلِّطت عليهم الشياطين قد حقَّ عليهم القول.

١٠ ـ أن الذين حقَّ عليهم القول أممٌ كثيرةٌ من الجن والإنس.

١١ ـ الحكم على جميعهم بالخسران.

١٢ ـ أن الجن مكلَّفون ومجزيُّون بأعمالهم.

١٣ ـ أن الكفار صنفان: أتباع ومتبوعون، وهم الكبراء والرؤساء.

١٤ ـ أن المتبوعين يصدُّون الأتباعَ عن قبول الحق واتباع الهدى، ويدعونهم إلى ترك الإصغاء إلى القرآن، وإلى اللغو فيه مغالبةً للمؤمنين.

١٥ ـ خوف رؤساء المشركين من تأثير القرآن على أتباعهم.

١٦ ـ قوة تأثير القرآن على المستمعين له، ولذا يَحذره أئمة الكفر ويُحذِّرون منه.

١٧ ـ بيان قصد الكفار في الصدِّ عن القرآن، وهو أن يغلبوا الحقَّ وأهلَه، ولكنهم مغلوبون.

١٨ ـ تحريم اللغط والضوضاء عند قراءة القرآن، سواء أكانت التلاوة من تالٍ أم من مسجِّل.

١٩ ـ تهديد الكافرين بالعذاب والجزاء على أسوأ أعمالهم.

٢٠ ـ إثبات النار.

٢١ ـ أن النار جزاءُ أعداء الله.

٢٢ ـ شدة عذاب الله للكافرين.

٢٣ ـ خلود الكافرين في النار.

٢٤ ـ أن من أعظم أسباب الكفر: الجحد بآيات الله.

٢٥ ـ إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

٢٦ ـ أن التكذيب بالآيات موجبٌ لدخول النار والخلود فيها؛ فإن وقع من مسلم كان مرتدًّا.

٢٧ ـ أن الله لا يعذب أحدًا إلا بذنب.

٢٨ ـ أن الله يجمع الكفار الأتباع والمتبوعين في نار جهنم.

٢٩ ـ تَبَرُّؤ الأتباع من المتبوعين يوم القيامة.

٣٠ ـ أن الأتباع من الكفار يَتَمَنَّون أن يروا من أَضَلَّهم من المتبوعين تحت أقدامهم في دركات جهنم.

٣١ ـ أن النار دركات، كما أن الجنة درجات.

٣٢ ـ شدة حنَق الكفار على من أضلَّهم؛ لأنهم السبب في شقائهم الأبدي.

٣٣ ـ أن الإضلال يكون من الجن والإنس من القُرناء وغيرهم.

ولمَّا ذكر تعالى الكافرين وقرناءَهم وبيَّن سوءَ عاقبتهم، ذكر المؤمنين وأولياءهم من الملائكة وبيَّن حُسْنَ مآلهم في الدارين؛ **فقال سبحانه:**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآياتُ البشارَة من الله لأوليائه بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والإخبارَ بتنزُّل الملائكة عليهم يبشِّرونهم بولايتهم لهم في الدنيا والآخرة، وبما أعدَّ الله لهم في الجنة من أصناف النعيم، وأن ذلك نزلهم من ربهم الغفور الرحيم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: قالوا عن اعتقاد جازم: ربُّنا الله؛ أي: خالقنا ومالكنا ومُربِّينا بنعمه وإلٰهنا: الله لا إله غيره، وهذا هو التوحيد وأصل الإيمان، فهم مُقِرُّون بربوبية الله معترفون بوحدانيته ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾؛ أي: استقاموا على الإيمان، فهم ثابتون على الإيمان، مستقيمون عليه وعلى العمل بموجَبه، فعلًا لما أمر الله به ورسوله ﷺ، وتركًا لما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، فجمعوا بين العلم والعمل، وبين التوحيد والطاعة، ولم ينحرفوا عن صراط الله.

ومجيء ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تَراخي العمل عن الإيمان رُتبة وزمانًا،

فالإيمان أعلى منزلة، وهو يسبق العمل ولا بد ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت، والفعل ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ متضمِّن لمعنى الوحي الذي هو في معنى القول، ولذا وردت بعده ﴿أن﴾ المفسِّرة، فقال سبحانه: ﴿أَلَّا﴾ أصلها: أن لا ﴿تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾؛ أي: تقول الملائكة لهم: لا تخافوا ولا تحزنوا؛ أي: لا تخافوا من الموت وما بعده من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على الدنيا ومتاعها، فما ستلقونه خير وأعظم مما فاتكم، وتقول لهم الملائكة أيضًا: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ أي: وأبشروا بجنة الخلد التي وُعِدتُم بها في كتاب الله وعلى لسان رسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

قوله سبحانه: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ أي: وتقول لهم الملائكة: نحن أنصاركم وأعوانكم في الحياة الدنيا بالتأييد والحفظ، وفي الآخرة بالشفاعة والتكريم، كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

قوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾؛ أي: ولكم في الجنة كلُّ ما تشتهي أنفسكم من أنواع المَلاذ والطيبات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾؛ أي: ولكم فيها ما تَتَمنَّون وتطلبون ﴿نُزُلًا﴾؛ أي: رزقًا وضيافة مهيَّئًا، و﴿نُزُلًا﴾ منصوب على الحال من ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾؛ أي: حال كونه كالنُّزُل المهيَّأ للضيف ﴿مِّنْ غَفُورٍ﴾، ﴿مِّنْ﴾ ابتدائية؛ أي: رزقًا وضيافةً من ربٍّ واسع المغفرة، يغفر الذنب ويتجاوز عنه

﴿رَحِيمٍ﴾ عظيمِ الرحمة، وذكر المغفرة والرحمة؛ لأنهم بمغفرته نجوا من العذاب، وبرحمته دخلوا الجنة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من سُنَّة القرآن: الجمع بين الوعد والوعيد، وتقديم الوعيد في الغالب.

٢ ـ أن السعادة تكون بالإيمان بالله، والاستقامة على دينه.

٣ ـ أن الإيمان الذي في القلب لا يكفي في النجاة حتى يكون معه عمل؛ لقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾، **ففيها:**

١ ـ الرد على المرجئة الذين يقصُرون النجاة على إيمان القلب.

٢ ـ الترغيب في الاستقامة.

٤ ـ تنزُّل الملائكة على الصالحين من عباد الله، يُسَلُّونَهم ويُبشِّرونهم بنفي المرهوب، وحصول المحبوب، ومن ذلك: تنزُّلهم عليهم عند الموت.

٥ ـ فيها شاهد لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ الآية [النحل: ٣٢].

٦ ـ إثبات الملائكة، وأنهم في السماء.

٧ ـ إثبات الولاية بين الملائكة والمؤمنين.

٨ ـ أن الله سخَّر الملائكة لبني آدم، ووكَّلهم بهم في كثير من شؤونهم.

٩ ـ أن من السعادة: السلامة من الخوف والحزن.

١٠ ـ أن في الجنة كل ما تشتهيه الأنفس، وكل ما يطلبه أهلها من أصناف النعيم.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

١٢ ـ أن الجنة نُزُلُ الله لأوليائه حين يقدَمون عليه يوم القيامة.

١٣ ـ أنهم إنما وصلوا إلى هذه السعادة بمغفرة الله ورحمته.

١٤ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ﴿الغفور﴾ و﴿الرحيم﴾، وما دلَّا عليه من صِفَتي المغفرة والرحمة لله تعالى.

ولمَّا أثنى اللهُ على الذين استقاموا من عباده المؤمنين، وذكر ما أعدَّ لهم من الجزاء، نوَّه ببعض أصنافهم وصفاتهم، ثم أرشدهم إلى ما يدفعون به عدوهم الظاهر والباطن، **فقال سبحانه:**

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبار بأنه لا أحد أحسنُ قولًا من الداعي إلى الله الذي يعمل الصالحات، ويعتز بالإسلام، ثم أخبر تعالى بأنه لا تستوي الحسنة ولا السيئة؛ لأنهما ضِدَّان، ثم أمر تعالى من أُسيءَ إليه أن يدفع السيئة بالتي هي أحسن؛ فإن ذلك يُزيل العداوة والكراهة، ويُحِل محلَّها الصداقة والمحبة، ويُنَوِّه تعالى بهذه المعاملة بأنها عنوان الصبر، وأنها من الحظ العظيم، ثم أمر تعالى بما تُدْفَع به نَزَغات الشيطان، وهو الاستعاذة بالله السميع العليم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾؛ أي: لا أحدَ أحسنُ ﴿قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ﴾ الناس ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إلى توحيده وطاعته، فهذا لا أحدَ أحسنُ منه قولًا؛ بل هو أحسن قولًا من كل أحد، ونُقل عن بعض السلف أنها في المؤذنين، وهذا من تفسير الآية بجزء معناها، فإنها عامة في كل من

دعا إلى الله، والمؤذن داع ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ أي: وعمل مع ذلك عملًا صالحًا، ولا يكون العمل صالحًا إلا بالإخلاص والمتابعة ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ أي: قال ذلك مُعتزًّا بدينه قولًا يواطئ فيه القلب اللسان، والله ﷻ لا يقبل طاعة بغير دين الإسلام؛ فالآية ثناءٌ على من جمع هذه الخصال الثلاث: الدعوة، والعمل الصالح، والاستسلام لله.

قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾؛ أي: ولا يستوي فعل الحسنة وفعل السيئة في الحقيقة والجزاء والعاقبة، و﴿لا﴾ زائدة لتأكيد نفي الاستواء، ومثالهما: الإيمان والشرك، والطاعة والمعصية، والحلم والغضب، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: ادفع الإساءة بالتي هي أحسن من غيرها؛ أي: ادفعها بالصبر والحلم والصَّفح عمَّن ظلمك ﴿فَإِذَا﴾ الفاء للتفريع، و﴿إذا﴾ هي الفُجائية التي تدل على سرعة حصول ما بعدها مرتَّبًا على ما قبلها؛ أي: إذا صنعت ذلك تكون العاقبة أنَّ الرجلَ ﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾؛ أي: عداوة من الجانبين ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ﴾؛ أي: صديق لك ﴿حَمِيمٌ﴾؛ أي: مخلص، فتنقلب العداوة بينكما إلى محبة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾؛ أي: وما يُعطَى هذه السَّجيَّة العظيمة ويُوفَّق لها، وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾؛ أي: تَخَلَّقوا بخلق الصبر، فصبروا على أمر الله ونهيه، وصبروا على أذى الناس وعلى كظم الغيظ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾؛ أي: وما يُعطاها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ أي: صاحب نصيب عظيم من خصال الخير وكمال النفس المُوصِل للسعادة الدائمة، وكرر ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ لزيادة الترغيب، ولتعدُّدِ الوصف المقتضي للهداية لهذا الخُلق الكريم، وهو دَفْع السيئة بالتي هي أحسن؛ أي: وما يلقاها إلا الذين صبروا وأصحاب الحظ العظيم.

ولمَّا ذكر تعالى دفع العدو الظاهر من الناس ذكر دفع العدو الباطن من الجن، فقال سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ ﴿إِمَّا﴾ أصلها ﴿إن﴾ الشرطية و﴿ما﴾ المزيدة لتأكيد معنى الشرط، أُدغِمَت النون في الميم فصارت ﴿إِمَّا﴾، والنزغ هو: وسوسة الشيطان، المعنى: وإنْ يوسوس لك الشيطان ليصرفك عن الخير ويأمرك بالشر ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: فاعتصم بالله من شره ووسوسته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾؛ أي: الله وحده ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: المحيطُ سمعُه وعلمُه بكل شيء، فهو تعالى يسمع استعاذة عبده، ويعلم بوسوسة الشيطان فيدفعه عنه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تفاضل الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ فضل العلماء؛ لأنهم الدعاة إلى الله، والمُبلِّغون لشرعه، والمعلمون الناس أحكام دينهم.

٣ ـ أن الكلام في الدعوة إلى الله أحسن قول.

٤ ـ التنبيه على الإخلاص في الدعوة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ فضل الجمع بين الدعوة والعمل الصالح.

٦ ـ أن العمل المحمود هو العمل الصالح.

٧ ـ أنه ينبغي للمسلم أن يعلن إسلامه اعتزازًا به، ومراغمة للكافرين.

٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

٩ ـ أن الحسنة والسيئة ضِدان لا يجتمعان، ومن ذلك: الكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة.

١٠ ـ الإرشاد إلى ما تُدفَع به إساءة الصاحب.

١١ ـ الدفع بالكلمة الحسنى.

١٢ ـ الإرشاد إلى الأفضل في معاملة العدو؛ لقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

١٣ ـ أن الله مصرِّفُ القلوب حبًّا وبغضًا.

١٤ ـ فضيلة الصبر، والحثُّ عليه.

١٥ ـ أن الدفع بالحسنى شاقٌّ على النفس؛ فلا يقوى عليه إلا مَن صبر.

١٦ ـ أن من ثمرات الصبر: احتمال الأذى.

١٧ ـ أن احتمال الأذى والدفع بالحسنى حظٌّ عظيمٌ من الأخلاق، وذلك بتوفيق الله.

١٨ ـ أن الدفع بالتي هي أحسن يُثمِر الأُلفة بين المؤمنين، وإزالة العداوة والشحناء.

١٩ ـ أن من مقاصد الشريعة: توثيق الأخوة بين المؤمنين، وقطع أسباب الفرقة.

٢٠ ـ أن الاستعاذة بالله تَعْصِم من نزغات الشيطان.

٢١ ـ الإرشاد إلى الاستعاذة بالله عند نَزَغات الشيطان.

٢٢ ـ أن الله وحده هو ملجأ العبد في جميع أموره.

٢٣ ـ أن من رحمة الله بالعبد: أن أرشده إلى ما يدفع به عدوَّه من الإنس والجن.

٢٤ ـ إثبات الشيطان المبتلى به الإنسان.

٢٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، وما دلَّا عليه من صِفَتي السمع والعلم لله تعالى.

لمَّا ذكر اللهُ أن أحسن الأقوال هو الدعوة إلى الله أتبعه بذكر بعض الدلائل الدالة على ربوبيته تعالى وقدرته وحكمته؛ تنبيهًا على أن الدعوة إلى الله إنما تقوم ـ أولًا ـ على بيان أدلة التوحيد، **فقال سبحانه:**

۞ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآياتُ إرشادَ الله عباده إلى التفكر في بعض آياته الكونية من الليل والنهار، والشمس والقمر، والاستدلال بها على ربوبيته وإلٰهيته، ويأمرهم تعالى بالسجود له لا للشمس والقمر؛ فإنه تعالى خالقهما، وخالقهما أحق بالعبادة منهما، ثم يحقِّر تعالى المستكبرين عن عبادته ببيان أن له من يعبده ولا يفتر عن عبادته وتسبيحه ممن هم خير منهم، وهم الملائكة المقربون الذين يسبحون الليل والنهار لا يسأمون، ثم يذكر تعالى نوعًا آخر من الآيات، وهو إحياء الأرض بعد موتها بإنزال الماء عليها.

وينبه تعالى على ما في ذلك من الدلالة على قدرته على إحياء الموتى، وأنه على كل شيء قدير، ثم ينبه تعالى على التَّبَايُن في المصير

بين الملحدين والموحدين، فشتَّان بين من يُلقى في النار يوم القيامة ومن يأتي آمنًا، ثم تُختَم الآيات بتهديد المعرضين عن آيات الله، وأنه تعالى بصير بأعمالهم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾؛ أي: ومن آياته تعالى الكونية الدالة على ربوبيته تعالى، وكمال قدرته وحكمته ورحمته ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ في اختلافهما وتعاقبهما لا يَفتُران ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ في تسخيرهما بنظام ثابت إقامة لمصالح البشر، فالشمس آية النهار، ومنها الضياء؛ فينتشر الناس لطلب المعاش والأرزاق، والقمر آية الليل، ومنه النور، وبهما يُعرَف حساب الزمان، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، فمَن خلق هذه المخلوقات العظيمة هو المستحق للعبادة التي من أَخَصِّها السجود، ولهذا قال سبحانه: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾؛ لأنها مخلوقات مسخَّرة ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ وحده ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ وأبدعهن على غير مثال سابق، ولم يقل: الذي خلقها؛ لأن ما لا يعقل يُعامل معاملة جمع الإناث ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: إن كنتم تعبدون الله حقًّا فلا تسجدوا لأحد سواه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ أي: فإن تكبَّر الكافرون ولم يمتثلوا الأمر بعبادته تعالى فهو تعالى غنيٌّ عنهم، وعنده في السماوات من يعبده ويسبح له ولا يفتر عن ذلك، وهم الملائكة، ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾؛ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق به تعالى، والفعل ﴿سبَّح﴾ يتعدى بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: ٢٦]، لكنه ضُمِّن معنى التقديس فعُدِّي باللام، ويدل

لذلك قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: يعبدونه دائمًا ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾؛ أي: لا يَمَلُّون عبادته.

ولما ذكر بعض الأدلة السماوية ذكر بعض الأدلة الأرضية، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾؛ أي: ومن آياته الكونية الدالة على وحدانيته تعالى وقدرته ﴿أَنَّكَ﴾ أيها الناظر ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾؛ أي: يابسة جرداء لا نبت فيها ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾؛ أي: ازدانت بالخضرة وابتهجت بما اكتَسَتْه من أنواع النبات وألوان الزهور، حتى صارت كالمختال في مشيته الطَّرِب من سروره، ففي الكلام استعارة ﴿وَرَبَتْ﴾؛ أي: ارتفعت قِشرتُها وتشققت عن أنواع الزروع والأشجار، وفي قوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾ التفات من الغيبة في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ إلى التكلم متضمِّن الامتنان من الله على عباده بإنزال الغيث ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾؛ أي: جعلها تُنبت بعد أن كانت ميتة، وهو الله ﷻ ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ للبعث في الآخرة ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا كالدليل لما قبله؛ أي: قدير على كل شيء؛ فلا يخرج عن قدرته شيء، ولا يفوته شيء ﷻ، فهذا عموم لا مخصِّص له، فهو تعالى يحيي ويميت، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويهدي ويضل، وما شاءه تعالى كان بلا مُدافِع ولا مُمانِع، وما لم يشأ لم يكن.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ هذا شُروع في تهديد المكذبين بآيات الله بعد ظهورها بيِّنة أمام نواظرهم، والإلحاد في آيات الله هو: الميل بها عن الحق، بتكذيبها، أو جحدها، أو تحريفها، أو بنسبتها إلى غير الله، وآيات الله كونية وهي المخلوقات كالسماوات والأرض، وشرعية، وهي الكتب المنزلة، ومنها: القرآن ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾؛ أي: لا يغيبون عنَّا في وقت من الأوقات، وسنعاقبهم بإلحادهم بإلقائهم في النار.

ثم أكّد هذا التهديد الشديد بالاستفهام الإنكاري، فقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: أفمَن يُطرَح في النار خائفًا فزِعًا أفضلُ أم الذي يأتي يوم القيامة مطمئنًا آمنًا من العذاب؟! إنهما لا يستويان، فما بينهما كما بين السماء والأرض، وكما بين الليل والنهار ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ خطاب تهديد للكفار، وليس أمر إباحة؛ لأنهم يعملون الكفر، والله لا يأمر به ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: الله ﷻ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: عالم بجميع أحوالكم، ومطّلع على جميع أعمالكم، فلا يخفَى عليه منها شيء، وسيُجازيكم عليها، وهو تهديد بعد تهديد.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ كثرة آيات الله الكونية؛ لقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾.

٢ ـ أن الآيات الكونية المحسوسة تدل على المعاني المعقولة.

٣ ـ أن الليل والنهار والشمس والقمر من آيات الله العظيمة.

٤ ـ إرشاد الله عباده إلى التفكر في هذه الآيات.

٥ ـ أن هذه الآيات مخلوقة، وأن الله خالقها.

٦ ـ أن الخالق هو المستحق للعبادة، لا المخلوق.

٧ ـ النهي عن السجود للشمس والقمر.

٨ ـ وجوب السجود لله الخالق.

٩ ـ أن من يعبد الله لا يليق أن يسجد لغيره تعالى.

١٠ ـ أن من أساليب القرآن أنه يقرن بين الحكم والدليل؛ لقوله: ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾.

١١ ـ أن الله لم يأمر الناس بعبادته لعدم من يعبده.

١٢ ـ تحقير المستكبرين عن عبادته وتوحيده بأن له عبادًا كثيرين يعبدونه، ولا يفترون عن عبادته.

١٣ ـ أن المستكبر عن عبادة الله لا يُنقِص اللهَ شيئًا من حقه على عباده.

١٤ ـ أن الملائكة لا يَمَلُّون عبادَة الله وتسبيحَه، مع عبادتهم كلَّ الزمان.

١٥ ـ فضيلة الملائكة، **وذلك من وجوه:**

١ ـ أنهم أقرب إلى الله مكانًا.

٢ ـ أنهم لا يستكبرون عن عبادته تعالى.

٣ ـ أنهم دائمو التسبيح والعبادة.

٤ ـ أنهم لا يَسأمون عبادة الله مع طول الزمان في العبادة، وهذا يدل على قوتهم.

١٦ ـ أن الملائكة عقلاء، ولهم إرادة واختيار.

١٧ ـ إثبات عِندية المكان؛ لقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾.

١٨ ـ إثبات العلو لله تعالى؛ لقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾.

١٩ ـ بيان قدرة الله في إحياء الأرض الميتة.

٢٠ ـ إثبات قدرة الله على إحياء الموتى.

٢١ ـ أن القدرة على الشيء تستلزم القدرة على نظيره.

٢٢ ـ إثبات القياس؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾.

٢٣ ـ ذكر الدليل العقلي على إمكان البعث.

٢٤ ـ عموم قدرة الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢٥ ـ أن العام يشمل جميع أفراده؛ ومن ذلك: إحياء الأرض بعد موتها.

٢٦ ـ أن مصير الملحدين في آيات الله النار.

٢٧ ـ أن الإلحاد في آيات الله من أعظم أسباب دخول النار.

٢٨ ـ تهديد الملحدين في آيات الله بأن إلحادهم لا يخفى على الله.

٢٩ ـ التباين بين الملحدين والموحدين.

٣٠ ـ أن آيات الله كونية وشرعية.

٣١ ـ التهكم بالخصم بسؤاله عن أمر بَدَهي؛ لقوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ﴾.

٣٢ ـ أن أهل النار يُطرَحون فيها طرحًا.

٣٣ ـ استعمال أفعل التفضيل ﴿خَيْرٌ﴾ فيما لا خير فيه؛ لقوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ﴾.

٣٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

٣٥ ـ إثبات يوم القيامة.

٣٦ ـ أن يوم القيامة فيه مخاوف عظيمة؛ فأكثر الناس فيه خائفون.

٣٧ ـ أن من الناس من يكون آمنًا في ذلك اليوم، وهم الذين آمنوا ووحَّدوا ولم يلحدوا.

٣٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

٣٩ ـ أن صيغة الأمر تأتي للتهديد؛ لقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾.

٤٠ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾.

٤١ ـ إثبات المشيئة للعبد.

٤٢ ـ علم الله بأعمال العباد.

٤٣ ـ أن البصير في أسماء الله يأتي بمعنى العليم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ التعريضَ بعقاب الكافرين بالقرآن، والتنويهَ بشرف القرآن، وتسليةَ الرسول ﷺ، والإشارةَ إلى عناد المشركين، والتذكيرَ بتَبَايُن أحوال الناس في الانتفاع بهُدَى القرآن.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾؛ أي: القرآن، وسمَّاه الله ذِكرًا؛ لاشتماله على المواعظ العظيمة من الوعد والوعيد، ولأنه مذكِّر بما أعدَّ الله للطائعين من الثواب، والعاصين من العقاب، ولأنه شرف لأهله؛ فإن من معاني الذكر: الشرف، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] على أحد التفسيرين في الآية، ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾؛ أي: حين جاءهم هذا الذكر من الله ﷻ، وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف تقديره: ليعذَّبُن في جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ٥٦].

وقدَّره بعض المفسرين: لا يخفون علينا؛ بدلالة ما قبله، وهذا الحذف من بلاغة القرآن؛ حيث تَتشوَّف النفس إلى معرفة المحذوف،

وذلك من تدبر القرآن المأمور به ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾؛ أي: قويٌّ غالبٌ، فلا يستطيع أحد أن ينال منه، أو يجد فيه مَطعنًا.

قوله سبحانه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾؛ أي: لا يصل الباطل إلى القرآن من أيِّ جهة من جهاته، فهو محفوظ بحفظ الله له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ أي: القرآن منزَّلٌ وموحًى ﴿مِّنْ حَكِيمٍ﴾؛ أي: من ذي حكمة منزَّه عن العبث، وهو الله ﷻ ﴿حَمِيدٍ﴾؛ أي: مستحق لجميع المحامد في ذاته وصفاته وأفعاله.

ولمَّا بيَّن اللهُ شرف القرآن وعلوَّ درجته خاطب رسوله ﷺ مسلِّيًا له عمَّا يصيبه من أذى المشركين، فقال سبحانه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: ما يقال لك من الشتم والتكذيب إلا مثل ما قيل للرسل السابقين، فاصبر كما صبروا؛ فإن الكفار قلوبهم متشابهة، فلا عجب أن تتشابه أقوالهم، كما قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾؛ أي: واسع المغفرة للتائبين، فهو تعالى يستر الذنب ويتجاوز عنه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: وذو عقاب شديد للكافرين، وكرر ﴿وَذُو﴾ لتأكيد ثبوت المغفرة والعقاب في أفعاله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ هذا عَودٌ إلى الثناء على القرآن بإنزاله بلسانٍ عربيٍّ، وهو ما ابتُدئت به السورة، وما سبق في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ الآية، وفيه الإشارة إلى أن كفر المشركين إنما كان عن عناد، لا لقصور في معاني

القرآن، أو أنهم لم يفهموه. المعنى: ولو جعلنا هذا القرآن ـ كما اقترح بعض المتعنتين ـ أعجميًا؛ أي: بلغة العَجَم، نسبة إلى أعجم، وهو الذي لا يُفصح باللغة العربية، لقالوا: منكرين معترضين: هلَّا بُيِّنت آياته بلسان نفقهه ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ﴾ الهمزة الأولى للاستفهام ﴿وَعَرَبِيٌّ﴾؛ أي: ولقالوا: أقرآنٌ أعجميٌّ ورسول عربيٌّ؟! فهذا استفهام إنكاري تعجُّبي، والقوم ـ على كل حال ـ مكذبون معاندون، لا يَنفكُّون عن المراء، ولا يريدون سلوك طريق الحق، ولن يهتدوا بالقرآن، ولهذا قال الله لنبيِّه:

﴿قُلْ هُوَ﴾؛ أي: القرآن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون غيرهم ﴿هُدًى﴾؛ أي: هداية تامة لمن تمسك به ﴿وَشِفَآءٌ﴾؛ أي: وهو شفاء للنفوس من الشك والريب، وللأبدان من جميع الأدواء الحسية والمعنوية، و﴿هُدًى﴾ و﴿وَشِفَآءٌ﴾ مَصدران بمعنى اسم الفاعل للمبالغة في الوصف ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: والذين لا يؤمنون بالله ولا بالقرآن ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾؛ أي: ثِقَل، والمراد صمم؛ أي: فهم معرضون عنه ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: القرآن ﴿عَلَيْهِمْ عَمًى﴾؛ أي: ليس هاديًا لهم؛ بل هو سبب ضلالهم؛ لسوء تصرُّفهم؛ فإنهم يأخذون منه ما يريدون به الفتنة، وقوله: ﴿عَمًى﴾ في مقابل ﴿هُدًى﴾ فكما أن القرآن هادٍ للمؤمنين فإنه عمًى على الكافرين يزيدهم ضلالًا وخسارًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الكفار البُعداء ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ هذا على التشبيه؛ أي: فصاروا لضلالهم كالرجل الذي يناديه آخرُ من مكان بعيد، فهو لا يسمعه، ولو سمعه ما فهم قوله.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أسماء القرآن الذكر.

٢ ـ تهديد الكافرين به بالعذاب.

٣ ـ أن من أسماء القرآن الكتاب.

٤ ـ وصف القرآن بصفات كلها تدل على الشرف، **وهي**:

١ ـ أنه عزيز؛ أي: مَنيع لا يصل إليه سوء.

٢ ـ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٣ ـ تنزيل من حكيم حميد.

٥ ـ أن العزة الحقيقية سببها التمسُّك بالكتاب العزيز.

٦ ـ أن القرآن محفوظ؛ فلا يتطرق إليه شيء من الباطل من تحريف أو تبديل.

٧ ـ إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله تعالى وهما: (الحكيم) و(الحميد)، وما دلَّا عليه من صِفَتي الحكمة والحمد لله تعالى.

٩ ـ تسلية الرسول ﷺ بالأسوة بمن قبله من الرسل.

١٠ ـ تَشابُه قلوب أعداء الرسل وأقولهم.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨].

١٢ ـ إثبات صفة المغفرة لله تعالى، وأنه شديد العقاب.

١٣ ـ الترغيب في التوبة لذكر المغفرة.

١٤ ـ أن من منهج القرآن: أنه يقرن بين الترغيب والترهيب.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

١٦ ـ التنبيه على عناد المشركين وإصرارهم على التكذيب، ولذلك لو كان القرآن بلسان أعجمي لقالوا: هلَّا كان بلسان عربي، وكيف يجيء بلسان غيرنا؟!

١٧ ـ الحكمة في جعل القرآن بلسان عربي، وهي أنَّه منزل بلسان من أرسله الله من العرب، وهو محمد ﷺ.

١٨ ـ علم الله بما لا يكون، لو كان كيف يكون.

١٩ ـ أن القرآن هدًى وشفاءٌ للمؤمنين، وعمًى على الكافرين بسبب كفرهم وإعراضهم.

٢٠ ـ أن الإيمان سبب للاهتداء بالقرآن، فكلما كان الإيمان بالقرآن أتمَّ كان الاهتداء والشفاء به أعظم.

٢١ ـ التنبيه على شدة إعراض الكافرين عن الداعي إلى الحق.

٢٢ ـ اشتمال القرآن على أنواع البيان من التشبيه والاستعارة والكناية.



ولمَّا وصف الله الكفار بالعناد وشدة التكذيب؛ كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥]، سلَّى رسوله ﷺ مبيِّنًا أنه ليس متفردًا في هذا من بين الرسل، فقد وقع لموسى مع قومه قريب مما وقع له ﷺ؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ من الله أنه آتى موسى الكتاب، وهو التوراة، وأنه اختلف فيه بنو إسرائيل، وأن منهم من كان في شكٍّ مريب مما جاءهم به موسى، وأخبر تعالى أنه لولا ما سبق من كلمة الله بالإملاء لهم إلى أجل لحَكَم اللهُ بينهم فيما اختلفوا فيه بالانتقام من الباغين؛ نصرة للطائفة المظلومة، ثم أخبر تعالى أن كلًّا يُجزى بعمله، صالحًا كان أو سيئًا، وأنه تعالى لا يظلم أحدًا بنقص من حسناته، أو زيادة في سيئاته، أو تعذيبه بغير ذنب، أو بذنب غيره، أو حرمانه ثواب عمله الصالح، ثم أخبر تعالى عن تفرُّده بعلم وقت الساعة، وشمول علمه لما تتشقق عنه أكمام الأشجار، وما تحمل به الإناث وما تضع، ثم أخبر عن مشهد من مشاهد القيامة يقام فيه المشركون ويوبخهم الله بقوله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾؟! أي: الذين كنتم تزعمون؛ فيعلنون كفرهم بشركائهم، قائلين: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾،

وأخبر تعالى أن آلهتهم لم تَنْفعْهم بشيء، ولم تُنقذهم مما حلَّ بهم، وأن المشركين قد ظنُّوا ـ أي: علموا ـ أنهم لا محيص لهم من عذاب الله.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أرسلناه وأعطيناه الكتاب؛ أي: التوراة، وهي أصل كتب بني إسرائيل، وأفضل الكتب السماوية بعد القرآن، وموسى أفضل رسل بني إسرائيل، وهو من أولي العزم من الرسل ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾؛ أي: اختلف بنو إسرائيل في الكتاب بين مؤمن وكافر، كما اختلفت قريش في القرآن، وأوذي موسى فصبر، فكن مثله أيها الرسول ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي قضاؤه سبحانه بتأخير العذاب عن الكافرين بموسى إلى أجل مسمًّى، وهو يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]، ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لحُكم بينهم باستئصال الكافرين ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: كفار بني إسرائيل ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾؛ أي: من عذاب يوم القيامة ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: شكٌّ شديد الرِّيبة مُوقِعٍ لهم في القلق والاضطراب، فلا يستطيعون الخلاص منه.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ﴾ عملًا ﴿صَٰلِحًا﴾ من ذكر أو أنثى، ولا يكون العمل صالحًا إلا بالإخلاص والمتابعة ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: ثواب عمله لنفسه ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: عذابه عليها ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: ليس بذي ظلم لهم وإن كان قليلًا، فلا يعاقب أحدًا بذنب غيره، وهذا تأكيد لقصر جزاء الأعمال على عامليها ثوابًا وعقابًا، فهو سبحانه أعدل العادلين، وهذا من مكمِّلات التسلية.

ولـمَّا ذكر اللهُ الأجلَ المسمَّى، والجزاء على الأعمال حسنها وسيئها كان هذا مُقتضيًا لسؤال عن موعد ذلك، قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ﴾؛

أي: إلى الله وحده ﴿يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: يُرجع علمُ وقت الساعة، والمراد: القيامة، وسُمِّيت القيامةُ ساعة؛ لأنها تَفجأ الناس بغتة، أو لأنها تقع في ساعة من الزمان، وأقلُّ ما يصْدُق عليه اسم الساعة: اللحظةُ ونحوها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، فعِلْم الساعة عند الله وحده، لم يُطلع عليها أحدًا، لا نبيًّا مرسلًا، ولا ملَكًا مُقرَّبًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ ﴿مَا﴾ نافية و﴿مِن﴾ زائدة لتأكيد العموم؛ أي: ما تخرج أيُّ ثمرة كانت ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾؛ أي: أوعيتها، جمع كِمٍّ، وهو: وعاء الثمرة وغلافها الذي يحفظها، كما يُرى ذلك في النخل وفي الزهر ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ من الإنسان والحيوان ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ حملها ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ فعِلْمه تعالى محيط بكل شيء ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾؛ أي: اذكر يوم ينادي اللهُ المشركين في يوم القيامة ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ الذين كنتم تزعمون، وأشركتموهم في عبادتي ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾؛ أي: أعلمناك، والمراد: أقررنا، ولعلهم أقرُّوا بذلك في موقف سابق من مواقف القيامة ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾؛ أي: ما منَّا من أحد يشهد هذا اليوم على أن لك شريكًا، وسؤال الله لهم لا يحتاج إلى جواب، فهو سؤال توبيخ وتعجيز، ولإثبات نفي الشركة، ولكنهم أجابوا لأنهم في مقام الدهش والفزع، ولأنهم يريدون الخلاص من أيِّ طريق.

قوله سبحانه: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ أي: وغاب عن المشركين يومئذ ﴿مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: ما كانوا يعبدونه من قبل ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: وأيقنوا أنهم ليس لهم ملاذ ولا ملجأ من القضاء المحقق؛ فالمَحِيص اسم مكان، من حاص يَحِيص، بمعنى: حادَ وعدَل وهرب، وقد جاء التعبير عن المحيص بألفاظ مختلفة في القرآن، منها:

المناص، والملجأ، والموئل، والمفَرُّ، والوَزَر، في قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]، وقوله: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]، وقوله: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١٠، ١١].

الفوائد والأحكام:

١ ـ فضل موسى عليه السلام؛ للتنويه بذكره وكتابه في هذه الآية وفي آيات كثيرة.

٢ ـ التشابُه بين الرسولين الكريمين: موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وكتابيهما: التوراة والقرآن، ولذا يقرن اللهُ بينهما في الذكر في آيات كثيرة.

٣ ـ اختلاف بني إسرائيل على موسى، وبغيُ بعضهم على بعض.

٤ ـ أن من بني إسرائيل مَن كان في شكٍّ شديد مما جاء به موسى عليه السلام.

٥ ـ أن الاختلاف لم يكن بِدْعًا في هذه الأمة؛ بل كان في الأمم الماضية.

٦ ـ تأخير العذاب عن الأمم المكذبة إلى أن يحين أجلُه المسمَّى؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

٧ ـ إثبات القدر السابق؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، ففيه:

١ ـ الرد على القدرية.

٢ ـ إثبات الكلام لله.

٨ ـ إثبات الربوبية الخاصة بالنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، وفي ذلك تشريف له عليه الصلاة والسلام.

٩ ـ أن كلَّ عامل يُجزى بعمله، حسنًا أو سيِّئًا، لا يكون شيء من ثوابه لغيره، ولا تُحمل سيئاته على غيره.

١٠ ـ الترغيب في العمل الصالح، والتحذير من العمل السيئ.

١١ ـ تنزيه الله عن الظلم كله.

١٢ ـ أن الظلم مقدور لله تعالى، لكنه ممتنع لكمال عدله ﷻ.

١٣ ـ إثبات العبودية العامة.

١٤ ـ تفرُّده تعالى بعلم ميقات الساعة.

١٥ ـ أن من ادعى علم الساعة فهو كافر مكذب لله.

١٦ ـ علمه تعالى بما تتشقَّق عنه الأكمام، وما تحمله الإناث، وما تضع الإناث من الناس أو الحيوان.

١٧ ـ علمه تعالى بالجزئيات، **ففيه**: الرد على الفلاسفة المنكرين لذلك.

١٨ ـ إثبات القيامة؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾.

١٩ ـ إثبات النداء لله تعالى.

٢٠ ـ أن الله ينادي في المستقبل من شاء، كما نادى من قبل.

٢١ ـ توبيخ المشركين يوم القيامة بسؤالهم عن معبوداتهم الذين زعموهم شركاء لله، كما قال في آية أخرى: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

٢٢ ـ براءة المشركين من آلهتهم وكفرهم بهم.

٢٣ ـ أن معبودات المشركين لا تنفعهم يوم القيامة ولا تنقذهم، فكلٌّ يتبرأ من الآخر.

٢٤ ـ مجيء الظن بمعنى العلم، وهو كثير في القرآن.

٢٥ ـ أن الكفار يوم القيامة لا ملجأ لهم يأوون إليه من عذاب الله.

ولمَّا بيَّن تعالى أن الكفار في الآخرة يتبرؤون من شُركائهم بعد أن كانوا في الدنيا مُصِرِّين على عبادتهم، ذكر حال الإنسان الكافر في الدنيا، وأنه متغيِّر الأحوال؛ فإن أصاب خيرًا تكبَّر واغترَّ، وإن أصابه شرٌّ ذلَّ وانكسر؛ **فقال سبحانه:**

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبر عن طبيعة الإنسان الكافر في السراء والضراء، فهو لا يقنع في السراء؛ بل يطلب المزيد، ولا يصبر في الضراء؛ بل يقنط من حصول الخير، وإن تغيرت حاله من شر إلى خير كفَر نعمة الله، وأضاف نعمة الله إلى نفسه، ولم يَرْج ثوابًا ولا يخاف عقابًا، وإن تحوَّلت حالُه من خير إلى شر كفر نعمة الله، وادعى غرورًا أنه في الآخرة ـ إن كانت ـ أعظمُ حظًّا من حاله في الدنيا، ثم هدَّد تعالى الكافرين بنعمه، المكذبين بالآخرة بالعذاب الغليظ، ثم أكَّد تعالى الخبر عن حال الإنسان ـ من حيث هو ـ إذا أنعم الله عليه، وهو الكفر بنعمة الله، والإعراض عنه، والبعد عن طاعته، وإذا ابتلاه الله بالشر عرف ربَّه وألحَّ بالدعاء لكشف ضُره، وكلُّ هذا بيان لتقلُّب الإنسان في أحواله بين الشكر والكفر، والطاعة والمعصية، والصبر والجزع.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾؛ أي: لا يملُّ ولا يَفتُر ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ وهو الكافر، والمراد: الجنس، لا كافر معيَّن ﴿مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾؛ أي: من سؤاله ربَّه الخير من المال، والصحة، والولد، والعز، والجاه، فهو يسأل اللهَ ذلك دائمًا، ومهما أوتي فلا يقنع بل يطلب المزيد ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: وإن أصابه فقر أو مرض ﴿فَيَـُٔوسٞ﴾؛ أي: ذو يأس شديد ﴿قَنُوطٞ﴾ من رحمة الله، والقنوط أشد اليأس، ولهذا تظهر معه آثار اليأس على صفحات الوجه. المعنى: أنه في حال الشدة يشتد يأسه، وينقطع رجاؤه من رحمة الله، كما قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وعن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾؛ أي: ولئن أعطينا هذا الكافر غنى وصحة ـ تفضلًا منا ـ من بعد شدة أصابته ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾؛ أي: ليقولن هذا حقِّي وصل إليَّ بعملي وجهدي، ولا فضل لأحد فيه، ولا يقول هذا إلا الكافر، بدليل قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾؛ أي: وما أعتقد أن الساعة ستقوم، فلا رجعة ولا حساب ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾؛ أي: كما يقوله الرسول والمؤمنون، وذلك منه على سبيل الفرض ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ أي: الجنة، فهو يتمنَّى على الله مع قُبح قوله وفعله، ولهذا توعَّده اللهُ بقوله مصرحًا بكفره: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: فلنخبرنَّ الذين كفروا بعملهم السَّيِّئ يوم القيامة ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ أعاد لام القسم تأكيدًا للوعيد ﴿مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾؛ أي: ولنعذبنهم عذابًا شديدًا لا ينقطع عنهم ولا يُفتَّر.

ولمَّا ذكر الله حال الكافر وما أعدَّ له من العذاب الأخروي أخبر عن حال الإنسان من حيث هو، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾؛ أي: وإذا أنعمنا على الإنسان ـ أي: جنس الإنسان ـ بأنواع النعم من العافية، وسعة العيش، وهناء البال ﴿أَعْرَضَ﴾ عن شكرنا وطاعتنا ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾؛ أي: تباعد مستكبرًا، وهذا تأكيد لـ﴿أَعْرَضَ﴾، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾؛ أي: المكروه، ولم يضف الشر إلى الله كما قال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا﴾ للتربية على الأدب معه تعالى، وإلا فإنه سبحانه خالق الخير والشر ومقدرهما ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾؛ أي: فهو ذو دعاء كثير، فهذه طبيعة الإنسان وجِبلَّته، فهو في حال الرخاء معرض عن الله، وفي حال الضراء ذو ابتهال وضراعة إلى ربه في طلب كشف الضراء وحصول الخير.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ حرص الإنسان على منافع الدنيا من الصحة والمال والولد، فلا يسأم من طلب المزيد منها.

٢ ـ قلة صبر الإنسان على المصائب، حتى يُفضي به ذلك إلى اليأس والقنوط.

٣ ـ غرور الإنسان إذا تبدَّلت حاله من الضراء إلى السراء، ومن الشر إلى الخير، حتى يجحد نعمة الله، ويضيفها إلى نفسه.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

٥ ـ أن رحمة الله العامة تشمل الكافر؛ لقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾.

٦ ـ أن هذه الآيات وصف لحال الإنسان الكافر؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

٧ ـ عتوُّ الكافر بجحده البعث الذي قامت عليه الأدلة عقلًا وشرعًا وحسًّا.

٨ ـ فيها شاهد لقصة الرجل صاحب الجنتين، المذكورة في سورة الكهف.

٩ ـ أن غرور الكافر بما أوتي من حظ لا يقتصر على حال الدنيا؛ بل ادعى لنفسه الحظ في الآخرة.

١٠ ـ أن الإقرار بالربوبية من الكافر لا يدخل به الإسلام؛ لقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾.

١١ ـ أن من اجتمعت فيه هذه الخصال المذكورة كافرٌ بالله وباليوم الآخر؛ لقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

١٢ ـ علم الله بأعمال العباد.

١٣ ـ أن أعمال العباد محصاة عليهم.

١٤ ـ أن عذاب النار يوصف بالغِلَظ، كما وصف بالشدة، والألم، والعِظم، والإهانة، والكِبَر، والنُّكر.

١٥ ـ أن الغالب على الإنسان ألَّا يزيده الإنعامُ إلا إعراضًا وعصيانًا.

١٦ ـ أن ما يحصل للإنسان من نعمة فهي من الله وحده.

١٧ ـ أن الإنسان لا يعرف ربه إلا إذا مسَّه الضُّر من مرض أو كرب أو فقر مدقع.

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

١٩ ـ ذِكْر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على العظمة، وهي لا تنافي أنه واحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم أمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يخاطب المشركين لإلزامهم، وإقامة الحجة عليهم؛ **فقال سبحانه:**

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الاحتجاجَ على المكذِّبين بالقرآن بما يُلزمهم الاعتراف على أنفسهم بالضلال بتكذيبهم، وذلك بفرض أن القرآن حقٌّ من عند الله، ثم كفروا به، ثم أخبر تعالى أنه سيُري المكذِّبين من الآيات الأُفقيَّة والنفسيَّة ما يضطرهم إلى الإيمان بأن القرآن حقٌّ، ثم ينبه تعالى إلى دليل هو أعظم من الآيات الكونية المشهودة، وهو شهادة الله على كل شيء، ممَّا يدل كلَّ عاقل أن الرسول ﷺ صادق، وأنَّ ما جاء به من القرآن حقٌّ، ثم أكَّد تعالى إصرارَ المكذبين على إنكار البعث، مع التهديد لهم بإحاطة علم الله بكل شيء، وقدرته على كل شيء ﷻ.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني أيها المشركون ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: منزَّلًا من عند الله، وهذا مما لا ريب فيه، ولكنه من تنزيل الحق منزلة المحتمل؛ استدراجًا للخصم لإثبات ما يقرره الدليل: ويسمَّى هذا الأسلوب: المنصِفَ من

الكلام ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: كفرتم بالقرآن عنادًا ومكابرة، والعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ الدالّ على التراخي يفيد أن كفرهم كان بعد تبيُّن الحق لهم، وجاء العطف بالواو في الأحقاف في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠] ليدل على أن كفرهم بالقرآن وقع عقب إنزاله؛ فيحتمل أن هذا وقع من جماعة، والأول وقع من آخرين، ويحتمل أن الذي في الأحقاف باعتبار ابتداء كفرهم عند نزول القرآن، وما في فصلت باعتبار امتداد كفرهم بالإصرار، والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ أي: لا أحدَ أضلُّ ممَّن هو في كفرٍ وعنادٍ بعيدٍ عن الحق، وهو استفهام إنكاري بمعنى النفي؛ أي: لا أحدَ أضلُّ منكم، وقد وضع الاسم الظاهر موضع الضمير، وهو يدل على بيان حالهم، وتعليل لضلالهم.

قوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾؛ أي: سنُري هؤلاء المكذِّبين ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: دلائل قدرتنا، وصدْقَ وعدِنا للمؤمنين بالنصر، وهذه بشارة للرسول ﷺ والمؤمنين بفتح مكة وما بعدها من البلاد، وظهور دين الإسلام على جميع الأديان ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾؛ أي: في آفاق الدنيا، جمع أُفُق، وهو الناحية من الأرض والسماء ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: ما وقع بهم من قتل وأسر يوم بدر وما بعده.

وجاء عن بعض السلف تفسير الآيات والأنفس بغير ذلك؛ فقالوا: إن المراد بالآيات: مخلوقاتُ الله العظيمة في آفاق السماوات والأرض الدَّالة على كمال قدرته تعالى وعلمه وحكمته؛ كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والبحار، والرياح، والأمطار، وغير ذلك ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: من عجائب قدرة الله في خلقهم وتكوينهم، وما أودع فيهم من الحواس والقوى والروح والعقل،

ورجَّح ابن جرير المعنى الأول[١].

قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية؛ أي: سنريهم الآيات إلى أن يظهر لهم منها ظهورًا بيِّنًا ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾؛ أي: أن هذا القرآن حقٌّ لا يأتيه الباطل من يديه ولا من خلفه ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاريِّ التعجبي، والواو عاطفة على مقدر مفهوم من السياق، و﴿ربك﴾ فاعل دخلت عليه الباء لتأكيد ثبوت الفعل للفاعل ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل من الفاعل. المعنى: ألم يُغنِ هؤلاء ولم يَكْفِهم برهانًا على صدقِكَ شهادةُ ربِّك الذي لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه مطَّلع على كلِّ شيء، ولا تخفى عليه خافية، والمراد هنا: الشهادة العلمية، كما أنَّ الله شهد لرسوله بصدق الرسالة إخبارًا، كما في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦].

ولو كان الرسول كاذبًا ـ كما يدَّعون ـ لَما أمهله الله في دعوته هذه السنين الطوال، ولَما أيَّده بالمعجزات والخوارق والنصر على أعدائه؛ بل لعاجله بالعقاب، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: الرسول ﴿بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، وكما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨].

ولمَّا أقام اللهُ الأدلة وأوضح الحجج، بيَّن سبب عنادهم وضلالهم؛ فقال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿أَلَا﴾ حرف تأكيد وتنبيه، فهو يُفيد تنبيه السامع لما بعده ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾؛ أي: في شكٍّ عظيم

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ٤٦١).

محيط بهم من كل جانب، كما تفيده ﴿فِي﴾ الدالة على الظرفية ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ﴾ للحساب والجزاء، المعنى: أن هؤلاء المشركين في شكٍّ من لقاء الله؛ لاستبعادهم البعث بعد الموت، فلهذا لا يتفكرون ولا يؤمنون ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾؛ أي: الله العظيم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾؛ أي: محيطٌ بعلمه وسلطانه وقدرته، فلا يغيب عنه تعالى شيء، ولا يفوته شيء، ولا يعجزه شيء، وفي ذلك إشارة إلى أنه سيجازي هؤلاء على كفرهم، وتأكيد الخبر بـ ﴿أَلَآ﴾ و﴿إِنَّ﴾ لتأكيد الوعيد.

الفوائد والأحكام:

١ ـ جواز إظهار الحق المتيقَّن بصورة المشكوك فيه على سبيل الفرض والتنزُّل في المناظرة.

٢ ـ إلزام الخصم ببطلان مذهبه، إذا أقرَّ بفرض أن ما خالف فيه حقٌّ.

٣ ـ إثبات عِندية الابتداء؛ لقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ أن القرآن كلامُ الله منزَّلٌ غير مخلوق.

٥ ـ أن الكفر بعد التبيُّن أغلظُ وأقبحُ من الكفر قبل ذلك، كما يفيده العطف بـ﴿ثُمَّ﴾.

٦ ـ أن من شاقَّ الله ورسولَه فهو أضلُّ الناس.

٧ ـ وعْدُ الله أن يُري العباد من آياته الكونية والنفسيَّة ما يضطرُّهم إلى الإيمان بأن القرآن حق.

٨ ـ قُرْب ما وُعدوا به من الآيات؛ لقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾.

٩ ـ أن من طرق العلم وزيادة الإيمان: التفكرَ في الآيات الكونيَّة.

١٠ ـ ضرورة الإنسان إلى تعليم الله؛ إذ لا يَعلمُ إلا ما علَّمه الله.

١١ ـ أن شهادة الله ـ أي: اطِّلاعه على كل شيء مع ما عُلِم من علم الله وعدله وحكمته ـ يستلزم صدقَ الرسول ﷺ.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨].

١٣ ـ إثبات الربوبيَّة الخاصة بالنبي ﷺ؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾.

١٤ ـ الإرشاد إلى التفكُّر في آيات الله الكونيَّة الأفقيَّة والنفسيَّة.

١٥ ـ الإشارة إلى إعجاز القرآن بالإخبار ببعض الغيب؛ لقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

١٦ ـ أن الرسول ﷺ حقٌّ، وأن القرآن حقٌّ.

١٧ ـ أن آيات الله مَن نظر فيها طالبًا للحق فإنها تُوصله إلى اليقين؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

١٨ ـ أن شهادة الله على كلِّ شيء كافيةٌ عن جميع الآيات في الدلالة على صدق الرسول ﷺ.

١٩ ـ الاستدلال بالأثر على المؤثِّر، ومنه: الاستدلال بالخلق على الخالق ﷻ.

٢٠ ـ أن المكذبين لرسول الله ﷺ لا يرجون لقاء الله.

٢١ ـ تأكيد الخبر بشكِّهم في ذلك.

٢٢ ـ علم الله بما في القلوب؛ لأن الشكَّ محلُّه القلب.

٢٣ ـ أن الكفر باليوم الآخر أو الشكَّ فيه سببٌ للكفر بالله، وتركِ التقرُّب إليه.

٢٤ ـ إثبات الربوبيَّة العامة؛ لقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾.

٢٥ ـ أن الله محيطٌ بكل شيء علمًا وقدرة.

٢٦ ـ الإرشاد إلى دوام المراقبة، والحذر من المخالفة.

٢٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].





سورة الشورى

هذه السورة مكيَّة، وعدد آياتها ثلاث وخمسون، وقد افتتحت بخمسة من الحروف المقطعة، هي: الحاء، والميم، والعين، والسين، والقاف، وهي من آل حم، وهي الثالثة منها.

والمتدبِّر لهذه السورة يجد أن الموضوع العام الذي عليه مَدارها هو الوحي؛ فقد بُدئت وخُتمت بذكره، وورد ذلك في أثنائها، فقد جاء ذكر الوحي بلفظه أو معناه في السورة ستَّ مرات:

الأول: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [٣].

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ الآية [٧].

الثالث: قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الآية [١٣].

الرابع: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ الآية [١٧].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ الآية [٥١].

السادس: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ الآية: [٥٢].

ولعل الحكمة في ذلك: الردُّ على المشركين، وتبرئة النبي ﷺ مما

رموه به من الافتراء على الله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [٢٤].

وتضمَّنت الآياتُ من (١) إلى (٦) امتنانَ الله على النبي ﷺ بالوحي إليه، والإخبارَ عن مُلْكه السماوات والأرض، وخوفَ السماوات وتسبيحَ الملائكة لعظمته، واستغفارَ الملائكة لمن في الأرض من المؤمنين، وأنَّ الله حافظٌ على المشركين أعمالهم، وأن الرسول ﷺ ليس وكيلًا عليهم.

وتضمَّنت الآياتُ من (٧) إلى (١٢) الامتنانَ من الله على النبي ﷺ بإيحاء القرآن العربي إليه، وبيانَ الحكمة من ذلك، وذكرَ اليوم الآخر، وأن الناس فيه فريقان، وأنه لو شاء تعالى لجعلهم أمة واحدة، ولكن اقتضت حكمتُه هذا التنويع، وتضمَّنت ذمَّ المشركين باتخاذ أولياء من دونه تعالى، وهو الوليُّ على كل شيء، والقادر على كل شيء، فاطر السماوات والأرض، مُولي النعم على العباد، وهو المنزَّه عن أن يماثله شيء، وهو المالك للسماوات والأرض، الرازق للعباد، وهو بكل شيء عليم.

وتضمنت الآياتُ من (١٣) إلى (١٦) الامتنانَ من الله على محمد ﷺ وأمته بما شرع لهم من دين الإسلام القائم على التوحيد، وأمرهم بإقامته، ونهاهم عن التفرق فيه، وأخبر أن ذلك يعظم في نفوس المشركين كراهة له، وأن المشركين وأهل الكتاب لم يتفرقوا إلا بعدما جاءهم العلم، وأن الله أمهلهم لما سبق في علمه وكتابه من بلوغهم أجلًا مسمًّى، ثم أمر اللهُ نبيّه بالدعاء إلى ما شَرع له من دين الإسلام وبالاستقامة عليه، ونهاه عن اتباع أهواء الكافرين، وأن يخبرهم بما

أمره الله به من الإيمان والعدل بينهم، وأن الله ربُّنا وربُّهم، وأن لكلٍّ عملَه منَّا ومنهم، وأنه قد تبيَّن المُحِقُّ من المُبطِل منا، فلا محلَّ للجدال بيننا، وسيجمعنا الله، ونحن صائرون إليه، وأنَّ المجادلين في الله حجتهم باطلة، وعليهم من الله غضب، ولهم عذاب شديد.

وتضمَّنت الآياتُ من (١٧) إلى (١٩) الامتنانَ من الله بإنزال الكتاب والميزان، والإخبارَ عن قرب الساعة، واستعجالَ المشركين لها، وخوفَ المؤمنين منها، وعلمَهم بأنها حقٌّ، وضلالَ الشاكين فيها، وعن لطفه بعباده، ورزقه لهم، وأنه القوي العزيز.

وتضمَّنت الآياتُ من (٢٠) إلى (٢٤) بيان عاقبة من يُؤثِر الآخرة على الدنيا، ويعمل لها، ومن يُؤثِر الدنيا ويعمل لها، ثم توبيخ المشركين على اتخاذهم شركاء يشرعون من الحلال والحرام ما لم يأذن به الله، والإخبار عن سبق كلمة الله في شأن الفصل بين العباد، وأنه لولاها لحكم اللهُ بين المؤمنين والكافرين فيما اختلفوا فيه، وأن عاقبة الظالمين العذابُ الأليم، وأنهم يوم القيامة مُشفقون من كفرهم وأعمالهم السيئة، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يَصيرون إلى روضات الجنات، لهم فيها ما يشاؤون، وذلك هو الفضل الكبير، وهو ما يبشر الله به عباده المؤمنين، ثم يأمر تعالى نبيّه ﷺ أن يقول لمن يبلغهم رسالات الله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [٢٣]، لكن أسألكم حقَّ القرابة، وأنه تعالى يزيد المحسنين إحسانًا؛ لأنه تعالى غفور شكور، ثم يُنكر اللهُ على الكافرين رميَهم للنبي ﷺ بافتراء الكذب على الله، وأنه لو فعل ذلك لختم على قلبه، ومحا الباطل الذي افتراه، وأحقَّ الحق بكلماته التي ينزلها على الرسول ﷺ، وأنه عليم بما في صدور العباد.

وتضمَّنت الآياتُ من (٢٥) إلى (٢٨) الإخبارَ عن كرمه تعالى بقبول

التوبة عن عباده، وعفوَه عن السيئات، وأنه يعلم ما يفعله العباد، ويستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات بقبول أعمالهم، ويزيدهم من فضله، وأما الكافرون فلهم عذاب شديد. ثم يخبر تعالى أنه لو بسط الرزق للعباد لبغى كثير منهم في الأرض، ولكن بحكمته ينزل ما ينزل بقدر لا يوجب البغي؛ لأنه خبير بصير، وهو الذي ينزل الغيث على العباد وهم في أشد حاجة إليه، وينشر رحمته - وهي الغيث - على بلاد واسعة، وهو وليُّ أمر العباد، وهو المحمود في تقديره وتدبيره.

وتضمَّنت الآياتُ من (٢٩) إلى (٣٥) تذكيرَ العباد ببعض آيات الله الكونية؛ ليتفكر العباد فيها، ويهتدوا بها إلى الإيمان بتوحيد الله وحكمته وقدرته، ومنها: خَلْق السماوات والأرض، وما بثَّ فيهما من الدواب، وأنه قادر على جمعها إذا شاء، والإخبار عن قدرته تعالى على جمعهم إذا شاء، وأن ما يصيب العباد هو بسبب أعمالهم التي ارتكبوها بقدرتهم ومشيئتهم واختيارهم، ومن آياته: السفن الجارية في البحر التي يسيِّرها اللهُ بالريح، ولو شاء لأسكن الريح فبقيت على ظهر البحر لا تتحرك، وفي ذلك آيات لأهل الصبر والشكر من العباد، ثم يخبر تعالى أنه لو شاء لأغرق هذه السفن بمن فيها، وذلك إنما يكون بارتكاب العباد للسيئات، ومع هذا يعفو عن كثير من سيئات العباد، وعلمه تعالى محيط بالذين يجادلون في آيات الله، ولا محيص لهم يفرون إليه من بأس الله إذا نزل بهم.

وتضمَّنت الآياتُ من (٣٦) إلى (٤٣) الموازنةَ بين الدنيا والآخرة، وأن حظَّ الآخرة للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، ثم ذكر تعالى بعض صفاتهم، ومن ذلك: أن انتصارهم دائرٌ بين العدل والفضل، وأنهم بريؤون من الظلم، وأنهم لا سبيل عليهم بحجة ولا عقاب، وإنما السبيل

على الظالمين، وأثنى على أهل الصبر والمغفرة، وبيَّن أن ذلك من عزم الأمور.

وتضمَّنت الآياتُ من (٤٤) إلى (٤٨) الإخبارَ بأن من يُضِلُّه اللهُ فليس له وليٌّ يهديه، وأنهم إذا رأوا العذاب يتمنون الردَّ إلى الدنيا، وهم خاشعون من الذل، ينظرون من طرف خفيٍّ، وهنالك يقول المؤمنون: إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وأخبر تعالى أن عذاب الظالمين مقيم، ولا ناصر لهم ينقذهم من العذاب، ثم أمر بالاستجابة لدعائه سبحانه قبل أن يأتي اليوم الذي لا يمكن فيه استدراك ما فات، ولا مردَّ له ولا ملجأ فيه لهارب، ولا حجة فيه لمعارض. ثم سلَّى نبيَّه ﷺ إن أعرض عن دعوته الكافرون؛ بأنه ليس حفيظًا عليهم، وما عليه إلا البلاغ، ثم ذكر أمر الإنسان في حالَتَيه: السراء والضراء، وهو الفرح والقنوط، وأن ذلك كفر من الإنسان.

وتضمَّنت الآياتُ من (٤٩) إلى آخر السورة الإخبارَ عن ملكه تعالى للسماوات والأرض، وتفرُّده بالخلق، وأنه الواهب للأولاد ذكورًا وإناثًا، وأنَّ مردَّ ذلك كله إلى علمه وقدرته تعالى، والإخبار بأنه لا يليق ببشر أن يكلمه الله إلا على أحد الوجوه الثلاثة المذكورة في الآية، وأن ما أوحى الله لنبيِّه روحٌ ونورٌ؛ فهو روحٌ لتوقف الحياة عليه، ونورٌ لتوقف الهداية عليه، وأخبر تعالى ممتنًّا على نبيِّه بإنزال هذا القرآن، وبيَّن سبحانه الحكمةَ من إنزال القرآن على محمد ﷺ، وهي الهداية به، وأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدري شيئًا عن هذا العلم وهذا القرآن، وأنه ﷺ يهدي بهذا الكتاب إلى صراط مستقيم وهو صراط الله، وأن جميع الأمور ترجع إليه ﷻ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ خمسة من الحروف المقطعة، وأنه تعالى يوحي إلى نبيِّه ﷺ كما أوحى إلى من سبقه من الرسل، ويخبر تعالى عن ملكه لِما في السماوات وما في الأرض، وأنه العلي العظيم، وعن أثر علوه وعظمته على السماوات؛ بأنها تكاد تنفطر من فوقها، وأن الملائكة يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون للمؤمنين في الأرض، وأنه تعالى غفور رحيم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ تقدم الكلام في الحروف المقطعة في أوائل السور، وأن القول المختار فيها أنها تُشير إلى إعجاز القرآن؛ أي: أن هذا القرآن الذي أعجزكم ـ أيها العرب ـ منظومٌ من هذه الحروف التي تعرفونها ويتألف منها كلامكم، ومع ذلك لا تقدرون على أن تأتوا بسورة مثله، وأنتم أهل البيان والفصاحة، فإذا ثبت عجزُهم ثبت أنه ليس كلام بشر، كما يدَّعون، وقامت الحجة به عليهم. كما أن هذا الحروف تُنبِّه الأذهان، وتستدعي الإصغاءَ والانتباهَ إلى ما بعدها.

وفُصِلت ﴿حمٓ﴾ عن ﴿عٓسٓقٓ﴾ فهما آيتان، خلاف قوله سبحانه: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فهي آية واحدة؛ لأن المطرد في سور آل حم مجيءُ ﴿حمٓ﴾ آية مستقلة.

قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثلَ ذلك الوحي ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ أيها الرسول ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ من الأنبياء ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل مرفوع ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: القوي الذي له القدرة التامة، والإرادة النافذة فلا يُغلب ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدَره، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، واقتران هذين الاسمين يشير إلى أن اصطفاءه تعالى للرسل، وإنزاله الوحي، هو من آثار عزته وحكمته ﷻ.

معنى الآية: مِثلَ ما أوحى اللهُ إليك ـ أيها الرسول ـ من المعاني في هذه السورة يوحي إليك القرآن، ويوحي إلى الرسل مِن قبلك في الكتب المنزَّلة عليهم.

قوله سبحانه ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: له تعالى ـ وحده ـ ما في السماوات والأرض خَلْقًا ومُلكًا وتدبيرًا، فجميع الخلائق خاضعةٌ له تعالى، ومفتقرةٌ إليه، وهو مُستغن عن كلِّ ما سواه، وله سبحانه التصرف المطلق في خلقه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ بذاته وقدْره وقهْره ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ أي: ذو العظمة في ذاته وصفاته.

ثم ذكر من آثار عظمته تعالى؛ فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾؛ أي: تقربُ السماوات أن يتشققن مع عِظمهن وتماسكهن؛ خشيةً من الله تعالى، وإجلالًا له ﴿مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾؛ أي: من جهة العلو؛ فكلُّ سماء تنفطر من جهة علوها، وهي الجهة التي يحصل لها منها الهيبة والجلال؛ لأن الله في العلو فوق جميع السماوات.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ الجملة معطوفة على

قوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ لإفادتها تقرير عظمة الله تعالى؛ أي: والملائكة الأبرار في تسبيح متصل؛ أي: ينزهون الله عن كلِّ نقص، والباء في ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للمصاحبة؛ أي: تسبيحًا مقترنًا بالحمد، والحمد هو: الثناء مع المحبة والتعظيم؛ فالتسبيح لتنزيه الله عن النقائص، والحمد لإثبات الكمال له تعالى ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: والملائكة يسألون اللهَ المغفرة لمن في الأرض من المؤمنين، كما جاء مبيَّنًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

قوله سبحانه: ﴿أَلَآ﴾ حرف تأكيد وتنبيه للسامع لما بعده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: يستر الذنب ويتجاوز عنه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: الذي يرحم عباده، وفيه الإشارة إلى قبول الله استغفار الملائكة، وأنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه رحمة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن السورة مكية؛ لافتتاحها بالحروف المقطعة، ولعلامات أخرى تضمَّنتها السورة؛ كتقرير التوحيد، والنبوة، والمعاد، من أول السورة إلى آخرها.

٢ ـ الإشارة إلى إعجاز القرآن بذكر الحروف المقطعة.

٣ ـ أن الوحي إلى محمد ﷺ ليس بدعًا؛ بل هو كما أوحى الله إلى من قبله من النبيين والمرسلين.

٤ ـ إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، وهما العزيز والحكيم، وما تضمَّناه من صِفَتي العزة والحكمة لله تعالى.

٥ ـ أن الشرائع مشتملة على العزة والحكمة لمن استمسك بها.

٦ ـ إثبات مُلْكه تعالى للعالم العلوي والسفلي من السماوات وما فيهن، والأرض وما فيها.

٧ ـ أن السماوات ليست واحدة؛ بل هي عدد، وهي سبع، كما جاء ذلك مصرَّحًا به في آيات أخرى.

٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، وهما: العليُّ والعظيم، وما تضمَّناه من صِفَتي العلو والعظمة لله تعالى.

٩ ـ إثبات علو الله والرد على النفاة؛ لقوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّۚ﴾.

١٠ ـ الرد على نفاة الصفاة من المعتزلة ومن وافقهم.

١١ ـ هيبة السماوات لله حتى تكاد أن تنفطر من فوقها؛ أي: من جهة العلو.

١٢ ـ أن ذلك أثر علو الله تعالى وعظمته، ولذا ذكر على إثر الاسمين الكريمين: العليِّ والعظيم.

١٣ ـ تسبيح الملائكة بحمد ربها.

١٤ ـ جمع الملائكة بين التسبيح والتحميد.

١٥ ـ محبة الملائكة للمؤمنين، ولذا يستغفرون لهم.

١٦ ـ أن الملائكة ذوو عقول وفعل بإرادة.

١٧ ـ أن الملائكة عبادٌ عابدون مربوبون لربهم.

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

١٩ ـ تقييد آية الشورى ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ بآية غافر: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

٢٠ ـ تفضُّل الملائكة على المؤمنين باستغفارهم لهم.

٢١ ـ أن من نعم الله على المؤمنين: تسخيرَ الملائكة بالاستغفار لهم.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلَّى فيه ما لم يحدث، تقول: اللَّهُمَّ اغفر له، اللَّهُمَّ ارحمه**» متفق عليه[١].

٢٣ ـ أن المؤمنين تجُوز عليهم الذنوب وتقع منهم.

٢٤ ـ إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، وهما: (الغفور) و(الرحيم)، وما دلَّا عليه من صِفَتي المغفرة والرحمة لله تعالى.

٢٥ ـ الإرشاد إلى طلب المغفرة والرحمة من الله تعالى؛ لأنه غفور رحيم.

***

(١) البخاري (٤٤٤)، ومسلم (٦٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَالظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الامتنانَ من الله على نبيِّه ﷺ بإيحاء القرآن العربي إليه، وبيانَ الحكمة من ذلك، والتذكيرَ باليوم الآخر، وبيانَ منتهى المكلفين يوم القيامة، فريق في الجنة، وفريق في السعير، وأن مَردَّ هذا الافتراق والمصير إلى مشيئته تعالى، وتوبيخ المشركين على اتخاذ أولياء من دون الله، وأن الله هو الوليُّ حقًّا، وأنه يحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هذا مبتدأ؛ أي: والمشركون الذين اتخذوا من دون الله معبودات يوالونها بالخضوع لها والتقرب إليها من الأصنام وغيرها ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ خبر المبتدأ؛ أي: الله رقيب عليهم، يحفظ عليهم أعمالهم فيجازيهم بها، ولا يفوته شيء منها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: لست ـ أيها الرسول ـ بموكَّل عليهم تحصي أعمالهم، إنما أنت نذير، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وفي الآية تسلية له ﷺ، والباء لتأكيد الخبر المنفي.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الكاف اسم بمعنى مثل، منصوب على المفعولية المطلقة؛ أي: ومثلَ ذلك الوحي ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أيها الرسول ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: بلسان عربي مبين، وهذا يدل على شرف هذه اللغة، وأنها أكمل اللغات، إذ اختصها الله لتكون لغة الكتاب العظيم، وهذا الإيحاء خاص بالقرآن بعد ذكر الإيحاء العام المتقدم في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ اللام للتعليل؛ أي: لتحذِّر من غضب الله وعذابه ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وهي مكة، والمراد أهلها، ولذا عطف عليه ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ أي: من الناس، وسميت مكة أم القُرى؛ لأنها قبلة كل مسلم، ولأن فيها أول بيت وضع للناس، والعرب تسمي أصلَ كل شيء أمَّه.

وخُصَّت أم القرى بالذكر؛ لأنها موطن النبي ﷺ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ لأنهم الأقربون، وإلا فرسالة النبي ﷺ عامة إلى جميع الناس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]، ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾؛ أي: وتخوفَ الناس ذلك اليومَ العظيم، وهو يوم القيامة الذي يجمع اللهُ فيه الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: لا شك في وقوعه؛ لأنه لا بد من جزاء المكلفين، وينقسم الناس بعد ذلك الجمع وبعد الحساب فريقين ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: في النار، وهم الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: ولو شاء اللهُ لجعلهم في الدنيا أمة واحدة على ملة واحدة، إما على الضلال أو على الهدى، ولكنه تعالى لم يشأ ذلك؛ بل شاء أن يكونوا فريقين كما

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وهذا لحكمة أرادها سبحانه، وهي أن يظهر موجَب فضله وعدله، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ﴾ من أهل الإيمان ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: جنته ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: الكافرون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ يتولاهم بما ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينقذهم من عذاب الله، والآية تسلية للنبي ﷺ عمَّا يُقاسيه من كفر المشركين، وأنه واقع بمشيئته تعالى.

قوله سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، ﴿أَمِ﴾ هي المنقطعة التي تقدر بـ﴿بل﴾ والهمزة للاستئناف، وتفيد الانتقال عمَّا قبلها من الكلام دون إبطاله إلى الإنكار على المشركين في اتخاذهم أولياء مع الله أو غير الله. المعنى: بل أَتَّخذَ المشركون من دون الله أولياء؟! ليس لهم ذلك ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾؛ أي: فالله وحده هو الوليُّ بحقٍّ لا غيره ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: وهو وحده القادر على إحياء الموتى دون ما اتخذوه من الأولياء؛ فإنها لا تقدر على إحياء الموتى، كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه تعالى شيء، فهو الحقيق بأن يُتخذ وليًا، وألَّا يُعبد سواه، وفي الآية تعريض بحَقارة معبودات المشركين، وأنها عاجزة لا تقدر على شيء.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إحاطة علم الله بالعباد وأحوالهم وأعمالهم، وإحصاؤها عليهم.

٢ ـ تهديد المشركين بإحصاء أعمالهم عليهم، ومجازاتهم بها.

٣ ـ أن النبي ﷺ غير مسؤول عن المشركين عن كفرهم وتكذيبهم، فلم يجعله الله وكيلًا عليهم، **ففيها**: التسلية له ﷺ عن تكذيب المشركين له.

٤ ـ التنويه بأعظم نعمة من الله على نبيّه وعلى أمته، وهي: إيحاء القرآن إليه.

٥ ـ التنويه بإنزال القرآن بلسان عربي.

٦ ـ فضل العرب؛ لإنزال القرآن بلسانهم.

٧ ـ أن تعلم اللغة العربية فرض كفاية؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٨ ـ المقصود من إنزال القرآن، وهو: النِّذارة به.

٩ ـ الاقتصار في الكلام على أحد مقصودَي الرسالة، وهو: النِّذارة دون البشارة.

١٠ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى؛ لقوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

١١ ـ تخصيص مكة وما حولها بالنِّذارة؛ لأنهم أول من أُنذر بهذا القرآن.

١٢ ـ أن من أسماء مكة: أمَّ القرى.

١٣ ـ ذكر المنذِر والمنذَر به، وهما: الرسول ﷺ والقرآن، وذكر المنذَرِ تخويفًا وهم أهل مكة، والمنذَرِ منه المخُوف، وهو: يوم الجمع.

١٤ ـ التخويف من يوم القيامة.

١٥ ـ أن من أسماء يوم القيامة: يومَ الجمع.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

١٧ ـ أن يوم القيامة لا يتطرق إليه ريب؛ لظهور براهينه.

١٨ ـ أن الناس يكونون يوم القيامة فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

١٩ ـ أنه ما ثمَّ دارٌ ثالثة.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ الآيتين [الروم: ١٤].

٢١ ـ فيها شاهد لقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

٢٢ ـ إثبات المشيئة لله تعالى، والردُّ على القدرية.

٢٣ ـ أن هذا الافتراق بمشيئة الله، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة.

٢٤ ـ إثبات الجَعْل الكوني لله تعالى.

٢٥ ـ اقتضاء حكمة الله لهذا الافتراق، وهي أن يدخل في رحمته من يشاء، ويعذب من يشاء.

٢٦ ـ تسمية الكفار ظالمين.

٢٧ ـ أن الظالمين المستوجبين لعذاب الله ليس لهم وليٌّ ولا نصيرٌ يعصمهم من ذلك.

٢٨ ـ الإنكار على الظالمين المشركين؛ لاتخاذهم أولياء من دون الله.

٢٩ ـ إثبات الولاية العامة لله وحده، المتضمنة للمُلك والتدبير.

٣٠ ـ أن الله هو الذي يحيي الموتى.

٣١ ـ إثبات البعث.

٣٢ ـ ذكر الدليل بعد ذكر الحكم؛ لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وهذا له نظائر في القرآن.

٣٣ ـ إثبات قدرة الله على كل شيء.

❁ **قوله تعالى:** ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

❁ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآياتُ أن ما اختُلف فيه ينتهي حكمُه إلى الله؛ لأنه الربُّ، وعليه التوكل، وإليه المآب، وهو فاطر السماوات والأرض، وهو الذي جعل للرجال من أنفسهم أزواجًا يسكنون إليها، وجعل للناس أصنافًا من الأنعام، وأنه تعالى ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، وله تعالى ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيحهما، وهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وهو بكل شيء عليم.

❁ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ﴾؛ أي: وما اختلفتم في حكمه أيها الناس ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من أمور الدين والدنيا ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾؛ أي: فحكم ذلك المختلَف فيه مفوَّض ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إلى علمه تعالى وقضائه، فنرجع إلى كتابه العظيم وإلى سُنَّة رسوله الكريم ﷺ؛ لأنها منزَّلة من عنده سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، الكتاب: القرآن، والحكمة: السُّنَّة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾؛ أي: قل لهم ـ أيها الرسول ـ: ذلكمُ العظيم الموصوف بتلك الصفات من الإحياء والإماتة والحكم بين المختلفين هو ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ أي:

عليه ـ وحده ـ اعتمدت في شؤوني ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لا إلى غيره ﴿أُنِيبُ﴾؛ أي: أرجع بعباداتي وتوبتي.

قوله سبحانه: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أي: خالقها على غير مثال سبق ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ أي: خلق لكم من جنسكم ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ من النساء لتسكنوا إليهنَّ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾؛ أي: وخلق لكم من الأنعام أزواجًا؛ أي: أصنافًا: ذكورًا وإناثًا، لتتوالد ولتتمتعوا بلحومها وألبانها وأصوافًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ [الزمر: ٦]، وفصَّل ذلك في سورة الأنعام، وعلى هذا التفسير للأزواج في الموضعين يكون في الآية جناس تام، حيث اتفق اللفظان في الحروف، واختلفا في المعنى.

قوله تعالى: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾؛ أي: خلقكم وبثَّكم وكثَّركم بالتناسُل في هذا الجَعْل المذكور، فـ﴿في﴾ سببية؛ أي: يُكثِّركم بسبب أن جعل لكم من أنفسكم أزواجًا، ومن الأنعام أزواجًا ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾؛ أي: لا يماثله تعالى شيءٌ من خلقه في ذاته، ولا في أسمائه ولا في صفاته، جلَّ عن النظير والشبيه والمثيل، فهو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وهو الخالق وما سواه مخلوق، والكاف في ﴿كَمِثۡلِهِۦ﴾ حرف جر زائد في خبر ليس لتوكيد النفي، و﴿شَيۡءٞۖ﴾ اسمها، والتقدير: ليس شيءٌ مثلَه، فنفى اللهُ عن نفسه المثلية بآكد ما يكون من النفي، ولو لم تكن الكاف زائدة لفسد المعنى؛ إذْ يكون المعنى على تقدير على عدم زيادة الكاف أن الله ﷻ له مثيل، وأنه ليس لمثيله شبيه، وهو محال، تعالى الله عن ذلك ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾؛ أي: يسمع كل الأصوات في جميع الأوقات ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾؛ أي: يبصر جميع المبصَرات، لا يخفى عليه منها شيء.

قوله سبحانه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ﴾؛ أي: مفاتيح، واحدها إقليد على غير قياس، أو مِقلاد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: بيده تعالى ـ وحده ـ مفاتيح خزائن السماوات والأرض، فلا يتصرف فيهن سواه، ثم بيَّن معنى كونه له مقاليد السماوات والأرض بقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: ويُضيقه على من يشاء؛ لأنه تعالى لا شريك له في ملكه ولا في عطائه، وإنما يفعل ذلك حسب حكمته تعالى، وما يقتضيه علمُه بأحوال العباد ومصالحهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: محيطٌ علمه بالأشياء كلها خفيِّها وجليِّها قبل وجودها وبعد وجودها، لا يخفى عليه منها شيء، وهذا عمومٌ لا أعمَّ منه، ولا مخصص له، فهذه أعم صيغة في القرآن، فهي أعمُّ من قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأن القدرة من حيث هي لا تتعلق إلا بالممكنات، بخلاف العلم؛ فإنه يتعلق بالموجود، والمعدوم، والممكن، والمستحيل.

الفوائد والأحكام:

١ ـ وجوب الرجوع فيما اختلف فيه إلى حكم الله، وتحريم الرجوع إلى غيره من القوانين وغيرها.

٢ ـ وقوع الاختلاف بين الناس في أمور الدين والدنيا.

٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

٤ ـ أن الإجماع حجة، وجه ذلك: أن الله تعالى إنما أمر بتفويض حكم ما اختُلف فيه إليه تعالى، فيُفهَم منه أن ما اتفق عليه المسلمون مرضيٌّ له تعالى، وأدلُّ من هذه الآية على حجية الإجماع: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]؛ لأن الخطاب فيها للمؤمنين خاصة.

٥ ـ تعليم الله نبيَّه ﷺ الثناءَ عليه بربوبيته، والتوكلَ عليه، والإنابةَ إليه، وقد كان النبي ﷺ قائمًا بذلك.

٦ ـ الثناء على الله بدلائل قدرته ورحمته، من قوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما بعده.

٧ ـ أنه تعالى خالق السماوات والأرض على غير مثال سبق.

٨ ـ أن من رحمته تعالى وحكمته: أن جعل للناس أزواجًا من أنفسهم يسكنون إليهن.

٩ ـ أن من نعم الله على العباد: خَلْق الأنعام من الإبل والبقر والغنم، وجعلها أصنافًا.

١٠ ـ تكثير الله الناس بما جعل لهم من الأزواج، وما جعل لهم من الأنعام.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

١٢ ـ أنه تعالى ليس له مثل من خلقه.

١٣ ـ تنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقات.

١٤ ـ إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما: (السميع) و(البصير)، وما دلَّا عليه من صِفَتي السمع والبصر لله تعالى.

١٥ ـ الرد على المعطلة والمشبهة؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

١٦ ـ أن له تعالى ملك السماوات والأرض، وتدبير أمرهما.

١٧ ـ أنه تعالى الرازق لعباده، يبسط ويقبض كيف شاء.

١٨ ـ المفاضلة بين العباد في رزقهم.

١٩ ـ الإشارة إلى حكمة الله في رَزق العباد.

٢٠ ـ أن مردَّ ذلك إلى مشيئة الله وحكمته.

٢١ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٢٢ ـ إحاطة علمه تعالى بكل شيء.

لمَّا ذكر اللهُ وحيَه إلى نبيِّه ﷺ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ شرع في تفصيل ذلك مرغِّبًا في التمسك به، **فقال سبحانه:**

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآياتُ الإخبار عن اتفاق شرائع الأنبياء على التوحيد، وخصَّ منهم أولي العزم، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليهم وسلم، وندَّد بالمشركين في إعراضهم عن التوحيد، واستعظامهم دعوتهم إليه، ونبَّه على أن مردَّ الهداية والاصطفاء إليه، وأخبر تعالى أن الناس لم يتفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، وذلك أن الناس إذا جاءهم الرسول صاروا فريقين: فمنهم من يؤمن، ومنهم من يكفر، فيبغي الكفارُ على المؤمنين، وأنه لولا سبْق القدر بإمهالهم إلى أجل مسمًّى لحكم اللهُ بينهم بإهلاك الكافرين، ونجاة المرسلين وأتباعهم، كما فعل ذلك فيمن شاء من الأمم؛ كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعده.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾؛ أي: سنَّ لكم وبيَّن، واللام للتعليل؛

أي: لأجلكم، أو الاختصاص؛ أي: لكم لا لغيركم. والخطاب للنبي ﷺ ولأمته ﴿مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾؛ أي: شرع لكم من الدين ما شرع لنوح، وهو أول الرسل ومن بعده، وعبَّر عن الإيحاء بالوصية إعلاءً لشأن الدين، وتحريضًا على إقامته والعمل به ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ هذه الجملة معطوفة على ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ المعنى: وشرع لكم الذي أوحينا إليك أيها الرسول، وفي تخصيص النبي ﷺ بالإيحاء إليه دون الوصية كما ذكر ذلك في الأنبياء الآخرين؛ لشرفه عليه الصلاة والسلام، والتأكيد على أن القرآن مُوحَى به، ولتقدم ذكر الوحي إليه ﷺ ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ﴾؛ أي: والذي وصَّينا به ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ خصَّ هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر؛ لأنهم أكابر الأنبياء وأولو العزم، وثمَّ نكتة هنا، وهي: ذكر أول الأنبياء وآخرهم ووسطهم إشارة إلى اتفاق جميع الأنبياء في الدين.

ثم بيَّن اللهُ ما شرعه لهؤلاء الأنبياء بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: اجعلوا هذا الدين قائمًا بالمحافظة عليه وامتثال ما جاء به، والمراد دين الإسلام، الذي هو دين الرسل كلهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال ﷺ: «**الأنبياء أخوة لعَلَّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**»[١]، وإقامة الدين تكون بعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وبالإيمان بالبعث والجنة والنار، وبالقيام بأصول العبادات المتفق عليها بين الشرائع، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغيرها، وبتقوى الله ﷻ في السر والعلن، والتحلِّي بمكارم الأخلاق، وغير ذلك مما اتفقت فيه شرائع الأنبياء، دون الفروع

(١) البخاري (٣٢٥٩)، ومسلم (٢٣٦٥) عن أبي هريرة ﷺ.

التي تختلف بحسب الأوقات، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾؛ أي: لا تختلفوا في الدين؛ أي: في هذه الأصول التي اتفقت عليها الشرائع ﴿كَبُرَ﴾؛ أي: عظُم وشقَّ ﴿عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: كفار مكة ومَن على سُنَّتهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، وقد حكى اللهُ عنهم قولهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥، ٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾ [الحج: ٧٢]؛ يعني: لشدة بغضهم للنبي ﷺ وللقرآن.

قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾؛ أي: يصطفي ويختار، والفعل اجتبى يتعدى بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ [الأنعام: ٨٧]، لكنه هنا ضُمِّن معنى ﴿يُقرِّب﴾، فمعنى ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾؛ أي: يختار مَن يشاء ويقرب ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده فيوفقهم للتوحيد ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾؛ أي: يوفق لطاعته من يرجع إليه بالتوبة من الذنوب، وهذا من الله تعقيب بأنه ليس كلُّ من يُدعى إلى الدين فإنه يستجيب، ولكن ذلك إلى الله، وهو راجع إلى مشيئته تعالى وحكمته وعلمه، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

ثم أخبر اللهُ عن وقت تفرُّق المشركين من جميع الأمم وعن سبب ذلك؛ فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾؛ أي: وما اختلفوا وصاروا شيعًا وأحزابًا ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بصحة ما أمروا به، وأنه حقٌّ لا مرية فيه، فقامت عليهم الحجة، فكان الواجب عليهم الانقياد والاجتماع، ولكنهم اختلفوا ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ظلمًا وعنادًا ومشاقة

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَة منه سبحانه بتأخير العذاب عن الكافرين ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت معيَّن وهو يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]، ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لحُكم بينهم في الدنيا بتعجيل العذاب، واستئصال الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟﴾؛ أي: أُعطوا ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل، وهم اليهود النصارى المعاصرون للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: من بعد أسلافهم المختلفين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [هود: ١١٠]، ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾؛ أي: لفي شك من الدين الذي جاءت به الرسل، أو لفي شك من كتابهم؛ حيث لم يؤمنوا على الوجه الصحيح، ولو آمنوا به لآمنوا بمحمد ﷺ ﴿مُرِيبٍ﴾؛ أي: شكٍّ شديد الرِّيبة مُوقِعٍ لهم في القلق والاضطراب، فلا يستطيعون الخلاص منه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله هو شارع شرائع الأنبياء.

٢ ـ أن العمل لا يكون عبادة إلا بدليل من كتاب أو سُنَّة.

٣ ـ أن شرائع الأنبياء هي دينهم.

٤ ـ أن دين الأنبياء واحد.

٥ ـ أن ما شرعه الله لعباده من الدين هو ما وصَّاهم به؛ فهي شرائعه ووصاياه.

٦ ـ أن مدار شرائع الله ووصاياه على إقامة دين الله والاجتماع عليه.

٧ ـ فضل الرسل المذكورين وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليهم وسلم على غيرهم؛ لتخصيصهم بالذكر.

٨ ـ أن الكتاب والسُّنَّة كلاهما وحيٌ؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

٩ ـ الإشارة إلى بداية النبوة ونهايتها، وذلك بعطف آخر المرسلين وخاتم النبيين وهو محمد ﷺ على أول المرسلين وهو نوح عليه السلام.

١٠ ـ أن المطلوب من العباد: إقامةُ الدين على أكمل وجه حسب الاستطاعة.

١١ ـ أن من إقامة الدين: الاجتماع على ذلك.

١٢ ـ أن التفرُّق والاختلاف ينافي إقامة الدين.

١٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

١٤ ـ أن العلم بما جاء به الرسول ﷺ إنما يَنتفع به من عمل به، وإلا كان ضررًا عليه بسوء فعله.

١٥ ـ بُغض المشركين للتوحيد، ونُفرتهم من الدعوة إليه.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [الزمر: ٤٥].

١٧ ـ أن اصطفاء الله لبعض العباد راجع إلى مشيئته تعالى وحكمته وعلمه.

١٨ ـ الرد على المعتزلة، وذلك بردِّ الاجتباء إلى مشيئة الله.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ [القصص: ٦٨] أي: يختار من يشاء.

٢٠ ـ أن الإنابة إلى الله سبب لهداية الله للعبد، **ففيه**:

١ ـ الترغيب في الرجوع إلى الله بالعبادة والتوبة.

٢ ـ الرد على القدرية؛ لقوله: ﴿مَن يُنِيبُ﴾.

٢١ ـ أن مجيء العلم بمجيء الرسل هو سبب افتراق الناس بين مؤمن وكافر.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

٢٣ ـ أن كلَّ من خالف الحق فهو باغٍ؛ أي: ظالم.

٢٤ ـ أن إمهال الكافرين راجع إلى سبق القدر بذلك.

٢٥ ـ إثبات كلمات الله الكونية، وأنه لا يتبدل مقتضاها.

٢٦ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٧ ـ أن أهل الكتاب الذين كانوا في عهد النبي ﷺ كانوا في شكٍّ من نبوة محمد ﷺ.

٢٨ ـ أن شكَّهم شديد مقلق لهم.

ولمَّا ذكر اللهُ افتراقَ السابقين واختلافُهم أمر نبيَّه ﷺ بالدعوة إلى دين الله، وأن يستقيم عليه هو وأتباعه؛ لأن ذلك من أعظم أسباب الاجتماع، وائتلاف القلوب، **فقال سبحانه:**

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان الأمرَ بالدعوة إلى التوحيد، وإقامة الدين، والاستقامة، والنهيَ عن اتباع أهواء الكافرين، والأمرَ بإعلان الإيمان بكل كتب الله، وبالعدل بين الناس، وتقرير الربوبية العامة، وأنَّ لكل عامل عمله، وألَّا خصومة بين المؤمنين والكافرين بعد تبيُّن الحق، وعدم الموجب للجدال، وأن الله جامع العباد ليحكم بينهم، ويجزي كلًّا بعمله؛ فإنَّ إليه المرجع ﷻ، وأن الذين يُحاجُّون في الله جحدًا لتوحيده حجتهم باطلة عند الله، فلا عذر لهم، وعليهم من الله غضب، ولهم عنده عذاب شديد.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ الفاء للتفريع، وتسمى: الفاء الفصيحة، فهي تُفصح عن شرط مقدر في الكلام يدل عليه السياق، واللام بمعنى (إلى)، والمشار إليه: إقامة الدين، وعدم التفرق؛ أي: إذا كان الأمر ما

ذُكر من التفرُّق واختلاف السابقين من المشركين وأهل الكتاب في دينهم، فادْعُ الناسَ ـ أيها الرسول ـ إلى التوحيد وإلى الاتفاق على الملة الحنيفية، والفاء في قوله: ﴿فَٱدۡعُۖ﴾ للتفريع، فهي مؤكدة للفاء الأولى ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾؛ أي: ودُم على عبادة الله وحده لا شريك له ﴿كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾؛ أي: كما أمرك الله ﷻ، فتضمَّنت الآيةُ أمرَ النبي ﷺ بتزكية نفسه بالاستقامة، ودعوة الناس إلى عبادة الله وتوحيده ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾؛ أي: ولا تتبع أهواءَ المشركين الباطلة فيما يدعونك إليه من ترك دينك والإعراض عن الدعوة ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ (ما) اسم موصول يفيد العموم، والمراد بالكتاب الجنس؛ أي: قل لهم ـ أيها الرسول ـ: صدَّقتُ بجميع كتب الله المنزَّلة على أنبيائه من التوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم وموسى وغيرها تصديق تأييد وشهادة بأنها من عند الله، وفي ذلك إشارة إلى اتفاق كتب الله في الأصول، وفيه تعريض بأهل الكتاب؛ إذْ آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾؛ أي: وأمرني اللهُ لأجل أن أعدل بينكم في الدعوة والحكم إذا تخاصمتم إليَّ، فلا يكون مني جور عليكم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾؛ أي: الله خالقُنا وخالقُكم ومتولِّي جميع أمورنا ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾؛ أي: لنا ثواب أعمالنا الصالحة، ولكم جزاء أعمالكم السيئة، فلا يضركم عملنا ولا يضرنا عملكم، وهذ من الكلام المُنصِف الذي يراد به استمالة الخصم، وتنبيهه على خطئه ليرعوي ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ الحجَّة مصدر بمعنى الاحتجاج؛ أي: لا جدال بيننا وبينكم ولا خصومة؛ لأن الحق واضح بيِّن، وأنتم معاندون مكابرون، وقد أَيِسْنا منكم ولن تُجْدي المحاجةُ معكم شيئًا ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾؛ أي: يوم القيامة للفصل والجزاء، وهذا

من تفويض الأمر إلى الله، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: إلى الله المرجع والمآب؛ فيجازي كلَّ أحد بعمله من خير أو شر.

وما في هذه من الأوامر والنواهي وإن كان المخاطب بها في اللفظ النبي ﷺ فحكمها عام للأمة؛ لأن النبي أسوة أمته في كل ما يشرعه ربه له.

ومن اللطائف في هذه الآية: اشتمالها على عشر جُمَل، كلُّ جملة منها تضمَّنت حكمًا مستقلًّا، ونظيرها آية الكرسي.

ثم أخبر اللهُ عن وعيد المخاصمين في الله، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: والذين يجادلون المؤمنين في الله جحدًا لتوحيده وطعنًا في دينه، وتكذيبًا لرسوله ولكتابه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾؛ أي: من بعد ما استجاب المؤمنون لربهم ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾؛ أي: مخاصمتهم باطلة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: في حكم الله، وبطلانُها معلوم لذوي العقول بما أظهره الله من الدلائل والبراهين على صحة هذا الدين، وما أيَّد به رسوله ونبيِّه ﷺ من المعجزات الدالة على أنه رسول من ربِّ العالمين ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾؛ أي: وعلى هؤلاء المجادلين غضبٌ عظيم من ربهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ينتظرهم يوم القيامة.

الفوائد والأحكام:

١ ـ وجوب الدعوة إلى دين الله الحق وتوحيده.

٢ ـ أن الدين هو الحقيق بالدعوة إليه؛ لقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ فقدَّم الجار والمجرور مما يفيد الحصر.

٣ ـ وجوب الاستقامة على أمر الله.

٤ ـ أن الرسول ﷺ مكلَّف يتوجه إليه الأمر والنهي من الله؛ كغيره من العباد؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، ففيه: الردُّ على الصوفية الذين يرفعون النبي ﷺ عن مقام العبوديَّة.

٥ ـ تحريم اتباع أهواء الكافرين.

٦ ـ أن الكافرين يَهْوون الشر بالمسلمين في دينهم ودنياهم.

٧ ـ تحريم التشبيه بالكفار؛ لأن ذلك مما يَهْوونه.

٨ ـ تثبيت الله نبيَّه ﷺ بدوام توجيهه بأمره ونهيه.

٩ ـ وجوب الإيمان بجميع كتب الله.

١٠ ـ وجوب العدل بين الناس.

١١ ـ إثبات الربوبية العامة، وأن الله ربُّ المؤمنين والكافرين.

١٢ ـ أن من العدل مع الخصم: الاعتراف بما معه من الحق؛ لقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ﴾.

١٣ ـ أن لكل عامل عمله، يُسأل عنه ويُجزى به.

١٤ ـ أنه إذا تبيَّن الحقُّ فلا موجب للخصومة بين المؤمنين والكفار.

١٥ ـ أن المقصود من الجدال هو: تبيين الحق وتمييزه عن الباطل.

١٦ ـ أن الله جامع العباد ليوم المعاد.

١٧ ـ إثبات البعث والجزاء.

١٨ ـ تخويف الخصم بالمصير إلى الله.

١٩ ـ أن من طرائق الكفار: المحاجَّة في الله، جحدًا لوجوده، أو ربوبيته، أو ألوهيته، أو جحدًا لكمال صفاته.

٢٠ ـ أن طريقة الكفَّار نقيض طريقة المؤمنين بالله؛ فإنهم يحاجون في الله إثباتًا لوجوده وربوبيته وإلٰهيته وكمال صفاته.

٢١ ـ بطلان كلِّ حجة يُحتج بها على باطل.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩].

٢٣ ـ إثبات عِندية الحكم؛ لقوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٢٤ ـ أن حجة المبطلين باطلة في حكم الله وإن قَبِلها الناس.

٢٥ ـ إثبات صفة الغضب لله تعالى.

٢٦ ـ تهديد الكافرين بالغضب والعذاب.

٢٧ ـ أن عذاب الله شديد.

ولمَّا بيَّن اللهُ اتفاقَ شرائع الأنبياء في التوحيد وإقامة العدل بين الناس، وأمَرَ رسوله ﷺ بالدعوة، ومجادلة المشركين، وبيَّن بطلان حجتهم أخبر سبحانه أنه إنما شرع الدين بإنزال الكتب المتضمنة للعدل، وحذَّر المكذبين بالساعة من عذاب يوم القيامة الذي توعِّدوا به يوم تقوم الساعة، **فقال سبحانه:**

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ إخبارَ الله بما منَّ به على عباده من إنزال الكتاب بالحق والميزان، والإخبار بقرب الساعة، وذمَّ الكافرين بتكذيبهم بها واستعجالهم بها، وإيمان المؤمنين وإشفاقهم منها؛ لأنهم يعلمون أنها حقٌّ، وأنَّ الجاحدين للساعة المجادلين في ضلال مبين، ثم أخبر تعالى بلطفه بعباده، ورزقه لمن يشاء، وأنه القوي العزيز.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ أي: جنس الكتاب، والمراد: جميع الكتب المنزلة من عند الله، وآخرها القرآن العظيم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباء للملابسة؛ أي: إنزالًا مصحوبًا بالحق ملابسًا له، فجميع كتب الله المنزَّلة على أنبيائه مشتملة على الحق، لا شبهة فيها، فأحكامها عدل، وأخبارها صدق ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ أي: وأنزل الله الميزان، والمراد به:

العدل، من باب تسمية الشيء باسم آلته، ومعنى إنزال العدل: إنزال الأمر به في الكتب المنزلة، فعليه يكون عطف الميزان على الكتاب من باب عطف الخاص على العام ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ الخطاب لكل من يصلح للخطاب؛ أي: وما يُعلِمُك لعل وقت الساعة قريب وأنت لا تدري، ويلحظ أن ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ مؤنث و﴿قَرِيبٌ﴾ مذكر، وأجيب عن هذا بأنه على تقدير مضاف؛ أي: وقتها، وثمَّ وجه آخر، وهو تأويل الساعة بالبعث.

قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾؛ أي: يستعجل الكفار بالساعة؛ أي: يطلبون تعجيلها؛ استهزاء بها، وتعجيزًا للمؤمنين؛ فيقولون: متى هي؟! ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾؛ أي: خائفون وجلون من أهوالها، ولأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم في ذلك اليوم ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: يعلمون أنها واقعة لا محالة ﴿أَلَآ﴾ حرف تأكيد وتنبيه للسامع؛ ليحضر ذهنه لما بعده، حتى يجيئه الكلام وهو متهيء لِتَلقِّيه، فيقع في نفسه موقعًا حسنًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ﴾؛ أي: يجادلون ﴿فِى ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: القيامة فينكرون البعث، وسُمِّيت القيامةُ ساعة؛ لأنها تفجأ الناس بغتة، أو لأنها تقع في ساعة من الزمان، وأقلُّ ما يصْدُق عليه اسم الساعة اللحظةُ ونحوها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾؛ أي: ضلال بعيد عن الحق، وأكِّدت الجملة بثلاثة مؤكدات، ﴿أَلَآ﴾ و﴿إِنَّ﴾ واللام في قوله ﴿لَفِى﴾ إعلامًا بأن المكذبين بالبعث في ضلال مُستحكِم، ليس مثله ضلال، فقد تضافرت أدلة العقل والنقل على وقوع الساعة، فلم يبق مجال للتكذيب بها والجدال.

قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾؛ أي: رفيق بعباده حيث لم

يعاجلهم بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ومن آثار رحمته ولطفه بهم: أنه ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: بغير حساب، فيعطي البرَّ والفاجر؛ تبعًا لعلمه تعالى وحكمته ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾؛ أي: الذي له القوة كلُّها، وهو القادر على كل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الذي لا يُغلَب، وسينتقم من أعدائه المكذبين.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن كتب الله منزَّلة، وأعظمها: القرآن.

٢ ـ أن من أسماء القرآن: الكتاب.

٣ ـ اشتمال القرآن على الحق في أوامره ونواهيه وأخباره، صدقًا وعدلًا.

٤ ـ إنزال الله الميزان، وهو العدل الذي اشتمل عليه القرآن من الأحكام العادلة، كما اشتمل على الفرقان بين الحق والباطل.

٥ ـ أن دين الإسلام قائم على العدل.

٦ ـ أن من أصول الأدلة في الأحكام: القياس الصحيح، المتضمن للتسوية بين المتماثلات.

٧ ـ التنبيه على قُرب الساعة وهي القيامة.

٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

٩ ـ أن النبي ﷺ لا يعلم وقت الساعة.

١٠ ـ إثبات البعث والجزاء.

١١ ـ سَفَه الكفار وجهلهم؛ لاستعجالهم بالساعة التي يجدون فيها جزاء كفرهم.

١٢ ـ أن الحامل لهم على الاستعجال بالساعة هو تكذيبهم بها.

١٣ ـ إشفاق المؤمنين من الساعة؛ لأنهم يؤمنون بها.

١٤ ـ أن الإيمان بالله واليوم الآخر من دواعي الخوف من عذاب الله.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠] ونظائرهما.

١٦ ـ أن المؤمنين بالله يؤمنون بالساعة؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾.

١٧ ـ أن الشك في وقوع الساعة والجدال فيها ضلال بعيد.

١٨ ـ أن الضلال درجات؛ لقوله: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

١٩ ـ أن من صفات الله اللطف بعباده، ومن أسمائه اللطيف، ومعناه في هذا السياق: الرحيم الرفيق.

٢٠ ـ أن إنزال الكتاب والميزان من لطفه تعالى بعباده.

٢١ ـ أنه تعالى الرازق للعباد، والمتصرف في رَزقهم بسطًا وقبضًا.

٢٢ ـ إثبات المشيئة لله.

٢٣ ـ إثبات اسمين من أسمائه، وهما: (القوي) و(العزيز)، وما تضمَّناه من صِفَتي القوة والعزة لله تعالى.

ولمَّا ذكر اللهُ انقسام الناس في الساعة إلى فريقين، مؤمن بها ومكذِّب، ومستعجل بها، ومشفق منها، أخبر عن عملهم في هذه الدنيا، **فقال سبحانه:**

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبار أنه تعالى يعطي كلَّ مريد مطلوبه من الدنيا أو الآخرة، ثم يُوبِّخ تعالى المشركين الذي اتخذوا شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله، ثم أخبر تعالى أنه لولا سَبْق كلمة القدر بإمهالهم لقضي بينهم، وأن مصير الظالمين إلى العذاب الأليم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: من كان يريد بعمله ثواب الآخرة، وهو المؤمن ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾؛ أي: نضاعفْ له ثواب حرثه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقد يُعجل اللهُ له من الثواب في الدنيا، والحرْث في الأصل إلقاء البذر في الأرض، وهو مستعار لعمل المؤمن، فهو يعمل وينتظر ثمرة عمله ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ومن كان يريد بأعماله الدنيا لَذَّاتها وشهواتها فحسب، وهو الكافر ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾؛ أي: نُعطِه منها ما قُدِّر له ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾؛ أي: ليس

له في الآخرة نصيب من الثواب؛ لأنه لم يعمل لله تعالى، قال ﷺ: «**من كان همُّه الآخرة جمع الله شَملَه، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرَّق اللهُ عليه ضيعتَه، وجعل فقرَه بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له**»(١)، وسمَّى الله كلًّا من العملين حرْثًا؛ لأن كلًّا منهما لا يحصل إلا بجهد ومعاناة، إذن فأَولاهما بالإيثار والعمل: ما يفضي إلى سعادة الأبد.

قوله سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾، ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي تقدر بـ(بل) وهمزة الاستفهام الإنكاري؛ أي: بل ألهم - أي: الكفار - شركاء وهم كبراؤهم ورؤساؤهم ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ هذه الآية متصلة بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [١٣]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [١٧]، وذلك من قبيل ذكر الضِّدِّ، فإذا كان الله ﷻ شرع الشرائع وأنزل الكتب فلِم لا يؤمن هؤلاء؟ ألهم شركاءُ ابتدعوا لهم من الدين ما لم يأذن الله بشرعه من الكفر والشرك، وتحريم ما أحلَّ الله، وتحليل ما حرَّم الله، فالاستفهام للإنكار والتوبيخ والتهكُّم؛ أي: ليس لهم ذلك.

قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾، إضافة ﴿كَلِمَةُ﴾ إلى ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: ولولا الكلمة الفاصلة المتضمِّنة لقضاء الله السابق بإمهال هذه الأمة، وتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: لعُوجلوا بالعذاب ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين الذين ظلموا بوضع العبادة في غير موضعها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛

(١) رواه الإمام أحمد (٢١٥٩٠)، وابن ماجه (٤١٠٥) عن زيد بن ثابت، قال محققو المسند: «إسناده صحيح».

أي: شديد الإيلام؛ أي: في الآخرة، وتنكير ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لهوله، وتأكيد الجملة بـ﴿وَإِنَّ﴾ لأنها تهديد.

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن كل عملٍ لمطلوبٍ يُسَمَّى حرثًا.

٢ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ في الأسماء: «**وأصدقها حارث وهمَّام**»[(١)].

٣ ـ الترغيب لإرادة الآخرة بالعمل.

٤ ـ أن الله يضاعف لمريدي الآخرة عملهم.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. ونظائرهما.

٦ ـ أن الله يبتلي مُريدَ الدنيا بأن يعجِّل له بعضَ مطلوبه لا كلَّه.

٧ ـ أن كلَّ من عمل للدنيا فلا أجر له؛ لقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

٩ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[(٢)].

١٠ ـ أن للإنسان إرادة، **ففيه**: الردُّ على الجبرية.

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٩٠٣٢)، وأبو داود (٤٩٥٠)، وصححه الألباني.
(٢) البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) عن عمر بن الخطاب ﷺ.

١١ ـ تعظيم الله نفسه؛ إذْ ذكر نفسه بضمير الجمع: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾.

١٢ ـ إثبات كرم الله وسعة فضله؛ لقوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ﴾.

١٣ ـ أن من كانت الدنيا كلَّ همِّه فليس له في الآخرة نصيب.

١٤ ـ توبيخ الله للمشركين أن اتخذوا لله شركاء في شرع الأحكام.

١٥ ـ أن شرع الأحكام تحليلًا وتحريمًا والطاعة في ذلك شركٌ.

١٦ ـ أن تحكيم القوانين شركٌ.

١٧ ـ أن البدع المحرمة هي ما يتعلق بالدين، دون ما تعلق بالعادات.

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

١٩ ـ أن أحكام الحلال والحرام من الدين.

٢٠ ـ أن عقائد الكفار وأحكامهم دين لهم.

٢١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

٢٢ ـ إثبات الإذن الشرعي لله تعالى.

٢٣ ـ أن كل ما لم يأذن به من الأحكام فهو باطل، ومن دين المشركين.

٢٤ ـ أن كل ما ثبت من الأحكام بدليله من الكتاب أو السُّنَّة فهو مما أذن الله به، وهو من دينه.

٢٥ ـ إثبات الكلمات الكونية لله.

٢٦ ـ سبق القدر بإمهال الله.

٢٧ ـ أن في كلام الله فصلًا بين الحق والباطل.

٢٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ [الطارق: ١٣].

٢٩ ـ أن ما سبق به علمُ الله وكتابُه لا يطرأ عليه تغيير.

٣٠ ـ تهديد الظالمين بما أُعِدَّ لهم من العذاب.

٣١ ـ شدة عذاب الله؛ لقوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

ثم ذكر حال الفريقين وما يؤولون إليه يوم القيامة، **فقال سبحانه:**

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبر من الله تعالى عن الظالمين وأنهم مشفقون من جزاء أعمالهم السيئة، وهو واقع بهم ولا بد، ويذكر تعالى في المقابل مصيرَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سُنَّةَ القرآن في الوعد والوعيد، ويأمر اللهُ نبيَّه أن يقول للمكذبين: لا أسألكم على دعوتكم وتعليمكم أجرًا إلا المودة التي تقتضيها القرابة بيني وبينكم، ويَعِد اللهُ المحسنين بالحسنى والزيادة، وهذا مقتضى أنه تعالى غفور شكور.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: ترى - أيها الناظر - الكافرين في القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ أي: خائفين خوفًا شديدًا على أنفسهم، وهو منصوب على الحال ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾؛ أي: من جزاء ما كسبوا من السيئات في الدنيا ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ﴾؛ أي: وهذا الجزاء وهو العذاب واقع بهم لا محالة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مبتدأ ﴿فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ﴾ خبره، وهذا وعد للمؤمنين في مقابل وعيد الظالمين.

والرَّوضات جمع رَوضة، وهو المكان الكثير الماء والخضرة.

المعنى: أنهم في بساتين الجنة يتمتعون فيها بكل ما يشاؤون من النعيم والثواب العظيم، في جوار الرب الكريم الرحيم، ولهذا قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ من الكرامة في جنات الخلد في أطيب مكان وأشرف، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: المذكور من الثواب والجزاء ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: العظيم الذي لا يماثله فضل.

قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هذا تأكيد لاسم الإشارة السابق؛ أي: ما ذكر من الثواب والفضل الكبير الذي أعده الله في الجنة هو ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ﴾ به ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ وهم المؤمنون المتقون، وفي الآية دليل على أنه لا بد مع الإيمان من العمل الصالح، ولا يكون العمل صالحًا إلا بأن يكون خالصًا لله تعالى، وعلى وفق ما جاء في الشرع.

ثم خاطب اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: قل للمشركين من قريش: لا أطلب منكم مالًا على تبليغ رسالة ربي ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ﴾ هذا استثناء منقطع؛ أي: لكن أسألكم المودة في القربى، و(في) سببية، والقُربى هي: القرابة، كالبُشرى بمعنى البشارة؛ أي: لا أسألكم مكافأة على الدعوة إلا أن تودُّوني بسبب قرابتي منكم، وتكفُّوا عنِّي أذاكم، وتمنعوني من أذى الناس، وهذا خطاب استعطاف؛ قال ابن عباس: «إنه لم يكن بطن من قريش إلا كان للنبي ﷺ فيهم قرابة»[1].

فهذا الذي سألهم النبيُّ ﷺ ليس بأجر على التبليغ؛ لأنه مبذول لكلِّ أحد؛ فإنَّ كلَّ أحد يودُّه أهلُ قرابتهُ وينتصرون له من أذى الناس، كما فعل ذلك أبو طالب فقد ناصر النبيَّ ﷺ وآواه وهو كافر؛ وفاءً بحق القرابة.

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤١).

قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾؛ أي: ومن يكتسب حسنة وهي الطاعة، وليس الاقتراف خاصًّا باكتساب السوء، وإن كَثُر استعماله في ذلك ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾؛ أي: نضاعفْ له جزاءها، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلى ما فوق ذلك؛ فضلًا منا ورحمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة لذنوب عباده، فيتجاوز عن ذنوبهم ويسترها ﴿شَكُورٌ﴾؛ أي: كثير الشكر للمطيعين، ومن شكره لهم: أنه تعالى يقبل اليسير، ويعطي الكثير.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إشفاق الظالمين من جزاء أعمالهم السيئة، وذلك يوم القيامة.

٢ ـ أنه لا مفرَّ لهم من العذاب؛ بل هو واقع بهم ولا بد.

٣ ـ تسمية المشركين ظالمين.

٤ ـ إثبات فعل العبد؛ لقوله: ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾.

٥ ـ الردُّ على الجبرية.

٦ ـ أن من عادة القرآن: إتباعَ الوعيد بالوعد، والوعد بالوعيد.

٧ ـ أن من بِقاع الجنة: الرياض، وهي الأرض الطيبة المخصبة المُعشِبة.

٨ ـ أن للمؤمنين في الجنة كلَّ ما يشاؤون من أنواع النعيم.

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

١٠ ـ أن من كمال نعيمهم: جوارَهم لربهم.

١١ ـ إثبات عِندية القُرب.

١٢ ـ أن ما يُكرم اللهُ به أولياءه هو من فضله العظيم.

١٣ ـ أن إخباره تعالى بما أعدَّ لأوليائه هو بشرى منه تعالى لهم.

١٤ ـ إثبات العبودية الخاصة، وهي عبودية المؤمنين.

١٥ ـ أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الدعوة إلى الله من المدعوين، ومن ذلك: تعليم القرآن.

١٦ ـ أن طلب المال من المدعوين ينفِّرهم من قبول الدعوة.

١٧ ـ أن من أعظم الحقوق: حقَّ القرابة.

١٨ ـ أن من حق القرابة: المودة بين الأقارب، المقتضية للنصرة والحماية.

١٩ ـ وَعْد الله المحسنين بزيادة الأجر على إحسانهم، والتوفيق لمزيد عمل صالح.

٢٠ ـ في قوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ شاهد للآية السابقة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [٢٠].

٢١ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: (الغفور) و(الشكور)، وما دلَّا عليه من صِفَتي المغفرة والشكر لله تعالى.

ولمَّا كانت السورة من أولها في تقرير أن القرآن وحيٌ منزل من عند الله تعالى، أنكر سبحانه على المشركين نسبة افتراء القرآن إلى الرسول ﷺ، ووبَّخهم على مقولتهم، **فقال سبحانه:**

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ إنكارَ الله على المشركين رميَهم النبي ﷺ بالافتراء عليه، ويخبر تعالى أن لو وقع ذلك منه ﷺ لختم على قلبه إذا شاء، وأنه سبحانه يمحو الباطل ويحق الحق بكلماته، وأنه عليم بذات الصدور، ثم أثنى على نفسه تعالى بقبول توبة التائبين، والعفو عن سيئات المؤمنين، وأنه يعلم ما يفعل العباد، ويستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله، وأما الكافرون فلهم عذاب شديد، ثم يخبر تعالى عن حكمته ببسط الرزق وقبضه، وأن ذلك راجع إلى خبرته بأحوال عباده، ثم أخبر بأنه تعالى هو الذي ينزل الغيث بعد قنوط العباد، وينشر رحمته لهم، ومردُّ ذلك إلى أنه الوليُّ الحميد.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: بل أيقول كفار مكة عنادًا: اختلق محمد الكذب على الله بادعاء الرسالة وما نزل عليه من القرآن، فـ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي تتضمن معنى **حرفين**:

الأول: (بل) التي تفيد الانتقال من كلام إلى آخر.

والثاني: همزة الاستفهام الإنكاري المفيد للنفي. المعنى: ليس الأمر كما يدَّعي هؤلاء الكفار من أن الرسول افترى كذبًا على الله، فالكلام إنكار عليهم، وتوبيخ لهم على رميهم النبي ﷺ بالافتراء على الله، وتلك وقاحة منهم؛ إذ يرمونه بأعظم الكذب، وهم يسمُّونه قبل ذلك: الصادق الأمين.

ثم خاطب اللهُ نبيّه بقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ هذا استبعاد للافتراء؛ أي: إن افتريتَ ختم الله على قلبك عقوبة على الافتراء، وهو الطبع المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣]؛ فإنه تعالى لا يُقِرُّ أحدًا يفتري عليه الكذب؛ بل يعاجله بالعقوبة، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

وفي توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ فائدة، وهي: تلقينه الجواب ليصارح به المشركين، ويدفع مقولتهم الشنيعة.

وذكر بعض المفسرين أن معنى ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يربطْ عليه بالصبر؛ حتى لا يشقَّ عليك أذاهم، وهو تفسير بعيد لم يذكره إمام المفسرين ابن جرير، وردَّه ابن القيم من وجوه كثيرة، منها: أن الرابط على قلب العبد لا يقال له: خَتَم على قلبه، ولا يُعرف هذا في عرف المخاطب، ولا في لغة العرب؛ بل المعهود استعمال الختم على القلب

في شأن الكفار في جميع موارد اللفظ في القرآن[١].

وأكَّد اللهُ استبعادَ الافتراء منه ﷺ فقال سبحانه: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: يُزهقه ويمحقُه، والواو للاستئناف، فهو كلام مستأنف غير معطوف على جواب الشرط ﴿يَخْتِمْ﴾؛ لأن الله يمحو الباطل مطلقًا، وأصل ﴿وَيَمْحُ﴾ يمحو، حذفت الواو لالتقاء الساكنين، وهي محذوفة في الرسم؛ حملًا للرسم على النطق، ونظير هذه الآية في حذف الواو لالتقاء الساكنين: قوله سبحانه: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨].

قوله سبحانه: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾؛ أي: ويثبِّت اللهُ الحقَّ ويبقيه ويظهره بكلماته المنزَّلة على نبيِّه ﷺ وهي القرآن، أو بكلماته الكونية؛ أي: بقضائه النافذ؛ فإنه تعالى إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون، ولا مانع أن تحمل الآية على النوعين.

معنى الآية: إن افتريت؛ خَتَم اللهُ على قلبك إن شاء، ومحا الباطل المفترَى، وأبقى ما هو الحقُّ بوحيه وقضائه.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ﴾؛ أي: إن الله ﷻ كامل العلم ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بصاحبة الصدور، فـ(ذات) مؤنث (ذو)، وصاحبة الصدور هي: الأسرار والخواطر النفسية، وجُعِلت صاحبةً للصدور؛ لأنها ملازمة لها لا تنفك عنها، نحو: أصحاب الجنة، وأصحاب النار، فعِلمُه تعالى محيط بكل شيء، وإذا كان يعلم ما يضمره الإنسان في صدره، فمن باب أولى أنه يعلم ما يظهره للناس وما يتكلم به، وسيجازي اللهُ المُبطل والمحق.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ هذا امتنان من الله

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٨٦).

على عباده المؤمنين، و﴿عَنْ﴾ بمعنى: مِن؛ لأنَّ فعل القبول يتعدَّى بـ(مِن)، كما قال تعالى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١]؛ أي: وهو سبحانه بكرمه ورحمته الواسعة الذي يقبل التوبة من أهل طاعته بالتجاوز عمَّا تابوا منه، كما أخبر تعالى أنه يحب التوابين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: ويصفح ـ تفضُّلًا منه ورحمة ـ عن السيئات كبيرها وصغيرها فلا يؤاخذ بها ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير أو شر، وسيجازيكم عليه، وفي الآية دعوة للمشركين إلى أن يتوبوا من كفرهم وافتراءاتهم؛ لأن التوبة تجب ما قبلها، والإسلام يهدم ما قبله.

قوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: يقبل التوبة ويستجيب للذين آمنوا، وحُذفت اللام من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كما حذفت في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣]؛ أي: كالوا لهم، ودلَّ على هذا الحذف قولُه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، واستجاب بناء مبالغة في أجاب؛ تأكيدًا للوعد بالإجابة.

معنى الآية: أنه تعالى يجيب دعاء الذين آمنوا به، وعملوا الأعمال الصالحات ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: ويزيدهم من كرمه وجوده ما لم يطلبوا، ويوفقهم للعمل الصالح الذي يزيد به ثوابهم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ أي: مؤلم بالغ الشدة يوم القيامة، وهذا مع ما قبله من الجمع بين الوعد والوعيد.

قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولو وسَّع اللهُ الرزق لعباده لبغى بعضهم على بعض، ولطغوا في الأرض، وأكثروا فيها الفساد بالمعاصي؛ لأن الغِنى يوجب الطغيان والكِبر؛ فإن

الإنسان ظلوم جهول في أصل خلقته، فإذا وجد الغِنى والقدرة عاد إلى الجِبلَّة البشرية، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وإذا وقع في بلية انكسر وعاد إلى التواضع والطاعة ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾؛ أي: ينزل اللهُ من الرزق بمقدارٍ معيَّن اقتضته حكمته وعلمه تعالى ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ﴾؛ أي: عليم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي قليلًا أو كثيرًا أو يمنع ﴿بَصِيرٌ﴾ بتصريف أحوالهم، والبصَر في مثل هذه الآية راجع إلى كمال العلم والحكمة، وليس هو الرؤية أو ما تكون به الرؤية، وإنما يدل البصير على هذا المعنى إذا اقترن بالسميع؛ كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾؛ أي: والله ـ وحده ـ هو الذي ينزل الغيث من السماء ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾؛ أي: من بعد ما يئس العبادُ من نزوله، واشتد يأسُهم، قيل لعمر بن الخطاب ﵁: أجدبت الأرض، وقنِط الناس قال: «مُطروا إذن»[(١)]، ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ وهو الغيث نفسه؛ أي: ينشر بركات الغيث ومنافعه في الأرض فَيروَى الناس، وينبُت الزرع، ويَدُرُّ الضرع، وإضافة الرحمة إلى الله من إضافة المخلوق إلى الخالق؛ دلالة على أنها منه تعالى، خلافًا للرحمة التي هي صفة الله تبارك وتعالى؛ فإضافتها إلى الله من إضافة الصفة إلى الموصوف، كما في قوله سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾؛ أي: المتولي عباده الإحسان والتدبير ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: المحمود على أقواله وأفعاله وأوصافه، والمحمود على كل حال ﷻ.

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير (٢٠/ ٥١١).

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من وسائل الصدِّ عن اتباع الرسول ﷺ: رميه بالافتراء على الله.

٢ ـ شدة عداوة الكفار للرسول ﷺ ولما جاء به.

٣ ـ إنكار الله على المشركين رميهم النبي ﷺ بافتراء القرآن.

٤ ـ تنزيه الله نبيَّه ﷺ عن ذلك.

٥ ـ أنه تعالى لا يقر نبيَّه ﷺ على ذلك لو فعل؛ بل يعاقبه بالختم على قلبه، ويمحو ما افتراه، ويؤيد الحق بكلماته.

٦ ـ أن إحقاق الحق وإبطال الباطل متلازمان.

٧ ـ أن الافتراء على الله أعظم الكذب.

٨ ـ أن الله لا يمكِّن للكافر المفتري عليه تمكينًا مطلقًا.

٩ ـ الرد على القدرية؛ لقوله: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

١٠ ـ أن من عقوبات الله العظيمة: الختم على القلوب، وذلك لا يحصل إلا لكافر.

١١ ـ أن القلب هو متعلَّق الهدى والضلال.

١٢ ـ أن من عصى الله فلا يأمن العقوبة، وإن بلغ في الفضل غايته.

١٣ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

١٤ ـ إثبات كلمات الله القدرية.

١٥ ـ إثبات صفة الكلام لله تعالى.

١٦ ـ علمُه تعالى بما في نفوس العباد، وهي الأسرار والخواطر التي في النفوس.

١٧ ـ الإرشاد إلى مراقبة الله فيما يُسِره الإنسان في نفسه.

١٨ ـ حسن بيان القرآن في تقرير سُنَّة الله في إحقاق الحق وإبطال الباطل.

١٩ ـ أن الله لا يُقِر على باطل وقت نزول الوحي. يشهد لذلك: قول جابر رضي الله عنه: «كنا نعزل، والقرآن ينزل»[1] الحديث.

٢٠ ـ ثناء الله على نفسه بقبول توبة التائبين، وبالعفو عن السيئات، وبعلمه بأفعال العباد.

٢١ ـ الترغيب في التوبة من الذنوب.

٢٢ ـ سعة فضل الله وكرمه بقبول التوبة من جميع الذنوب.

٢٣ ـ أن العفو عن السيئات ثمرة التوبة.

٢٤ ـ إثبات العبودية الخاصة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٢٥ ـ أن من فضله تعالى وكرمه: أنه يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويزيدهم من فضله.

٢٦ ـ فضيلة الإيمان والعمل الصالح، وأنهما سبب لإجابة الله تعالى.

٢٧ ـ في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ شاهد للآيات السابقة في السورة، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [٢٠]، وقوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ [٢٣].

٢٨ ـ أن من حكمته تعالى: ألَّا يسوي بين المؤمنين والكافرين، فخصَّ المؤمنين بكرامته، وجعل للكافرين العذاب الشديد.

---

(١) البخاري (٤٩١١)، ومسلم (١٤٤٠).

٢٩ ـ تهديد الكافرين، والتحذير من الكفر.

٣٠ ـ التنبيه على حكمة الله في بسط الرزق وقبضه.

٣١ ـ الحذر من الرغبة في بسط الرزق.

٣٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

٣٣ ـ الإرشاد إلى الرضا بتدبير الله أمر العباد.

٣٤ ـ أن بسط الرزق قد يكون شرًّا على الإنسان.

٣٥ ـ إثبات العبودية العامة؛ لقوله: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾.

٣٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٣٧ ـ أن تدبير الله أمر العباد راجع إلى كمال خبرته، وبصره بهم.

٣٨ ـ أن البغي في الأرض شرٌّ على الباغين.

٣٩ ـ إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، وهما: (الخبير) و(البصير)، وما تضمَّناه من صِفَتي الخبرة والبصر لله تعالى، وهي كمال العلم والحكمة في التدبير.

٤٠ ـ أن الله تعالى هو الذي ينزل الغيث على العباد.

٤١ ـ أن من حكمة الله: إنزال الغيث في وقت الضرورة إليه.

٤٢ ـ أن الغيث من رحمة الله.

٤٣ ـ إثبات الرحمة المخلوقة من الله.

٤٤ ـ أن الغالب من الناس: القنوط من رحمة الله إذا تأخر عنهم المطلوب من الغيث وغيره.

٤٥ ـ إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما: الوليُّ والحميد، وما تضمناه من الولاية والحمد.

٤٦ ـ إثبات الولاية العامة.

ثم ذكر اللهُ دليلًا آخر على تفرُّده بالربوبية والألوهية، بعد الدليل الأول، وهو تفرُّده بإنزال الغيث، **فقال سبحانه:**

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ تذكيرَ الله عباده ببعض الآيات الدالة على ربوبيته وألوهيته، ومن أعظمها: خَلْق السماوات والأرض، وما بثَّ فيهما من دابة من الناس وغيرهم، وأنه تعالى على كل شيء قدير، ومن ذلك: أنه يجمعُ ما بثَّه في السماوات والأرض، ثم أخبر تعالى أن كلَّ ما يصيب العباد مما يكرهونه في أنفسهم وأموالهم إنما هو بسبب أعمالهم السيئة، وأنه تعالى يعفو عن كثير من سيئات العباد، ثم أخبر عن ضعف العباد وعجزهم في جانب قدرته تعالى، لذلك فهم لا يُعجزونه ولا يَفوتونه، مهما أوتوا من قوة، وليس لهم من دون الله وليٌّ ينفعهم، ولا نصيرٌ يدفع عنهم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ومن آياته تعالى الدالة على وحدانيته وربوبيته، وكمال قدرته وعلمه وحكمته: خَلْقُ السماوات والأرض على هذه الهيئة العظيمة الحسنة، وبهذا النظام المُحكَم الذي يبهر العقول، ويأخذ بالألباب، و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، يعني:

أن هذه بعض الدلائل على الربوبية ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾؛ أي: ومن آياته الباهرة: ما بثَّه في السماوات والأرض؛ أي: ما نشر وفرَّق فيهما من الدوابِّ، مفردها دابَّة، وهي: كل ما يدِبُّ على الأرض من الآدميين وغيرهم، قيل: إن هذا خاص بالأرض؛ لأن الدواب لا توجد إلا فيها، ولا يطلق على الملائكة دواب؛ لأنهم طيَّارون، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر: ١]، فعلى هذا تكون الآية من قبيل نسبة الشيء إلى جميع المذكور، وإن كان متلبسًا ببعضه، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرسل لا يكونون إلا من الإنس.

وذهب بعض المفسرين إلى أن ضمير التثنية على ظاهره في قوله: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾؛ فالضمير يعود على السَّماوات والأرض كما هو أصله اللغوي، وأن المراد بالدابَّة: الكائنُ الحيُّ، فهو اسم جنس يعم الإنس والجن، والملائكة، والطير، والهوام، وغيرها مما نراه وما لا نراه، والملائكة وإن كان لهم أجنحة، ولهم صفة الطيران فهذا لا يمنع من إطلاق اسم الدَّابة عليهم؛ لأنهم يمشون أحيانًا، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ [الإسراء: ٩٥]، والله أعلم.

ولما بيَّن تعالى أنه خلق هذه المخلوقات متفرقة بَيَّن أن خَلْقها على هذه الصورة لا لعجز، ولكن لمصالح وحكم، وهو قادر على جمعها في أيِّ وقت شاء؛ فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾؛ أي: كامل القدرة على جمع ما بثَّه من كل دابة، ومفعول ﴿يَشَآءُ﴾ محذوف تقديره: يجمعهم إذا يشاء جمْعَهم، فالمقيَّد بالمشيئة هو الجمع وليس القدرة، فقدرته تعالى مطلقة، فهو تعالى قادر على ما يشاء وما لا يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، ﴿وَمَآ﴾ شرطية، وفعل الشرط ﴿أَصَٰبَكُم﴾، وجواب الشرط قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؛ أي: وما أصابكم من مصيبة من المصائب التي تكرهونها في الأنفس أو الأموال من مرض أو فقر ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؛ أي: بسبب ما اكتسبتموه من المعاصي، وعبَّر بالأيدي؛ لأن أكثر الأفعال تكون بها.

وهذا في المكلَّفين والبالغين ظاهر، وقد أشكل تعليل ما يصيب غيرَ المكلَّفين كالمجانين والصِّبيان، ومعلوم أن ما يصيبهم ليس بكسبهم؛ لأنهم لا كسب لهم، وقد خاض الناس من المفسرين والمتكلمين في تعليل ما يصيب هؤلاء، وذكروا أشياء، منها: الابتلاء لأوليائه وأهليهم، ومنها: أن ذلك يكون بكسب أوليائهم وأهليهم؛ فيدخل في جملة مصائب أولئك، ومنهم من قال: إنه لا علة لمصائب غير المكلفين؛ بل ذلك مقتضى الخلقة البشرية، وهو أنه تعرض لهم هذه العوارض من الأمراض والموت، فما كان من طبيعة الشيء فلا يُسأل عن علته، لكن يجب أن يعلم أن الله في كل ما يقدره ويقضيه حِكمًا لا تحيط بها عقول العباد، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] لكمال حكمته تعالى، وقد اقتضت حكمة الله أن يكون هذا الخلق على هذه الصفة، وينظر في هذه المسألة: «شفاء العليل»، و«الصواعق المرسلة»[1] كلاهما للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله سبحانه: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾؛ أي: ويعفو عن كثير من الذنوب بفضله ورحمته، وهذه الآية خاصة بالمؤمنين؛ لأن الكفار ليسوا بأهل لعفو الله.

---

(١) «شفاء العليل» (ص٢١٦)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (ص٢٣٨).

ثم خاطب المشركين لأنهم المقصودون ابتداء بالآيات، فالسورة مكيَّة، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: وما أنتم بقادرين على الامتناع ممَّا يريد اللهُ بكم من سوء، والباء في ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ لتأكيد نفي ما بعدها ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يتولاكم بالحفظ والرعاية ويتحمَّل عنكم العذاب ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ ينصركم بدفع العذاب عنكم، والفرق بين الوليِّ والنصير أن الوليَّ هو الذي يتولَّى أمور موليِّه ويسعى في منافعه، والنَّصِير هو الذي ينصُره بدفع عدوه وما يضر به.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أعظم آيات الله الكونيَّة: السماوات والأرض التي خلقها الله.

٢ ـ أن من آيات الله ما بثَّه في السماوات والأرض من كل دابة.

٣ ـ أن الله سيجمع ما بثَّه في السماوات والأرض.

٤ ـ إثبات قدرته تعالى على جمعهم إذا شاء أن يجمعهم.

٥ ـ إثبات المعاد وجمع العباد.

٦ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٧ ـ أن ما يصيب الناس من المصائب هو بسبب ما كسبوه من الأعمال السيئة.

٨ ـ الإرشاد إلى العود عند المصائب إلى لوم النفس، والرضا عن الله، والإيمان بحكمته.

٩ ـ إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

١٠ ـ الرد على الجبرية؛ لقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

١١ ـ أن الله يعفو عن كثير من ذنوب العباد.

١٢ ـ تحقير الكفار المغرورين بقوتهم.

١٣ ـ أن الله أشدُّ قوة منهم، فلا يعجزونه أن ينتقم منهم.

١٤ ـ أنهم ليس لهم وليٌّ ينقذهم إذا أرادهم الله بسوء، ولا نصير يدفع عنهم.

ثم ذكر تعالى دليلًا آخر على قدرته ورحمته؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ التنبيه على بعض الآيات الكونية، وهي التي من نعمه تعالى، ومنها: الجواري في البحر، وهي السفن، وأن الله تعالى هو المدبِّر لها في البحر؛ فإن شاء أجراها بما يرسل من الريح، وإن شاء لم يُجرها بإسكان الريح، وإن شاء أغرقها بكسب العباد، وأنه تعالى يعفو عن كثير من ذنوب العباد، وأن علمه ﷻ محيطٌ بالكافرين الذين يجادلون في آيات الله، وأنه لا مفر لهم مما يريد.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾؛ أي: ومن دلائل قدرته تعالى ورحمته وسلطانه العظيم ﴿ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: السُّفن الجارية في البحر، والجارية صفة كثر استعمالها مع السفينة، حتى أصبحت تُغني بلفظها عن الموصوف، فصارت دالة على الموصوف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، هذه السُّفن فوق سطح البحر ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ جمع عَلَم؛ أي: كالجبال الشامخة في عظمها وارتفاعها، فهذه السُّفن في هيئتها العظيمة، وفي تنقلها في البلاد آية مذكرة بالله ﷻ وتقدست أسماؤه، وهذه السُّفن تجري بواسطة هبوب الرياح، قال أبو حيان: «لما ذكر تعالى من دلائل وحدانيته أنواعًا، ذكر بعدها العالَم

الأكبر وهو السمٰوات والأرض، ثم العالَم الأصغر وهو الحيوان، ثم أتبعه بذكر المعاد، أتبعه بذكر السفن الجارية في البحر؛ لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء سائل شفَّاف يغوص فيه الثقيل، والسُّفن تشخص بالأجسام الثقيلة الكثيفة، ومع ذلك: جعل تعالى للماء قوة يحملها بها، ويمنع من الغوص، ثم جعل الرياح سببًا لسيرها، فإذا أراد أن ترسو أَسْكَن الريح، فلا تبرح عن مكانها»[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ﴾؛ أي: إن يَشَأ اللهُ الذي أجرى هذه السفن بإرسال الريح ﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: يقفها فلا يرسلها ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾؛ أي: السُّفن ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾؛ أي: فيَبقين ثوابت على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ هذه جملة معترضة فيها لفت الأذهان إلى موضع العبرة. المعنى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ما ذُكر من نعم السفن وأمر جريانها ﴿لَأَيَٰتٍ﴾؛ أي: لعلامات ظاهرة على قدرته تعالى ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾؛ أي: لكل ذي صبر على الشدائد، وعلى طاعة الله ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه تعالى، وفي ذكر الصَّبَّار والشَّكور إشارة إلى أن راكبي السُّفن ينبغي لهم عند الشدائد الصبر، وعند النَّعماء وبلوغ الأمل الشُّكر.

قوله سبحانه: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ معطوف على جواب الشرط وهو ﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: وإن يشأ اللهُ يهلك هذه السفن بالغرق بالريح العاصف ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾؛ أي: بما اقترف راكبوها من الإثم ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾؛ أي: وإن يشأ يعفُ عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنصب ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ هذه الجملة عطف على محذوف؛ أي: أهلَكهم الله لينتقم منهم، وليعلمَ الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل من هؤلاء وأمثالهم أنهم إذا نزلوا في

(١) البحر المحيط (٧/ ٥٢٠).

البحر وغشيتهم الرياح من كل جهة ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ أي: ما لهم من ملجأ يلجؤون إليه فرارًا من عذاب الله إذا نزل بهم.

وقرأ نافع وابن عامر من السبعة ويعقوب من العشرة ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بالرفع على أنه كلام مستأنف، ويجوز على هذه القراءة أن يكون الفاعل في ﴿يعلم﴾ ضميرًا يعود على مبتدأ مقدَّر؛ أي: وهو يعلم؛ أي: الله ﷻ، و﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ مفعول به، فيكون الكلام تهديدًا لهم بإثبات علم الله بهم، وأنه تعالى محيط بهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من آيات الله ونعمه: السُّفنَ الجواري في البحر.

٢ ـ أن آيات الله ونعمه شاملةٌ لما للبشر فيه تسبُّبٌ بالصناعة كالسُّفن؛ لأنه تصرف في بعض مخلوقات الله بتعليمه سبحانه؛ فإنه خالقُ السُّفن، والهادي لصناعتها، لذلك كانت من آياته تعالى الدالة على قدرته، ومن نعمه الدالة على رحمته.

٣ ـ أن السُّفن من آيات الله الظاهرة للعيان، ولذا شبَّهها الله بالجبال في قوله: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

٥ ـ أن من آيات الله: إجراء السُّفن بما يرسل من الريح.

٦ ـ أن جريان السُّفن وركودها بمشيئة الله، وهذا شامل للسُّفن التي تجري بالأسباب المعروفة وهي الريح، وبما يجري بالبخار وغيره كالسُّفن الحديثة.

٧ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٨ ـ أن الريح مخلوقة لله، مدبَّرة بأمره، إن شاء تعالى أرسلها، وإن شاء أسكنها.

٩ ـ أن المنتفعين بهذه الآيات هم أهل الصبر والشكر.

١٠ ـ فضل الصبر والشكر.

١١ ـ أن الله إذا شاء أغرق هذه الجواري بما اكتسب العباد من المعاصي، وهو قوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾.

١٢ ـ وجوب الحذر من المعاصي.

١٣ ـ إثبات الأسباب، وأن المعاصي سببُ العقوبة.

١٤ ـ أن ما يعفو الله عنه من ذنوب العباد كثيرٌ، وهو أكثر مما يُؤاخِذ به.

١٥ ـ إثبات صفة العفو لله تعالى، وسعة رحمته وكرمه تعالى.

١٦ ـ فيها شاهد للآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ غير أن العقوبة في هذه الآية خاصة بالإغراق، والأولى عامة في أنواع المصائب.

١٧ ـ علم الله بأعمال العباد وأحوالهم، وهذا على قراءة الرفع في ﴿يَعْلَمُ﴾.

١٨ ـ إثبات صفة العلم لله تعالى.

١٩ ـ تهديد المجادلين في آيات الله بذكر علم الله بهم.

٢٠ ـ تحريم الجدالِ في آيات الله، لا الجدالِ بآيات الله؛ فالجدال

في آيات الله تكذيب وعناد، والجدال بآيات الله احتجاج بها على المكذبين المعاندين؛ تأييدًا للحق، وردًّا للباطل.

٢١ ـ أن المجادلين في آيات الله لا مفر لهم من عذاب الله.

ولمَّا ذكر اللهُ دلائلَ توحيده، وكمالِ قدرته أردف ذلك بالتنفير عن الدنيا، وتحقير شأنها؛ لأنها قد تمنع من قبول الحق طلبًا للرياسة والجاه؛ **فقال سبحانه:**

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ بأنَّ كلَّ ما يؤتاه الناس من منافع الدنيا وزينتها متاعٌ زائل، وأن ما عند الله من الثواب خيرٌ من متاع الدنيا، وهو باق دائم، وأنه مُدَّخَرٌ للمؤمنين بالله، المتوكلين عليه، وأنَّ من صفات أولئك المؤمنين: المغفرة لمن أساء إليهم إذا غضبوا، وأنهم المستجيبون لربهم بطاعته فيما يأمرهم وينهاهم، ومن استجابتهم لربهم: إقامتُهم للصلاة، وهي أعظمُ حقوق الله عليهم في الإسلام، ومن استجابتهم لربهم: اتخاذُهم الشورى فيما بينهم منهجًا في جميع أمورهم، وأنهم ينفقون مما رزقهم الله في جميع وجوه الخير.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾، ﴿ما﴾ شرطية، و﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بيان لـ﴿ما﴾ الشرطية؛ لِما فيها من الإبهام، وقوله: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا جواب الشرط، فلذلك دخلت الفاء عليه، و﴿متاع﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو متاع، والآية خطاب لجميع الناس. المعنى: فما

أُعطيتم من شيء من النعيم في هذه الحياة من المال والبنين وغيرهما فهو متاع قليل زائل تتمتعون به زمانًا ثم يزول وينتهي بانتهاء حياة الإنسان، فما أجدر أن يُعرض عنه الإنسان، ويعمل فيما فيه سعادته الأبدية، ولهذا قال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة من نعيم الجنة ﴿خَيۡرٌ﴾ من حطام الدنيا من كل وجه، وأكثر نفعًا ﴿وَأَبۡقَىٰ﴾ لأنه ثواب لا ينقطع.

ثم بيَّن سبحانه أن هذه الخيرية تكون لمن اتصف بصفات وجمع بينها، وهي: الإيمان والتوكل على الرب تعالى، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والعفو عن المسيء، والاستجابة لله تعالى، وإقام الصلاة، والإنفاق من رزق الله، وابتدأ بالإيمان؛ لأنه الأصل وما بعده مفرَّع عليه، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: آمنوا بالله ورسله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يعتمدون عليه في جميع شؤونهم مع فعل الأسباب ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ هذا عطف على الذين آمنوا؛ أي: ومن أوصافهم: أنهم ﴿يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾؛ أي: يبتعدون عن كبائر الذنوب، والكبيرة كل عمل رُتِّب عليه وعيدٌ خاصٌ، كلعن الوالدين، والسرقة، وشرب الخمر. ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ وهي ما فحُش وعظُم قبحُه من المعاصي، وهذا من عطف الخاص على العام؛ لأن الفواحش من جملة كبائر الإثم؛ فإفرادها بالذكر فيه ذمٌّ لها، وتنفير منها ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾، ﴿مَا﴾ بعد ﴿وَإِذَا﴾ زائدة لتوكيد المعنى؛ أي: إذا غضبوا على من أساء إليهم فإنهم يعفون عنه ويصفحون.

قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾؛ أي: استجابوا لربهم فيما دعاهم إليه من التوحيد والطاعة ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: أقاموا الصلاة على أكمل وجه، بمراعاة أركانها وشروطها وسننها ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي: شأنهم التشاور فيما بينهم في جميع أمورهم، والشُّورى مصدر شاوَر،

مثل: البُشرى والفُتيا، والإخبار عن الأمر بأنه شورى من باب الإخبار بالمصدر للمبالغة؛ أي: بجعل أمرهم نفسَ الشورى، ومدْحُهم بذلك يدل على أهمية الشورى، ولا ريب فالشورى من أصول الحكم في الإسلام، قال الحسن: «ما تشاور قوم إلا هُدوا لأرشد أمرهم»[1].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: ومما أعطاهم الله من المال وغيره ينفقون في وجوه الخير على سبيل الدوام؛ صدقةً وصلةً وتيسيرًا على معسر.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن جميع ما يُعطاه الناس من حظوظ الدنيا متاعٌ قليلٌ زائلٌ، ففيه:

٢ ـ التزهيد في الدنيا.

٣ ـ توبيخ الكفار بتحقير ما أوتوه من الدنيا.

٤ ـ أن ما عند الله من الثواب والأجور مُدَّخَر للمؤمنين، وهو خير وأبقى مما فاتهم من حظوظ الدنيا.

٥ ـ جواز المفاضلة بين الأمور المتباينة كالدنيا والآخرة، وثواب الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

٦ ـ فضل ثواب المؤمنين وشرفه؛ لقوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

٧ ـ إثبات عِندية الوعد.

٨ ـ أن الإيمان أصل لجميع خصال الخير.

٩ ـ أن من صفات المؤمنين: التوكل على الله في كلِّ المطالب.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٨٠٠)، وابن جرير (٦/ ١٩٠).

١٠ ـ أن من صفاتهم: اجتناب كبائر الإثم واجتناب الفواحش.

١١ ـ أن من كبائر الذنوب: الفواحش، فتكون من أكبر الكبائر، فعطف الفواحش على الكبائر في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ من عطف الخاص على العام، وقد ورد عطف الإثم على الفواحش في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وهذا من عطف العام على الخاص.

١٢ ـ الترغيب في هذه الخصال التي أثنى اللهُ بها على المؤمنين، وهي: التوكل على الله، والمغفرة عند الغضب، والاستجابة لدعوة الله، وإقام الصلاة، والتشاور في الأمور، والإنفاق من رزق الله.

١٣ ـ تعظيم أمر الشورى بين المؤمنين في أمورهم.

١٤ ـ قصر الشورى على من يهمه الأمر، وكتمانه عن غيرهم؛ لقوله: ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

* * *

ثم ذكر من صفات المؤمنين؛ **فقال تعالى**:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الثناءَ على المؤمنين بالانتصار ممَّن بغَى عليهم، وأن انتصارهم دائرٌ بين العدل والعفو، وأنهم في انتصارهم لا يَظلِمون، وأن المظلوم إذا انتصر فلا سبيل عليه، وإنما السبيل بالحجة أو العقوبة على الظالمين، وتضمَّنت الثناءَ على من صبر على الإساءة، وغفر لمن أساء إليه، وأن ذلك لا يكون إلا من ذوي العزم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ وهو الظلم والعدوان بغير حق ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾؛ أي: ينتصرون لأنفسهم بمقابلة السيئة بمثلها فحسب، وهذا دليل على قوتهم وشجاعتهم، وأنهم لا يرضون بالذل، وإذا فعلوا ذلك كان لهم هيبة فلا يعتدى عليهم، وليس بين هذه الآية وما سبق من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ تعارضٌ؛ لأنهم إما أن يكونوا صنفين؛ صنف يعفو، وصنف ينتصر من الباغي، أو يقال: إن الباغي إذا لم يكن مستعلنًا بالفجور والظلم، ولم يُعرف بالعدوان وكان بغيه زلة فالعفو عنه أولى؛ لعموم النصوص الواردة بالعفو؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَن

﴿تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقوله: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قوله سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذه الجملة معترضة بين الثناء على مَن انتصر مِن الباغي، وبين أنه لا سبيل على المنتصر في ذلك الانتصار.

قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾؛ أي: وجزاء سيئةِ المسيءِ عقوبةٌ مماثلةٌ، وتسمية العقوبة سيئةً مشاكلةٌ، وفيه إشارة إلى تحري العدل، وتجنب الزيادة في الاقتصاص، مع أن العفو أفضل، ولهذا قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا﴾ عمَّن أساء إليه ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ ما بينه وبين من يعاديه بالإغضاء عمَّا صدر منه، لا سيما إذا كان في العفو مصلحة ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: فثواب عفوه على الله، ولا يعلم هذا الثواب إلا هو ﷻ، ولهذا عبَّر بـ﴿أجر﴾، وأتى بـ﴿عَلَى﴾ دلالة على عظم الموعود كمًّا وكيفًا، وقال ﷺ: **«وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا»**[(١)].

ولما رغَّب في العفو مع الإصلاح حذَّر من الظلم في الانتصار، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الذين يعتدون على الناس والمتجاوزين في الانتقام، ومفهوم الآية أنه يحب العدل وأهله.

ثم بيَّن تعالى أن المنتصر من الباغي الظالم غيرُ مَلُوم ولا مذموم، ولا سبيل عليه باعتراض ولا عقوبة؛ لأنه غير ظالم بهذا الانتصار، وإنما يستحق اللوم والعقاب من يظلم الناس، فقال سبحانه: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ اللام في ﴿لَمَنِ﴾ للابتداء، و﴿مَن﴾ اسم شرط جازم، و﴿ٱنتَصَرَ﴾ فعل الشرط ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ جواب

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة (٢٥٨٨).

الشرط، وقوله: ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول. المعنى: ومن اقتصَّ من ظالمه بعد ما ظُلم دون عدوان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: المنتصرون المقتصُّون ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾؛ أي: لا طريق عليهم للمؤاخذة واللوم؛ أي: لا حرج عليهم؛ لأنهم فعلوا ما هو مباح لهم، و﴿مِّن﴾ للنصِّ على عموم النفي وشموله؛ أي: لا سبيل عليهم البتة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾؛ أي: إنما المؤاخذة واللَّوم ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: يعتدون عليهم، أو يبالغون في الانتقام منهم ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: يطغون في الأرض ويفسدون فيها، وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صفة كاشفة تفيد الذمَّ، فكلُّ بغي في الأرض فهو بغير حق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الظالمون الباغون البُعداء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلمٌ شديدُ الإيلام بسبب ظلمهم وعدوانهم ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ اللام للابتداء كما سبق في نظيرتها في قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ﴾، و﴿مَن﴾ اسم شرط جازم، ﴿صَبَرَ﴾ فعل الشرط، والجواب ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، وحذفت الفاء منه، وهو جائز في اللغة.

قوله سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾؛ أي: على الظلم لأجل الله تعالى ﴿وَغَفَرَ﴾؛ أي: وستر المظلمة، وتجاوز عن ظالمه من غير شكوى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: من الأمور المعزومة؛ أي: المرغَّب فيها، فـ﴿عَزْمِ﴾ مصدر مراد به المفعول، وإضافته إلى ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن مِن عزة المؤمن: الانتصارَ ممن بغَى عليه.

٢ ـ أن انتصار المؤمن ممن بغَى عليه لا يخرج عن المجازاة بالمثل وهو عدل، أو العفو وهو فضل.

٣ ـ أن العفو مع الإصلاح أفضلُ من المجازاة بالمثل.

٤ ـ أن العفو إنما يُمدح مع الإصلاح لا بدونه.

٥ ـ الترغيب في العفو والإصلاح؛ لقوله: ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

٦ ـ أن الله يوجب على نفسه ما يشاء؛ لقوله: ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، ومن فضله: أن أوجب على نفسه أجر العافي.

٧ ـ إثبات المحبة، وأنه لا يحب الظالمين؛ بل يبغضهم.

٨ ـ التحذير من الظلم في الانتصار من الباغي.

٩ ـ أن مراتب الانتصار ثلاث: عدل وفضل وظلم، وهو الزيادة على مثل الإساءة.

١٠ ـ تهديد الظالمين بالعذاب الأليم، والتحذير من الظلم.

١١ ـ أنه لا سبيل على من انتصر ممَّن بغى عليه بلا ظلم له.

١٢ ـ أن الحجة قائمة على الظالم.

١٣ ـ أن الظالم مستحق للعقوبة.

١٤ ـ الترغيب في الصبر على الأذى، والمغفرة لمن أساء.

ولمَّا ذكر سبحانه بعض صفات المؤمنين، مُثنيًا بها عليهم، ذكر بعد ذلك أن الهدى والإضلال إليه تعالى، ثم ذكر بعض أحوال الكافرين في الآخرة؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ من الله تعالى بأن مَّن يُضِله تعالى ليس له وليٌّ من دون الله يهديه، ثم أخبر تعالى عن حال الظالمين إذا وُقفوا على النار بأنهم في غاية من الذُّل، ولهذا يتمنون الردَّ إلى الدنيا، وأن المؤمنين في ذلك اليوم يقولون: إن الخاسرين ـ حقًّا ـ هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم؛ لأنه لا خسران فوق خسران النفس والأهل، وأن الظالمين في عذاب دائم، وأنه لا وليَّ لهم ينصرهم فينقذهم من عذاب الله، ثم أكَّد تعالى سوء حال من يضله بأنه لا سبيل له إلى خير.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ومن يُضلِلْه الله عن طريق الهدى لِما علِمه الله من حقيقة حاله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾؛ أي: فليس له من وليٍّ يتولاه فيهديه سبيل الحق ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين، والرؤية هنا بصرية، والخطاب لغير معين؛ أي: وتراهم أيها

الرائي، وذكر الظالمين هنا إقامة للاسم الظاهر مقام الضمير العائد على من أضلهم الله؛ لوصفهم بالظلم أيضًا ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: حين يرون عذاب النار يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾؛ أي: يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحًا غير الذي كانوا يعملون، يقولون: هل من طريق إلى الدنيا فنرجعَ إليها؟! المَرَدُّ: مصدر ميمي، بمعنى الرجوع، وفي تمنيهم بـ﴿هَلْ﴾ إشارة إلى شدة التمني؛ حيث أبرزوا طلبهم في صورة السؤال الذي يتوقع له جواب، مع أنهم لو رُدُّا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ثم ذكر حالهم حين يُعرضون على النار، فقال سبحانه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾؛ أي: أيها الناظر إليهم ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على النار المدلول عليها بالعذاب ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ أي: خاضعين منكسرين في غاية من الذل والهوان، و﴿مِنَ﴾ سببية ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾؛ أي: يُسارقون النظرَ إلى النار؛ رُعبًا منها وفزعًا، كما يَنظر إلى السيف من قُدِّم ليُقتل؛ فإنه لا يستطيع أن يملأ عينه منه.

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ هذا دليل على أن المراد بالظالمين في الآية السابقة الكفار؛ أي: ويقول المؤمنون حين يشاهدون الكافرين على هذه الحال: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: الموصوفين بالخسران المبين ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذا خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: هم الذين خسروا أنفسهم بالخلود في النار، وخسروا أهليهم بما حيل بينهم، فلا يلتقون بهم حتى في النار، خلافًا للمؤمنين فإن الله يُلْحِق بهم الذرية، ولو كان عملهم دون عمل آبائهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

ثم قال تعالى تصديقًا لقول المؤمنين: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ أي: في عذاب دائم لا يزول ولا يخفَّف، و﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه وتأكيد.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وما كان لهؤلاء الكافرين نُصَراء وأعوان يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله، وإذا كان الأولياء غير قادرين على إنقاذهم وهم مجتمعون، فأحرى ألَّا ينصرهم الوليُّ الواحد ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾؛ أي: ومن يُضْلِله الله فما له من طريق إلى الخلاص من الضلال، ولا ما يترتب عليه من العذاب.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

٢ ـ أن من هداه الله فالله وليُّه.

٣ ـ أن من يضله الله فلا هادي له.

٤ ـ ضرورة الإنسان إلى هداية الله، واستحبابُ الدعاء بذلك.

٥ ـ الرد على القدرية في قولهم: إن العبد هو الذي يَضل ويهتدي بنفسه.

٦ ـ أن من أحوال الظالمين يوم القيامة: عرضَهم على النار ذليلين، ويتمنون الرجعة قائلين: هل إلى مردٍّ من سبيل.

٧ ـ أن المؤمنين يقولون في ذلك اليوم: إن الخاسرين هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

٨ ـ أن الكفار هم أخسر الناس؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم.

٩ ـ أن عذاب الظالمين يوم القيامة دائم لا ينقطع.

١٠ ـ أنهم ليس لهم وليٌّ ينصرهم وينقذهم من عذاب الله.

١١ ـ إطلاق اسم الظالم على الكافر.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

١٣ ـ أن من يُضِلُّه اللهُ فلا سبيل له إلى خير.

ولمَّا ذكر تعالى ما توعَّد به الظالمين من العذاب المقيم في يوم القيامة أمر عباده بالاستجابة له سبحانه؛ فقال سبحانه:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان أمرًا من الله للعباد بالاستجابة لربهم، وهي طاعته فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، ما داموا في وقت المهلة؛ أي: قبل يوم القيامة، وأنَّ ذلك اليوم لا يقدر أحدٌ على رده إذا أتى، وأنه لا ملجأ في ذلك اليوم يعصم من أهواله، وليس للظالمين حجَّةٌ يدفعون بها شرَّ ذلك اليوم عن أنفسهم، وبعد هذا التهديد يُسَلِّي اللهُ نبيّه ﷺ ويصبِّره على إعراض الكافرين بأنه ليس مسؤولًا عن إعراضهم، ولا مكلَّفا بهدايتهم، فما واجبه إلا البلاغ لرسالات ربه.

ثم ذكر تعالى حال الإنسان في السراء والضراء، فيفرح بطرًا وأشرًا إذا أذاقه الله من رحمته، وإن أصابته مصيبة بما كسبت يداه قنط من رحمة الله، وكفر بنعمته.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ الخطاب للكافرين؛ أي: سارعوا إلى إجابة ربكم خالقكم ومربيكم فيما يدعوكم إليه من عبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله ﷺ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة

العظيم الذي يقوم الناس فيه لربِّ العالمين ﴿لَا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: لا يردُّه الله بعدما حكم بإتيانه، ولا يقدر أحد على ردِّه ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ﴾؛ أي: ما لكم من مكان تلجؤون إليه في ذلك اليوم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾؛ أي: إنكار، فهو اسم مصدر؛ أي: لا تستطيعون الإنكار؛ أي: الجحود بعد شهادة الجوارح والملائكة والكتب، ولعل المقصود في الآية: الإنكار المنجي من العذاب، وإلا فقد أخبر اللهُ عنهم أنهم يقولون في ذلك اليوم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

قوله سبحانه: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة، وهو من تنويع الكلام، وفيه الإشارة إلى سقوطهم عن الخطاب بعد إعراضهم؛ أي: فإن أعرض المشركون عن الاستجابة ـ أيها الرسول ـ ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ﴾؛ أي: فما أرسلناك حفيظًا تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم بها، فلا تحزن عليهم، وهذا تأكيد للتسلية المتقدمة في أول السورة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [٦]، ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾؛ أي: ما عليك إلا تبليغ رسالة الله، وقد فعلت ذلك.

ثم ذكر اللهُ نوعًا آخر من قبيح أعمالهم، وهو فرحهم وبطَرهم عند الغنى، وقنوطهم عند المصيبة، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾؛ أي: في الدنيا من صحة ومال وغيرهما، ومهما عظُمت لذات الدنيا فهي ليست بشيء في مقابل نعيم الآخرة، فهي كالقطرة بالنسبة إلى البحر، ولهذا سمَّاها اللهُ ذوقًا، والمراد بالإنسان: الجنس المفيد للاستغراق، ولهذا جاء بضمير الجمع فقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ من مرض أو فقر ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ أي: بسبب معاصيهم ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾؛ أي: يجحدون ما سبق لهم من النعم، فقلوبهم مملوءة بحب الدنيا؛ يفرحون بإقبالها ويجزعون لإدبارها.

الفوائد والأحكام:

١ ـ وجوب الاستجابة لله بطاعته.

٢ ـ أن الاستجابة لله هي مقتضى ربوبيته بالمُلك والإنعام.

٣ ـ رحمة الله بعباده أن تَقدَّم إليهم بالإنذار.

٤ ـ الإرشاد إلى اغتنام وقت الإمهال في الحياة الدنيا.

٥ ـ ذمُّ التسويف في التوبة.

٦ ـ أن يوم القيامة إذا أتى فلا مَدفع له من الله، وما لا مَدفع له من الله فلا دافع له.

٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ١ ـ ٣].

٨ ـ أنه لا ملجأ للكافرين يوم القيامة يعتصمون به من عذاب الله.

٩ ـ أنه لا يسع الكافرين إنكارُ ما حلَّ بهم، ولا جحودُ ما اكتسبوه من أسباب العذاب.

١٠ ـ إثبات البعث والجزاء.

١١ ـ تسلية الله نبيَّه ﷺ من إعراض الكافرين.

١٢ ـ تسلية الدعاة، أسوة بالنبي ﷺ.

١٣ ـ أن النبي ﷺ ليس مسؤولًا عن أعمالهم، ولا مكلَّفا بجعلهم قابلين للحق.

١٤ ـ أنه ليس على النبي ﷺ من شأن الكافرين إلا تبليغُهم رسالة ربه.

١٥ ـ إثبات الرسالة ووجوب البلاغ على النبي ﷺ.

١٦ ـ أن الواجب على الرسول وأتباعه: البلاغُ بأيِّ وسيلة توصل إلى المقصود، ولا يترتب عليها محذور شرعي.

١٧ ـ وصف الإنسان في حالَيه: السراء والضراء.

١٨ ـ أنه في حال السراء يفرح الفرح المذموم، وفي الضراء يقنَط ويكفر بنعمة الله.

١٩ ـ ذم الفرح بالنعم على وجه الأشَر والبطَر.

٢٠ ـ أن ما يصيب الإنسان من شر فبما كسبت يداه.

٢١ ـ إثبات الأسباب، فالسيئات سبب للمصائب.

٢٢ ـ الردُّ على منكري الأسباب من الجبرية ونحوهم، الذي يجعلون الأسباب محض أمارات، لا فعل لها ولا تأثير، وأن لا تأثير إلا لمشيئة الله.

٢٣ ـ أن القنوط كفر بنعمة الله.

ولمَّا ذكر سبحانه في هذه السورة تدبيرَه لأمر العباد في الدنيا والآخرة خلقًا وأمرًا، وشرعًا وجزاءً، أتبع ذلك بذكر عموم ملكه لهذا الوجود من السماوات والأرض وما فيهن، وأنه تعالى المتفرد بالعطاء والمنع، **فقال سبحانه:**

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان الخبرَ من الله عن عموم مُلكه تعالى للسماوات والأرض ومن فيهن وما فيهن، وأنه تعالى يخلق ما يشاء من الأناسي وغيرهم؛ فيخلق لمن يشاء الذريَّة إناثًا فقط، أو ذكورًا فقط، أو من النوعين، ويجعل بعضَ الناس عقيمًا لا تكون له الذرية، وأن مَرَدَّ ذلك كله إلى كمال علمه تعالى وقدرته.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿لِّلَّهِ﴾؛ أي: له ـ وحده ـ تعالى ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ خلقًا ومُلكًا وتدبيرًا، فهو سبحانه مُوجد هذا الكون بعد العدم، وكلُّ ما فيه فهو مخلوق له تعالى، مربوب له، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ أي: يخلق الذي يشاؤه من أنواع الخلق على أيِّ صورة وصفة يشاء سبحانه، ومن ذلك: أنه يهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ ويخصُّه بهن ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ ويخصُّه بهم، قدَّم الإناث؛ لبيان أنه تعالى فاعل ما يشاء، لا ما يشاء الإنسان؛

فالآية سيقت لبيان عظمة ملكه تعالى، ونفاذ مشيئته، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ المراد: الأولاد الموهوبون؛ أي: يجعلهم صِنفين: ذكورًا وإناثًا ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾؛ أي: لا ولد له، ويُطلَق العقيم على الرجل والمرأة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾؛ أي: كامل العلم بخلقه وما يصلحهم ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: قدير على كل شيء، ويفعل كل شيء بمقتضى حكمته.

فدلَّت الآية على أن الناس من حيث حصول الذرية **أربعةُ أصناف**:

الأول: من رُزق إناثًا فحسب.

الثاني: من رُزق ذكورًا فحسب.

الثالث: من رُزق ذكورًا وإناثًا.

الرابع: العقيم الذي لا يولد له.

الفوائد والأحكام:

١ ـ عموم مُلك الله، فله الملك كلُّه، لا شريك له.

٢ ـ أنه تعالى هو الخالق لما يشاء.

٣ ـ أن الله يخلق ما يشاء من الذوات والصفات.

٤ ـ أنه الواهب للذرية.

٥ ـ أن مقتضى حكمته تنويعُ الذرية أنوثة وذكورًا.

٦ ـ أن الذرية نعمة يهبها الله لمن يشاء.

٧ ـ أن أمر الذكورة والأنوثة إلى الله، لا إلى مشيئة العبد واختياره.

٨ ـ إثبات المشيئة لله تعالى، وأن أفعاله كلَّها بمشيئته ﷻ.

٩ ـ في الآية شاهد لقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]، وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٠].

١٠ ـ أنه ينبغي لمن لم يُرزق ذكورًا أول الأمر ألا ييأس من حصول الذكر؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾.

١١ ـ أن من الناس من يكون عقيمًا بجعل الله له كذلك.

١٢ ـ أن العقم عيبٌ في الرجل، فيفسخ النكاح به.

١٣ ـ كمال قدرة الله على خلق الأنواع من شيء واحد.

١٤ ـ إثبات الجعل الكوني.

١٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: (العليم) و(القدير)، وما دلَّا عليه من صِفَتي العلم والقدرة لله تعالى.

١٦ ـ أن تدبير العالَم بالعطاء والمنع راجع إلى كمال علم الله وقدرته.



ثم ذكر اللهُ من دلائل قدرته وحكمته ما هو أظهر مما سلف، وهو الوحي الذي خصَّ اللهُ به أنبياءه وذكَر أنواعه، **فقال سبحانه:**

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيةُ الإخبارَ بأن من الممتنع على أحد من البشر أن يكلِّمه الله مواجهة ومباشرة؛ بل وحيًا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولًا إليه فيوحي إليه ما أمره الله به، وأن المقتضي لذلك: علو قدره سبحانه وحكمته، ولهذا أخبر عن نفسه أنه عليٌّ حكيم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾؛ أي: ما ينبغي لأحد من البشر، وهذا من الممتنع قدرًا ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ إلا على **أحد ثلاثة أوجه: أولها:** ﴿وَحْيًا﴾؛ أي: كلامًا وحيًا، وهو الإلهام في القلب، والرؤيا في المنام، فمن الإلهام في القلب: ما جاء في قوله ﷺ: «**إن الروح الأمين قد ألقى في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فأجملوا في الطلب**»[١].

ومن الرؤيا ما رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ

---

(١) رواه الشافعي في «الرسالة» (٩٣) ومن طريقه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٤٩٩)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق «الرسالة»، ويشهد له ما رواه الحاكم في «المستدرك» عن ابن مسعود (٢/ ٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٦٩٤) عن أبي أمامة بنحوه.

ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**أُنزلت عليَّ آنفًا سورة**» **فقرأ: بسم الله الرحمٰن الرحيم** ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، ثم قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**» فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه نهرٌ وعدنيه ربي** ﷻ، **عليه خير كثير**» الحديث[1].

وأصل الوحي في **اللغة**: الإعلام بسرعة وخفاء، وفعله ثلاثي ورباعي، يقال: أوحَى إليه وله، ووَحَى إليه وله، ولم يرد في القرآن إلا الرباعي، وهي اللغة السائرة[2].

والوحي في **اصطلاح الشرع**: ما يُلقى إلى النبي من عند الله ﷻ، وغلَب هذا الاستعمال الشرعي للَّفظ في النصوص وفي كلام العلماء.

الوجه الثاني: ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾؛ أي: يسمع كلام الله من غير أن يرى النبيُّ ربه عند تكليمه له؛ لعجز البشر في تكوينهم الخَلقي أن يثبتوا لرؤية الله، كما وقع لموسى عليه السلام؛ فإنه سمع كلام الله دون أن يراه، وذلك عند طُور سيناء.

الوجه الثالث: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾؛ أي: من الملائكة وهو جبريل عليه السلام، فإنه الموكَّل بالوحي، وهو السفير بين الله وأنبيائه عليهم السلام، فالله يرسل الملَك، والرسول البشري في هذه الحال يسمع صوت الملَك وقد يرى صورته، وقد يتمثَّل له الملَك بصورة بشر ﴿فَيُوحِىَ﴾؛ أي: فيلقي الملَكُ الوحيَ إلى الرسول البشري ﴿بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: بإذن الله الكوني والشرعي ما يشاء الله من الوحي ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿عَلِىٌّ﴾

---

(١) مسلم (٤٠٠).

(٢) قال ابن خالَويه في «شرح الفصيح»: «قد أجمع الناس جميعًا أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن، لا خلاف في ذلك» «المزهر» للسيوطي (١/ ٢٣١).

بكل معاني العلو، ذاتًا وقدرًا وقهرًا ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه وقدَره وشرعه، ومناسبة ذكر هذين الاسمين هنا: أن المقتضي لِما ذكر من امتناع التكليم كِفاحًا هو: علوُّ قدره تعالى، وكمال حكمته.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من الممتنع على أحد من البشر: تكليم الله له إلا على وجه من الوجوه المذكورة في الآية، إما وحيًا، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولًا.

٢ ـ أن تكليم الله لمن يشاء ثلاثةُ أنواع؛ على ما مر في التفسير.

٣ ـ أن أعلى هذه الأنواع: تكليم من يشاء الله بلا واسطة من وراء حجاب، وهو الذي حصل لموسى ولنبيِّنا محمد ﷺ حين عرُج به.

٤ ـ إثبات كلام الله تعالى.

٥ ـ تكليمه تعالى لمن يشاء.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

٧ ـ أن الله لم يكلم أحدًا من البشر كفاحًا إلا والد جابر رضي الله عنهما في عالم الغيب.

٨ ـ أن المقتضي لذلك الامتناع: علوُّ قدره تعالى وكمالُ حكمته.

٩ ـ أنه لم تجتمع الرؤية والتكليم لأحد من البشر، كما يدلُّ له قوله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] إلا لنبيِّنا ﷺ على قول من يقول: إنه رأى ربه.

١٠ ـ إثبات الإذن الكوني الشرعي.

١١ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: (العليُّ) و(الحكيم)، وما دلَّا عليه من صِفَتي العلو والحكمة لله تعالى.

ولمَّا بيَّن تعالى كيفيةَ أقسام الوحي إلى الأنبياء ﷺ، **قال سبحانه** مخاطبا نبيَّنا محمدًا ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان الخبرَ أن من جملة وحيه تعالى: ما أوحاه إلى نبيِّه محمد ﷺ من الكتاب والحكمة، وأن ذلك مصدر حياة وهداية، ولذا سمَّاه روحًا ونورًا، ممتنًّا على نبيِّه ﷺ بذلك؛ إذ كان ﷺ قبل أن يوحَى إليه لا يدري شيئًا مما تضمَّنه القرآن، ولا يعرف قبل الوحي الإيمان الذي حصل له بالوحي والنبوة، وأنه تعالى هو الذي يهدي بالقرآن من يشاء هداية التوفيق وقبول الحق، وهداية البيان، وكذلك الرسول ﷺ يهدي هداية البيان إلى الصراط المستقيم، وهو دين الله الذي شرعه لعباده، ولهذا قال تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ الذي تنتهي إليه ـ وحده ـ جميع الأمور، خلقًا وتدبيرًا، عطاءً ومنعًا، بداية ونهاية.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ومثلَ ما أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك ـ أيها الرسول ـ ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ وهو القرآن العظيم، وسمَّاه الله روحًا؛ لأن القلوب لا تحيا إلا به، كما تحيا

الأجساد بالأرواح ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾؛ أي: من عندنا وما نأمر به ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾؛ أي: ما كنت تعرف ـ أيها الرسول ـ قبل الإيحاء إليك ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ أي: ما القرآن ولا غيره من الكتب السابقة ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾؛ أي: ولا تعرف شرائع الإيمان، مما لا طريق إلى العلم به إلا الوحي، وتكرار ﴿لا﴾ تأكيد لنفي درايته إياه، وبيان أنه يشمل الأمرين معًا، وكلًّا منهما على انفراده.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ هذا استدراك من المفهوم مما قبله، وهو كون القرآن مهتديًا به جميع الناس. المعنى: ما جعلنا القرآن نورًا نهدي به جميع الناس، ولكن جعلناه نورًا ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾؛ أي: نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا ﴿وَإِنَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿لَتَهۡدِيٓ﴾؛ أي: تَدلُّ وترشد ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ أي: إلى طريق قويم، وهو دين الإسلام، ثم فسَّر هذا الطريق بقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هذا الطريق هو دين الله، وأضافه اللهُ إلى نفسه؛ تشريفًا للصراط، ولأنه الذي شرعه ويوصل إليه تعالى ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ أي: له تعالى ما في السماوات والأرض خَلْقًا وملكًا وتصرفًا، ونبَّه بملكه السمٰوات والأرض على أن مَنْ خلقها هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ﴿أَلَآ﴾ حرف تأكيد وتنبيه على ما بعده ﴿إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ أي: إلى الله ـ وحده ـ تَصِير أمورُ الخلائق في الدنيا والآخرة، فيجازي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ففي الآية وعد ووعيد.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن القرآن وحيٌ.

٢ ـ أنَّ من أسماء الوحي: الروح، وأعلى ذلك ما يوحيه تعالى من أمره الشرعي.

٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥].

٤ ـ أن النبي ﷺ قبل أن يوحَى إليه لا يدري شيئًا من علم الكتاب، ولا من الإيمان، فعلَّمه الله بما أوحَى إليه.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أي: جاهلًا فعلَّمك، وقوله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

٦ ـ امتنان الله على نبيِّه ﷺ بالوحي إليه.

٧ ـ أن النبي ﷺ قبل بعثته لم يكن متعبِّدًا بشرع.

٨ ـ تسمية القرآن نورًا، وهو كثير في القرآن.

٩ ـ إثبات الجَعْل الشرعي؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾.

١٠ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على التعظيم في قوله: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ و﴿جَعَلْنَٰهُ﴾.

١١ ـ أن الله يهدي بالقرآن من يشاء، وهذه هي الهداية الخاصة، ولا يقدر عليها إلا الله، وأول من هداه به الرسول ﷺ.

١٢ ـ وصف الرسول ﷺ بأنه يهدي إلى الصراط، وهي الهداية العامة، هداية الدلالة والإرشاد.

١٣ ـ الفرق بين الهدايتين المضافة إلى الله، والمضافة إلى الرسول ﷺ في هذه الآية، فشملت الآية ذكر الهدايتين.

١٤ ـ أن القرآن سببٌ للهدى؛ لقوله: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ﴾، فإضافة الهدى إلى القرآن في مثل قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ [الإسراء: ٩] من إضافة الشيء إلى سببه.

١٥ ـ إثبات المشيئة لله ﷻ، وأن الهدى والإضلال بمشيئته؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

١٦ ـ الرد على المعتزلة.

١٧ ـ أن الصِّراط يضاف إلى الله؛ لأنه دينُه الذي شرعه، ويضاف إلى سالكيه كما جاء في سورة الفاتحة.

١٨ ـ تعظيم الدين الذي يدعو إليه الرسول ﷺ؛ لأن الله سمَّاه صِراطًا، وأضافه إلى نفسه تعالى.

١٩ ـ عموم ملك الله لما في السماوات وما في الأرض.

٢٠ ـ تفرُّده تعالى بعموم المُلك.

٢١ ـ أن جميع الأمور تنتهي إليه ﷻ خلقًا وتدبيرًا وحُكمًا، في كل أنواع الحكم الكوني والشرعي والجزائي.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٢٣ ـ مناسبة آخر هذه السورة لمطلعها، **وذلك من وجوه:**

١ ـ ذكر اسم الله تعالى ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾.

٢ ـ ذكر الوحي.

٣ ـ ذكر الهُدَى إلى الصراط ومنه: الإنذار، قال تعالى في أول السورة: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وفي آخرها: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾.

٤ ـ ذكر مشيئة الله في الهُدَى والإضلال، ففي أول السورة: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، وفي آخرها: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

٥ ـ ذكر مُلكه تعالى لما في السماوات وما في الأرض؛ ففي أولها: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤]، وفي آخرها: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.





سورة الزخرف

سورة الزخرف مكيَّة، وهي مفتتحة بحرفين من الحروف المقطَّعة: الحاء والميم، فهي من آل حم، وهي الرابعة منها، وعدد آياتها تسع وثمانون، ومَدارها على تقرير أصول التوحيد الثلاثة: الألوهية والنبوة والبعث، وكل آياتها راجعٌ إلى هذه الأصول، ويدخل في ذلك ما في السورة من بيان منزلة القرآن، ومن ذلك: فاتحة السورة: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، والحق هو القرآن.

وأما توحيد الربوبية: ففي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد العبادة، ويدل له قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، وقول الله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، وقوله عن المسيح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وأما النبوة: فقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا

عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [٦٣].

وأما البعث والجزاء: ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وتضمَّنت الآياتُ من (١) إلى (٨) التنويه بشأن القرآن، **وذلك من وجوه:**

١ ـ إقسام الله به.

٢ ـ وصفه بالبيان.

٣ ـ وصفه بالعربية.

٤ ـ كونه في أم الكتاب.

٥ ـ وصفه بالعلو والحكمة.

ثم أخبر تعالى بطريق الاستفهام الإنكاري أنه لا يترك تذكيرهم لإشراكهم في الكفر، ثم أكَّد ذلك بالإخبار عن كثرة مَن أرسل من الأنبياء والمرسلين، وأن أقوامهم كذبوهم واستهزؤوا بما أخبروا به من عذاب الله، وأن الله أهلكهم، وحاق بهم عذابُ الله الذي كانوا يستهزئون به، وكانوا أشد بطشًا وقوة من قريش ومَن حولهم، وأنه قد سبق الإعلام بأنه قد مضى الإخبار بأحوالهم؛ أي: في القرآن، كما في سورة الأعراف وهود والشعراء وغيرها.

وتضمَّنت الآياتُ من (٩) إلى (١٤) الإخبارَ عن المشركين في

إقرارهم بتوحيد الربوبية للاحتجاج عليهم في إنكارهم توحيد الإلٰهية، ثم الاستطراد بذكر دلائل ربوبيته تعالى من تمهيد الأرض للعباد، وجَعْل السُّبل فيها، وإنزال المطر، وإحياء الأرض دليلًا على البعث، ومن دلائل ربوبيته: خَلْق أصناف المخلوقات، وخَلْق المراكب للناس من الفلك والأنعام؛ ليتمتع العبادُ بذلك، ويُسبِّحوا ربهم، ويذكروا نعمه، ويذكروا الرجوع إليه.

وتضمَّنت الآياتُ من (١٥) إلى (٢٢) ذمَّ المشركين بذكر افتراءاتهم على الله كنسبة الولد إليه ﷻ، وحكمهم بأن الملائكة بناته، وتوبيخهم على ذلك، وبيان أنه لا مستند لهم في هذا الافتراء، لا من حس ولا من عقل ولا شرع، فما هو إلا الخرص والتقليد لآبائهم.

وتضمَّنت الآياتُ من (٢٣) إلى (٣٠) الإخبار عن أن تقليد المشركين لآبائهم في الشرك قد تتابع عليه أعداء الرسل، مع ذكر الرد عليهم، وإصرارهم على الكفر بما جاءتهم به الرسل، وانتقام الله منهم، ثم يخص بالذكر نبيَّه وخليله إبراهيم عليه السلام، ويذكر دعوته لأبيه وقومه، وبراءته من معبوداتهم، وأنه تعالى جعل هذه البراءة باقية في عقب إبراهيم؛ ليرجع الناس إليها ويتركوا الشرك، ثم أخبر تعالى أنه متَّع هؤلاء المشركين وآباءهم مِن قريش ومَن قبلهم؛ أي: أملى لهم، حتى جاءهم الحقُّ من عند الله، وجاء الرسول المبين، وهو محمد ﷺ، فردُّوا الحق وكذَّبوا الرسول، وقالوا للحق: هذا سحر، وكفروا به.

وتضمَّنت الآياتُ من (٣١) إلى (٣٥) إخبارَ الله عن تعنُّت المشركين، وتحكُّمهم عنادًا وبغيًا باقتراح أن ينزَّل القرآنُ على رجل من عظمائهم حسب مقاييسهم، وإنكار الله ذلك عليهم بأن قولهم منازعة لله فيما هو من خصائصه، وهو قَسْم رحمة الله، وهو ﷻ قاسم الأرزاق بين

العباد، وقاسم رحمته من النبوة وغيرها، وأن من آثار قَسْم الأرزاق: رفعَ العباد بعضِهم على بعض درجات، وحكمته في ذلك، وأن رحمة الله من شاء بالعلم والإيمان واصطفاءه بالنبوة خيرٌ مما يجمع الناس ويتنافسون فيه من أعراض الدنيا، ثم أخبر عن حكمته أنه لم يجعل الكفر مناطًا لنيل متاع الدنيا ولذاتها، ثم بيَّن تعالى أنَّ كل ما يؤتاه الناس من أعراض الدنيا متاع زائل، ووقته قصير، وأما الخير في الآخرة ولذاتها فمُدَّخَرة عند الله للمتقين.

وتضمَّنت الآياتُ من (٣٦) إلى (٤٥) جملة من الأخبار المختلفة المقاصد والمعاني، **فمن ذلك**:

١ ـ تهديد من أعرض عن ذكر الله بأن يقيِّض اللهُ له شيطانًا لا يفارقه؛ عقوبة على إعراضه، وفي يوم القيامة يتبرأ كلٌّ منهما من الآخر.

٢ ـ الإخبار بأن اشتراك الظالمين في العذاب لا يهوِّنه عليهم.

٣ ـ إخبار الله نبيَّه ﷺ أن هداية الكفار ليست في مُستطاعه.

٤ ـ إخباره تعالى بأنه لو ذهب بنبيِّه ﷺ؛ أي: مات؛ فإنه تعالى سينتقم من أعدائه، وأنه تعالى قادر على أن يريه ذلك في حياته، ثم أمر اللهُ نبيَّه بالتمسك بما جاءه من ربه من الهدى؛ فإنه على صراط مستقيم، وأنَّ ما جاءه من الوحي تذكيرٌ له ولقومه، وقيل: شرف، ويأمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يسألَ الأممَ الذين جاءتهم الرسل كأهل الكتاب: هل أحد من الرسل أمر بعبادة غير الله؟ كلَّا، لم يَشْرع اللهُ الشركَ في شريعة من شرائع رسله.

وتضمَّنت الآياتُ من (٤٦) إلى (٥٦) الإخبارَ بإرسال الله موسى إلى فرعون وقومه بالآيات، وما كان منهم من التكذيب والعناد، وغرور فرعون بما أوتي من الملك والأبَّهة، واستخفافه بقومه حتى أطاعوه

وعبدوه وعصوا رسل الله، وانتقم الله منهم وأغرقهم، وجعلهم عبرة لمن جاء بعدهم.

وتضمَّنت الآياتُ من (٥٧) إلى (٦٥) الإخبار عن عيسى ابن مريم ﷺ، وضرب المشركين المثل به في معارضة قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وبيان حقيقته ﷺ، ردًّا على النصارى، وقد أرسله اللهُ إلى بني إسرائيل بالحكمة وبالبينات، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فمنهم من آمن ومن كفر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

وتضمَّنت الآياتُ من (٦٦) إلى (٧٨) الإخبارَ عن مجيء الساعة، وانقسام الناس بين مؤمنين ومجرمين وذكر جزاء الفريقين.

وتضمَّنت الآياتُ من (٧٩) إلى نهاية السورة تهديد المشركين وتوبيخهم ومحاجتهم في شأن الله وتوحيده في ربوبيته وإلٰهيته، ثم أمر اللهُ نبيَّه ﷺ بالصفح عنهم، مع تهديده بما ينتظرونه من عذاب الله، الذي سيعلمونه إذا نزل بهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ التنويهَ بشأن القرآن، ومنزلتَه عند الله، وتنبيهَ العباد على عظمته؛ ليعظموه بالإيمان به والعمل به.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿حمٓ﴾ هذان حرفان من الحروف المقطَّعة التي افتُتحت بها بعضُ السور، وتقدَّم الكلامُ فيها، ومن أحسن ما قيل: إنها إشارة إلى إعجاز القرآن، وإقامة للحجة على المعاندين الذين قالوا عن القرآن: إنه كلام بشر؛ فالحروف المقطَّعة تشير إلى أن هذا القرآن الذي أعجز العرب منظوم من هذه الحروف التي يعرفونها، ويتألف منها كلامُهم، ومع ذلك لا يقدرون أن يأتوا بسورة من مثله، وهم أهل البيان والبلاغة، فإذا ثبت عجزهم تبيَّن لهم أنه ليس كلام بشر كما يدَّعون، وقامت الحجة به عليهم، ولهذا جاءت هذه الحروف المقطَّعة في أوائل سور كثيرة، ثم تلاها ذكرُ القرآن وتنزيلُه، وذِكرُ كونه عربيًّا.

قوله سبحانه: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ هذا قَسَم من الله بالقرآن البيِّن الواضح لفظًا ومعنًى، الظاهر الإعجاز، المبيِّن للعقائد والأحكام والشرائع، فقوله: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ اسم فاعل من أبان اللازم، المرادف لبَان بمعنى ظَهَر، وهمزته زائدة، وهو أيضًا بمعنى أبان المتعدي؛ أي: أظهَر،

فتكون الهمزة للتعدية، وعلى هذا فـ﴿مُبِين﴾ بمعنى بَيِّن ومُبَيِّن. وإقسام الله بالقرآن دليل على شرفه، وعلو شأنه عنده تعالى، ولا ريب؛ فهو كلام الله ﷻ.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ جواب القسم؛ أي: صيَّرناه بلغة العرب؛ لأن كلَّ نبيٍّ يكون كتابه بلسان قومه، وجعل الله القرآن بلغة العرب؛ لأنها أشرف اللغات، وأوسعها دلالة على المعاني، وأحسنها مخارج حروف ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لعلكم تفهمون معانيه وتتدبرونه وتدركون إعجازه، وأنه خارج عن طوق البشر، ولو كان أعجميًّا لما فهموه، وهذا القَسَم من بدائع الكلام؛ لِما فيه من التناسُب بين المقسَم به والمقسم عليه، وأنهما من واد واحد، فالله يقسم بالقرآن على أنه جعله قرآنًا عربيًّا، ففيه إثبات عظمته بعظمته؛ فهذا القَسَم منبه على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به، وفيه شرفُ القرآن العظيم وعزَّته بأبلغ وجه وألطفه.

ولا حجة للمعتزلة في الآية على أن القرآن مخلوق؛ فإنهم قالوا: إنَّ ﴿جَعل﴾ بمعنى خلق، والصحيح أن ﴿جَعَل﴾ في الآية بمعنى صيَّر، بدليل أنه نصب مفعولين، المفعول الأول هو الضمير الهاء في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ والمفعول الثاني ﴿قُرْءَٰنًا﴾، و﴿جَعل﴾ بمعنى خلق ينصب مفعولًا واحدًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: اللوح المحفوظ؛ فإنه أمُّ الكتب السماوية؛ أي: أصلُها؛ لأنها كلَّها منقولة منه، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد به الجنس ﴿لَدَيْنَا﴾؛ أي: عندنا ﴿لَعَلِىٌّ﴾؛ أي: رفيع الشأن، عظيم المنزلة؛ لما تضمَّنه من الأخبار الصادقة، والعقائد الصحيحة، والشرائع المستقيمة، ولِما فيه من

الإعجاز، ولأنه المهيمن على ما سبقه من الكتب، فيُثبت اللهُ فيه ما شاء منها، وينسخ منها ما شاء اللهُ نسخَه.

وقوله سبحانه: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ هذا خبر ﴿إِنَّ﴾ لوجود اللام، و﴿فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ و﴿لَدَيْنَا﴾ حالان مما بعدهما؛ لأنهما وصفان في الأصل، فلما قُدِّما عليه صارا حالين، وأصل الكلام: وإنه لعليٌّ حكيم في أم الكتاب لدينا ﴿حَكِيمٌ﴾؛ أي: ذو حكمة بالغة، ومُحكَم النظم، فهو في أعلى درجات البلاغة، لا اختلاف فيه ولا تناقض.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن هذه السورة مكيَّة؛ لافتتاحها ببعض الحروف المقطعة.

٢ ـ الإشارة إلى إعجاز القرآن؛ لافتتاح السورة ببعض الحروف المقطعة.

٣ ـ إقسام الله بالقرآن، تارة باسم الكتاب، وتارة باسم القرآن.

٤ ـ صحة القَسَم من الصادق المعلوم صدقُه.

٥ ـ أن من أسماء كلام الله المنزل على محمد ﷺ: الكتاب والقرآن.

٦ ـ أن الكتاب العزيز بيِّن الآيات، ومبيِّنٌ للحق والباطل، وما اختلف فيه الناس من ذلك.

٧ ـ ذكر الله نفسه بضمير الجمع الدال على التعظيم؛ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾.

٨ ـ الحكمة من جعل القرآن بلسان عربي.

٩ ـ إثبات الجعل الشرعي.

١٠ ـ أن المقصود الأعظم من إنزال القرآن وجعلِه عربيًّا: فهمُ معانيه ومقاصده.

١١ ـ فضل العرب واللسان العربي.

١٢ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٣ ـ التنويه بشأن القرآن وشرفه عند الله ﷻ.

١٤ ـ أن عقل القرآن يكون بفهمه والعمل به.

١٥ ـ فضيلة العقل على سائر قوى الإنسان.

١٦ ـ أن القرآن كله يمكن فهمه؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، **ففي ذلك**: الرد على أهل التفويض الذين يقولون: إن المتشابه من القرآن ما لا يعلم معناه إلا الله، ويجعلون من ذلك نصوص الصفات.

١٧ ـ أن القرآن مثبت في أم الكتاب، وهو اللوح المحفوظ.

١٨ ـ إثبات أمِّ الكتاب، وهو اللوح والمحفوظ.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

٢٠ ـ أن أمَّ الكتاب عند الله.

٢١ ـ إثبات عِندية المكان لله تعالى؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: ٤].

٢٣ ـ علوُّ شأن القرآن، وعلوُّ مكانه، وعلوُّ من تمسَّك به.

٢٤ ـ تضمُّن القرآن للحُكم والحِكمة.

ولمَّا نوَّه اللهُ بكتابه العظيم، الذي هو أعظم مذكِّر بالله، وكان القوم معرضين عن الذكرى؛ **قال تعالى:**

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ إنكارًا من الله على المشركين المكذبين استعظامهم أن يأتيهم رسول، وبيَّن تعالى أن سُنَّته أن يرسل في كلِّ أمة رسولًا، فقد أرسل أنبياء كثيرين، فكذبهم أقوامُهم، واستهزؤوا بما أخبروا به من عذاب الله، فأهلك اللهُ المكذبين المستهزئين، وكانوا أشدَّ بطشًا، وأقوى قوةً من أولئك المخاطبين من قريش ومن حولهم، وأن سُنَّة الله في المكذبين ماضية، فليحذر هؤلاء الكفار من قريش وغيرهم أن يحلَّ بهم ما حلَّ بمن قبلهم، ففي الماضين عبرة.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾، ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري المفيد للنفي، والفاء للعطف على مقدَّر، والخطاب لأهل مكة، يقال: ضربتُ عنه وأضربتُ؛ أي: تركتَه وأعرضتَ عنه؛ أي: أنترُكُكم فَنُعرِضُ عن تذكيركم ووعظكم ﴿صَفْحًا﴾ مصدر لـ﴿نَضْرِبُ﴾ من غير لفظه مثل: قعدت جلوسًا؛ أي: إعراضًا عنكم، وأصل الصَّفح: أن تولِّي الشيءَ صفحةَ عنقك فلا تأبه له ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾؛ أي: لأجل أن كنتم مسرفين على أنفسكم بالكفر والمعاصي.

معنى الآية: لا يصح أن نترك تذكيركم لأجل إسرافكم، وهذا من رحمته تعالى، حيث كرَّر سبحانه تذكيرهم في السور المكية، وفي خطاب رسوله ﷺ لهم.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ﴾، ﴿وَكَمْ﴾ خبرية تفيد التكثير؛ أي: أرسلنا كثيرًا من الأنبياء ﴿فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: في الأمم الأولين ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾؛ أي: وما أتاهم من نبي يدعوهم إلى الله، فصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ استهزاءً مستمرًّا، كما يستهزئ قومُك بك ـ أيها الرسول ـ فتلك عادة الأمم مع أنبيائهم، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ عمَّا يلقاه من قومه من التكذيب والعصيان، والآيتان وعد من الله لنبيِّه بالنصر، وتُشيران إلى كمال لطفه تعالى، وسعة رحمته وحكمته، وأنه تعالى لم يترك إرسال أنبيائه إلى تلك الأمم، مع تكذيبهم واستهزائهم.

قوله سبحانه: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ هذا نوع آخر من التسلية؛ أي: فأهلكنا المكذبين السابقين الذين هم أشد قوة وبأسًا من أهل مكة المسرفين، فلا نعجز عن إهلاك غيرهم ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: وسلف في القرآن صفةُ إهلاك المكذبين للرسل من الأمم السابقين؛ كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، ممن صاروا عبرة لمن بعدهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن إسراف الكافرين والعاصين في الكفر والمعاصي لا يمنع من تذكيرهم؛ فإنهم قد يهتدون أو يهتدي بعضُهم.

٢ ـ قيام حجة الله على العباد بالنُّذر وإرسال الرسل، كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

٣ ـ أن الله أرسل أنبياء كثيرين قبل محمد ﷺ، وهو خاتمهم، فلا نبيَّ بعده.

٤ ـ أن جميع الأمم الذين جاءتهم الرسل قد كذَّبوا واستهزؤوا، فكأنهم قد تواصوا بذلك.

٥ ـ أن الاستهزاء بالرسل مستلزم للتكذيب.

٦ ـ أن الاستهزاء بالرسل من أعظم أسباب تعجيل العذاب.

٧ ـ الدلالة على صبر الرسل على تكذيب أقوامهم لهم وأذاهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

٨ ـ أن على الدعاة إلى الله التأسِّي في الأنبياء في صبرهم على التكذيب والأذى.

٩ ـ أن قوة الكافرين لم تُغْن عنهم شيئًا؛ بل أهلكهم الله.

١٠ ـ أن إهلاك المكذبين سُنَّة ماضية بتقدير الله وتدبيره.

١١ ـ تحذير كفار قريش وغيرهم أن يَحِلَّ بهم ما حل بمن قبلهم من المكذبين.

ولمَّا ذكر اللهُ عن المشركين إصرارَهم في الكفر وتوعَّدهم، بيَّن سبحانه أن أفعالهم تخالف أقوالهم؛ **فقال تعالى:**

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ إخبارَ الله عن المشركين بإقرارهم بربوبيته تعالى، وأنه خالق السماوات والأرض، وذكر تعالى بعضَ أسمائه وصفاته وأفعاله، من تمهيد الأرض، وجَعْل السُّبل فيها، وإنزال الماء لإحياء الأرض، وجَعْله دليلًا على خروج الناس من القبور.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، ﴿لَئِن﴾ اللام موطئة لجواب قسم مقدَّر قبلها، فهي تُؤذِن بالقسم المقدَّر وتُمهِّد لجوابه بعدُ[1]، و﴿إنْ﴾ شرطية، وجواب الشرط محذوف لتأخُّر الشرط، اكتفاءً بجواب القسم، وهو قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، تبعًا للقاعدة، وهي أنه إذا اجتمع شرط وقسم حُذف جواب المتأخر منهما.

---

(١) قال المرادي: «إنما سُمِّيت هذه اللام موطئة؛ لأنها وطَّأت للجواب. وتسمَّى أيضًا: المؤذنة. وقولهم: إنها موطئة للقسم، فيه تجوُّزٌ. وإنما هي موطئة لجواب القسم، وأكثر ما تكون مع إن الشرطية، كما تقدم. وقد تدخل على غيرها، من أدوات الشرط». «الجنى الداني» (ص١٣٧)، ونحوه في «مغني اللبيب» (ص٣١٠).

والخطاب في الآية للرسول ﷺ ولكل من يتأتّى خطابُه، فهو عام؛ أي: ولئن سألت ـ أيها السائل ـ هؤلاء المشركين: مَن خلق السماوات والأرض على هذا النظام البديع ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: ليقولُنَّ خلقهن العزيز في سلطانه، العليم بخلقه.

وقوله: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ حكاية من الله لجوابهم، وهم إنما يقولون في الجواب: خلقهن الله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فاعترافهم بأنه خلق السماوات والأرض يلزم منه أن يعترفوا بأنه عزيز عليم، ومَن كان موصوفًا بكمال العزة والعلم فهو قادر على خلق كل شيء، وهذا هو السبب ـ والله أعلم ـ في ذكر الاسمين الكريمين هنا: العزيز والعليم، والقوم مع هذا كلِّه يعبدون الأصنام والأوثان التي لا تخلق شيئًا وهي مخلوقة، كما قال سبحانه: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

ثم إنه تعالى ذكَر خمس صفات عظيمة لا يشاركه فيها أحدٌ غيره، وذلك من الاستطراد البديع، فهذه الصفات موجبة للإيمان به تعالى وإفراده تعالى بالعبادة، وهي ـ أيضًا ـ مؤذنة بقيام الحجة عليهم، وتوبيخهم على عدم التوحيد، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ أي: بساطًا، على وجه التشبيه، فهي صالحة للسُّكنى، والسير عليها، والانتفاع بها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ أي: وجعل لأجلكم فيها طُرقًا بين الأودية والجبال تسلكونها في معاشكم وأسفاركم، وتعرفون بها معالمَ الأرض فلا تضِلُّون ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ أي: لعلكم تهتدون بسلوكها إلى ما تريدون، أو تهتدون بها إلى قدرة الخالق الحكيم.

قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ هذا مَزِيد تذكير بنعمه تعالى عليهم؛ أي: هو تعالى الذي نزَّل بمشيئته الماء من السماء؛

أي: مِن العلو، بقدر حاجة العباد، فليس قليلًا لا ينتفعون به، ولا كثيرًا فيضرهم، يقال: بقدْر الحاجة، وبقدَرها، بالتحريك لغتان بمعنى واحد ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ﴾؛ أي: فأحيينا به بلدة مُجدِبة مقفرة من النبات، وتذكير ﴿مَّيْتًاۚ﴾ لأن البلدة بمعنى البلَد.

وفي الآية التفات من الغيبة في قوله: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ إلى التكلم في: ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ إظهارًا لعظمته تعالى، ولفتًا للأذهان لافتقار عباده إليه بما يحتاجون من الأقوات، فإنه لو لم يُنزِل الماء ولم يُنبِت الزرع لهلك الناس جوعًا وعطشًا ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثلَ ذلك الإحياء للأرض الميتة بإخراج النبات منها ﴿تُخْرَجُونَ﴾؛ أي: تُخرجون من قبوركم، فكيف تنكرون البعث؟!

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إقرار المشركين بأن الله خالق السماوات والأرض.

٢ ـ أن الاستطراد المفيد من محسِّنات الكلام.

٣ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: (العزيز) و(العليم)، وما دلَّا عليه من صِفَتي العزة والعلم.

٤ ـ أن الإقرار ببعض الحق لا يَصِير به الكافرُ مؤمنًا، وإن كان الكفر ببعض الحق يَصِير به المؤمنُ كافرًا؛ كالإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض، والإيمانِ ببعض الكتاب والكفر ببعض، فاليهود والنصارى لم يصيروا مؤمنين بإيمانهم ببعض الكتاب، وكفَروا بكفرهم ببعض الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، وهكذا من أقر بتوحيد الربوبية؛ فإنه لا يصير بذلك مؤمنًا؛ بل ولا مسلمًا، مع جحْده لتوحيد الإلٰهية.

٥ ـ إثبات الجعل الكوني.

٦ ـ أن من نعم الله على العباد: مَهْدَ الأرض لهم؛ ليستَقِرُّوا عليها، ويتمتعوا بمنافعها.

٧ ـ أن من نعم الله على عباده: جَعْل السُّبل، وهي الطرق في نواحي الأرض وبين الجبال.

٨ ـ إثبات الحكمة في أفعال الله؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٩ ـ أن من آيات الله ونعمه: إنزال الماء لإحياء الأرض الميتة.

١٠ ـ أن الجماد يوصف بالحياة والموت.

١١ ـ أن ما ينزله الله من الماء لإحياء الأرض يكون بقدْر مقدَّر.

١٢ ـ أن ذلك من أدلة البعث.

١٣ ـ أن الناس يخرجون من القبور، كما يخرج النبات.

١٤ ـ إثبات القياس، وذلك لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؛ حيث جعل خروج الناس يوم القيامة من القبور كخروج النبات من الأرض.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

١٦ ـ إثبات الأسباب، وأن الله يفعل بالأسباب، فإنزال الماء سببٌ لحياة الأرض، وقد جعله الله سببًا لإحياء الأرض؛ إذ قال: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

ثم ذكر تعالى من أفعاله ما تزداد به معرفةُ الله والإيمانُ به، **فقال سبحانه:**

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ ذِكرَ بعض دلائل قدرته وربوبيته تعالى، وهو خَلْقه لأنواع المخلوقات من الإنسان والحيوان والنبات، ثم يَمْتَنُّ تعالى على العباد بما خلق لهم من المراكب مما يعملونه بأيديهم، وهي الفلك، أو لا يد لهم فيه كالمركوب من الحيوان، وذكر من حكمته في هذا التسخير أن يذكروا نعمةَ الله عليهم، ويسبِّحوه على هذا التسخير، وليس ذلك مما يدخل في قدرتهم، ولذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾؛ أي: مطيقين، ويذكروا عند ذلك رجوعهم إلى ربهم يوم القيامة، وهو انقلابهم إليه.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أي: ومن أفعاله تعالى أنه الذي خلق أصناف المخلوقات كلَّها من حيوان ونبات وغير ذلك. الأزواج جمع زوج، وهو ما يصير به الواحدُ ثانيًا، ويُطلَق على كلٍّ منهما أنه زوج للآخر، والأصل أن يكون بين الزوجين ارتباط يُؤدِّيان به الحكمةَ من خلقهما؛ كالذكر والأنثى في الحيوان والنبات، ثم تُوسِّع فيه فأُطلق الزوج على الصِّنف، ومنه هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾؛ أي: السُّفن في البحر تركبونها، والفُلْك هنا جَمْع لفظه كلفظ مفرده، ومن إطلاقه على المفرد: قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾؛ أي: نوحًا ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ وجعل لكم من الأنعام ما تركبونه في البر، كالإبل، والخيل، والبغال، والحمير؛ للتنقُّل في الأرض؛ قضاءً لحوائجكم، وطلبًا لمعاشكم، ويدخل في الآية: ما جدَّ من المراكب كالطَّائرات والقطارات والسَّيارات، فكلٌّ ذلك مما علَّمه اللهُ الإنسان.

قوله سبحانه: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ الاستواء هنا بمعنى التمكُّن والاستقرار؛ أي: لتعلُوا على ظهور ما ذُكر متمكِّنين، وأفرد الضمير في ﴿ظُهُورِهِۦ﴾ باعتبار لفظ ﴿ما﴾ في ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، ولو رُوعي المعنى لقيل: على ظهورها؛ لأنَّ ما يركبون متناولٌ لجِنسَي الفُلك والأنعام المشتمِلَين على أفراد وأصناف كثيرة.

واللام للتعليل في ﴿لِتَسْتَوُۥا۟﴾، ويؤيد كونَها للتعليل: قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨]، ولا معنى أن تكون اللام للصيرورة أي: العاقبة؛ لأن ركوبها والاستواء عليها ليس من لوازم الفُلك والأنعام ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ثم تذكروا بقلوبكم نعمةَ خالقكم ومربِّيكم، وليس المراد من ذكر النعمة بالقلب مجردَ تصورها؛ بل المقصود: الذكر المستلزم للطاعة وشكر الواهب الحكيم العليم؛ فإنَّ مَن تفكَّر في أنَّ ما يركبه كالإبل أشدُّ قوة وأكبر جِرمًا منه، ومع ذلك كان مسخَّرًا ومنقادًا له يصرفه إلى ما يشاء حمَله ذلك على تذكُّر نعم الله وتمجيده بقلبه، وأن يقول بلسانه استعظامًا لهذا التذليل العجيب واعترافًا بعجزه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ أي: تقدَّس وتنزَّه عن كل نقص وعيب الذي ذلَّل لنا هذا المركوب، ويسَّره بفضله

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾؛ أي: وما كنَّا له مُطيقين، تقول العرب: أَقْرَن الشيءَ إذا أطاقه وقوِيَ عليه؛ كأنَّه صار له قِرْنًا؛ أي: مثلَه في الشدة ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: راجعون إليه تعالى بالموت ثم البعث.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من دلائل ربوبيته وقدرته تعالى وحكمته: أنْ جعل الخلق أنواعًا.

٢ ـ أن من نعم الله العظيمة: خَلْق الفُلك والأنعام وتسخيرها.

٣ ـ أن من الأمور الضرورية: الركوبَ على ما يحمل الإنسان لحاجاته؛ كالأكل والشرب.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

٥ ـ أن الله يُنعِم على عباده بالنعم؛ ليذكروه ويشكروه، ويُثنُوا عليه بنعمه.

٦ ـ إثبات الربوبية العامة لله تعالى؛ لقوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾.

٧ ـ إثبات الحكمة في أفعال الله؛ لقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾.

٨ ـ استحباب الاعتراف بالعجز عن تسخير هذه المركوبات.

٩ ـ استحباب هذا الذكر عند ركوب السفينة والدابة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

١٠ ـ أن تسخير الله لهذه المخلوقات من الأمور العظيمة التي تقتضي التسبيح.

١١ ـ تنزيه الله عن كل نقص وعيب.

١٢ ـ أن ما يصنعه الناس من المراكب مجعولةٌ لله تعالى.

١٣ ـ إثبات الجَعْل الكوني لله تعالى.

١٤ ـ أن ما يصنعه الناس لا تُخرِجه صناعتهم عن أن يكون خَلقًا لله.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

١٦ ـ في هذه الآيات ـ مع ما تقدم ـ الامتنانَ من الله على عباده بما خلق لهم من أسباب الراحة والمتعة والعَيْش في الحضر والسفر؛ فمهَّد الأرض، وسلَك فيها سُبُلًا، وأنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض فاهتزت وربَت بأنواع النبات، وأنبتت من كل زوج بهيج، وخلَق لهم المراكب مما يصنعون بأيديهم، ومما لا صُنع لهم فيه.

١٧ ـ الإرشاد إلى شكر نعم الله بالاعتراف بها، وتذكُّرها، والثناء على الله بها.

١٨ ـ استحباب تذكُّر الرجوع إلى الله عند التمتُّع بنعمه.

١٩ ـ إثبات البعث؛ لقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

ولمَّا ذكر اللهُ إقرارَ المشركين بأن خالق السماوات والأرض هو الله العزيز العليم، أخبر تعالى أنهم لم يعظموا الله؛ بل أشركوا به وتنقَّصوه فجعلوا له ولدًا؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ إنكارَ الله على المشركين ما نسبوا إليه من الولد بقولهم: الملائكة بنات الله، مع قبح اختيارهم؛ حيث نسبوا إلى الله ما لا يرضونه ولا يحبونه لأنفسهم، حتى إذا بُشِّر أحدُهم بأن وُلد له أنثى اسودَّ وجهُه وحزن لذلك، وذكَر تعالى نقصَ الأنثى في خَلْقها، فهي بذلك تحتاج إلى الحُلي الذي يزينها، وفي خُلُقها وهو العِيُّ في بيانها.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ﴾؛ أي: وجعل المشركون لله، والجَعْل هنا تصيير قولي[1]؛ أي: حكموا وأثبتوا، كما تقول: جعلتُ زيدًا أعلم الناس، ويجوز أن يكون ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ﴾ بمعنى: اعتقدُوا ﴿مِّنْ عِبَادِهِۦ﴾؛

(١) ويكون الجَعْل تصييرًا فعليًّا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥].

أي: من الملائكة؛ فالعبودية هنا هي العبودية الخاصة ﴿جُزْءًا﴾؛ أي: ولدًا؛ لأن الولد جزء من والده، كما قال ﷺ في ابنته فاطمة: «**إنها بَضعة مني، يَريبها ما رابني**»[1]. فالمعنى: أن المشركين افتروا على الله، وادَّعوا أن له ولدًا، وهذا الولد هم الملائكة، فقالوا: الملائكة بنات الله، كما دلَّ عليه قوله تعالى الآتي: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾؛ أي: الكافر، وهو اسم جنس يعمُّ كلَّ من قال هذا القول ﴿لَكَفُورٌ﴾؛ أي: لشديد الكفر؛ لأنه جَحَد ما لله من حقِّ التعظيم والتنزيه والتقديس ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: بَيِّن الكفر لنعم الله عليه، فـ﴿مُّبِينٌ﴾ اسم فاعل من أبان اللازم، المرادف لبَان بمعنى ظَهَر، وهمزته زائدة، ونسبة الولد إلى الله من أعظم الافتراء عليه تعالى، وقد أنكره اللهُ على كل من ادَّعاه بأنواع الإنكارات، كما في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٨، ٨٩]، وسورة الصافات في قوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩] الآيات، وإنما كان هذا القول افتراءً عظيمًا على الخالق تبارك وتعالى لأنه يستلزم **أمورًا** ممتنعة على الله تعالى:

أحدها: التجزُّؤ؛ فإنه تعالى أحَدٌ صمَدٌ.

الثاني: الحدوث، والله تعالى هو الأول الذي لم يزل، فهو قديم لا بداية له.

الثالث: وجود النظير والشبيه، والله لا نِدَّ له، ولا شبيهَ له، ولم يكن له كفوًا أحد.

الرابع: الحاجة، والله هو الغني بذاته عن كلِّ ما سواه، ولهذا ردَّ اللهُ على المشركين بذلك فقال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

---

(١) البخاري (٣٧٢٩)، ومسلم (٢٤٤٩) عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]، تعالى اللهُ عمَّا يقول الكافرون والجاحدون علوًّا كبيرًا.

ومن سَفَه المشركين وجهلهم البالغ: أنهم جعلوا ذلك الولد الذي نسبوه إلى الله من نوع البنات الذي لا يختارونه لأنفسهم، فقال تعالى مُنكِرًا عليهم: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾، ﴿أَمِ﴾ هي المنقطعة المقدَّرة ببل التي للإضراب الانتقالي والهمزة، فهو انتقال من إبطال جَعْلهم لله ولدًا إلى إنكار ما اختاروه لله من النوع الناقص، فليس الانتقال لإبطال ما تقدم بل للتَرَقِّي في الإنكار. المعنى: بل أتزعمون أن الله اتخذ لنفسه من خلقه البنات ﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾؛ أي: وخَصَّكم بالبنين؟! لا يكون ذلك. فالاستفهام لتوبيخهم وتجهيلهم، والتعجيب من حالهم حيث جعلوا لله البنت مع أنها مكروهة عندهم، قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، وفي الآية التفات من الغيبة في قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ﴾ إلى الخطاب في: ﴿وَأَصْفَاكُم﴾ لتشديد الإنكار والتقريع، وإلزام الحجة.

قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ هذا التفات إلى الغيبة؛ إعراضًا عنهم، وتحقيرًا لهم، والواو في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ للحال؛ أي: نسبوا إليه ذلك، والحال أنهم إذا بشِّر أحدهم ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾؛ أي: بالجنس الذي جعله للرحمٰن شبيهًا، وهو جنس الإناث؛ لأن الولد لا بد أن يُجانس الوالدَ ويُماثله، فـ﴿مَثَل﴾ في الآية بمعنى مِثْل، بكسر فسكون، يقال في اللغة: مِثْل ومَثَل، وشِبْه وشَبَه، وبِدْل وبَدَل ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾؛ أي: صار وجهُه مسودًّا غيظًا من سوء البشارة بالأنثى، وهذا في الظاهر ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ أي: مملوءُ القلب من الحزن والكآبة، وهذا في الباطن، فاجتمع لديه سوءُ الحال ظاهرًا وباطنًا.

وفي ذكر اسم الرحمٰن الذي ورد في هذه السُّورة سبع مرات ردٌّ

عليهم في جَحْدهم لهذا الاسم الكريم، وقد حكى اللهُ إنكارهم لاسم الرحمٰن في ثلاثة مواضع من كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي﴾، [الرعد: ٣٠] وقال سبحانه: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

ثم زاد في الإنكار عليهم وتوبيخهم بذكر أوصاف من نُقصان الأنثى التي أثبتوها لله، فقال سبحانه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾، الهمزة في ﴿أَوَمَن﴾ للاستفهام، والواو عاطفة على محذوف، والتقدير: أيبلغون الغاية في سوء الأدب ويجعلون لله ﴿مَن يُنَشَّأ فِي الْحِلْيَةِ﴾؛ أي: مَن يُرَبَّى في الزينة وهي الأنثى؟ وفي جَعْل الزينة ظرفًا للتربية بيان لشدِّة حاجة الإناث للزينة، كأنهن محاطاتٌ بالزينة إحاطة المظروف بالظرف ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾؛ أي: المحاجَّة والمجادلة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾؛ أي: غير موضِّح للحجة؛ لعجزه عن مُجاراة الرجال في الجدال، فتبيَّن أن إنكار الله عليهم من جهتين: نسبة الولد إلى الله، ونسبة أقل النوعين إليه تعالى.

الفوائد والأحكام:

١ ـ وجوب تنزيه الله عن الولد.

٢ ـ ذمُّ الله للمشركين بنسبة الولد إليه.

٣ ـ أن من ضلالات المشركين وكفرياتهم: نسبةَ الولد إلى الله.

٤ ـ أن من إفراط المشركين في السَّفه والجهالة: أن جعلوا له من الولد ما لا يرضونه لأنفسهم.

٥ ـ أن الولد جزءٌ من والده؛ لقوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾.

٦ ـ أن الولد مِثْل لوالده؛ لقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾؛ أي: مِثْلًا، وهو الأنثى.

٧ ـ شدة كراهة المشركين لأن يولد لأحدهم أنثى.

٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].

٩ ـ أن ظاهر الإنسان تابع لباطنه في الفَرح والحزن.

١٠ ـ أن المشركين لا يرضون بقَدَر الله فيما يصيبهم.

١١ ـ إثبات الاسم الكريم ﴿الرحمٰن﴾، وما دلَّ عليه من اسم الرحمة.

١٢ ـ نقص الأنثى في خَلْقها، فلذا احتاجت إلى التحلية من صغرها.

١٣ ـ نقص الأنثى في خُلُقها، وهو العِيُّ في لسانها.

١٤ ـ إبطال المذهب الجاهلي المعاصر في مساواة المرأة للرجل؛ لما جُبلت عليه من النقص في خَلْقها وخُلُقها وعقلها.

١٥ ـ أن الحليَّ ليس من شأن الذكور.

١٦ ـ إجراء الكلام على لفظ ﴿مَن﴾ بتذكير الضمائر: ﴿يُنَشَّؤُا﴾ و﴿هُوَ﴾ و﴿مُبِينٍ﴾، والمراد به الأنثى.

١٧ ـ فضل الذَّكَر على الأنثى.

١٨ ـ أن الفصاحة والبيان فضيلة.

ثم حكى اللهُ عن المشركين كفرًا آخر من كُفرانهم، **فقال سبحانه:**

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ من الله عن المشركين بذكر بعض أقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم القبيحة؛ كاعتقادهم أن الملائكة إناث، وقولهم: لو شاء اللهُ ما عبدناهم، وإنكارَ الله ذلك عليهم وتوبيخَهم، وبيانَ أنه لا حجة لهم على ما زعموا، لا من حسٍّ ولا عقلٍ ولا شرعٍ إلا اتباع الآباء الضَّالين.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾؛ أي: حَكَم المشركون وأثبتوا، أو اعتقدُوا ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ جمع أنثى، وهو خلاف الذَّكر، وهذا من أقبح أقوال المشركين؛ حيث استخَفُّوا بالملائكة المكرمين وجعلوهم إناثًا، وهم في الحقيقة عالم آخر من جنس لا يوصف بأنوثة ولا ذكورة، فهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون، وإن كان الكلام يجري عليهم بلفظ المذكَّر، وفي وصف الله الملائكة بأنهم ﴿عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ إشارة إلى بطلان قول المشركين؛ لأن اسم العباد لا يطلق على الإناث، وفيه إثبات شرف الملائكة؛ حيث أضافهم الله إلى نفسه المقدسة.

وإذْ بَطَلَ قولُ المشركين من جهة العقل، ولم يوجد له مُستَند من النقل، فلم يبق إلا الإخبار عن المشاهدة؛ يعني: مشاهدة المشركين

خلقَ الله الملائكة، فقال تعالى: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾؛ أي: أحضروا خَلْقهم؟ والاستفهام للإنكار والتهكم؛ أي: لم يحضروا خَلْقهم، كما قال تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

قوله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ هذا تهديد شديد للمشركين؛ أي: سيُجازون على فِريتهم هذه، وإنما فُسِّرت الكتابة بالمجازاة؛ لأن الكتابة التي هي تسجيلُ قولهم، وتدوينُه في صحائف أعمالهم تكون في إثر صدور ذلك منهم، والفعل ﴿سَتُكْتَبُ﴾ جاء بصيغة المضارع التي تفيد وقوع ذلك في المستقبل، مؤكَّدًا ذلك بالسين، فدل على أن المقصود هو المجازاة في الآخرة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١]، ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾؛ أي: يُسألون يوم القيامة توبيخًا لهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] ولا تَعارُض بين هذه الآية وقوله سبحانه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمٰن: ٣٩]؛ لأن هذا السؤال ليس سؤال استخبار واستعلام، ولكنه سؤال توبيخ وتبكيت.

وفي هذه الآيات والتي قبلها ذكر **ثلاثة أقوال** شنيعة للمشركين:

أحدها: أنهم نسبوا إلى الله الولد.

الثاني: أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين.

الثالث: أنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثًا، وجعلوهم بنات الله.

قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾؛ أي: قالوا على سبيل المغالطة: لو شاء الرحمٰنُ عدمَ عبادتنا لهؤلاء الملائكة والأصنام ما عبدناهم، يعنون: أن شِركَهم واقع بمشيئته تعالى، فهو راض عنه، فيكون مشروعًا مأذونًا لهم فيه، فهم يَحتجُّون بقضاء الله على شركهم.

والجواب عن ذلك أن يُقال: إن قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ صحيحٌ في أصله، ولكنها كلمة حق أريد بها باطل؛ فإن من المعلوم أنه لا يقع شيء في هذا الكون إلا بمشيئته تعالى وإرادته، لكنْ هذا الواقع منه ما يرضاه الله تعالى كإيمان المؤمن، ومنه ما لا يرضاه ككفر الكافر وعبادة الأصنام؛ فالمشيئة غير الرضا، ولهذا كذَّب اللهُ المشركين في دعواهم أن مشيئة الله لشركهم عذرٌ لهم يدفع اللوم عنهم والعقاب، فقال سبحانه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: زعمهم أن المشيئة تقتضي الرضا، و﴿مِنْ﴾ حرف جر زائد لإفادة التنصيص على عموم النفي؛ أي: لا علم لهم أصلًا ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ أي: يكذبون، قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إثبات المشركين لاسم الرحمٰن استهزاء منهم؛ لأنهم ينكرون هذا الاسم كما تقدم، ويحتمل أن يكون هذا من كلام الله إثباتًا لهذا الاسم ووصفًا لله تعالى، وإن لم ينطقوا به لكن صرحوا باسم الله الذي هو الرحمٰن، كما قال الله عنهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥]، ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧] فـ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ من كلام الله ثناءً على عيسى عليه السلام وتشنيعًا على من زعم قتله بأنه حريٌّ بالعقاب.

ولمَّا نفى الله أن يكون للمشركين مستندٌ عقلي في افترائهم أتبعه بنفي أن يكون لهم مستند نقلي، فقال سبحانه: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾، ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي للإضراب الانتقالي والإنكار؛ أي: هل آتينا المشركين كتابًا قبل القرآن فيه ما يعتقدون من عبادة غير الله وأن الملائكة بناته، فهم معتمدون على هذا الكتاب ـ بقوة ـ فيما ادَّعوه؟! لم يكن ذلك؛ فبطلت حُجتُهم عقلًا ونقلًا.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الجعل في القرآن يأتي لغير معنى الخلق، خلافًا للمعتزلة.

٢ ـ افتراء المشركين بزعمهم أن الملائكة إناث.

٣ ـ تكذيب الله لهم.

٤ ـ أن الملائكة عبادٌ لله تعالى، والعباد والعَبيد لا يسمَّى به الإناث، ولا يلزم من هذا أن الملائكة يوصفون بأنهم ذكور؛ لأن الذَّكر يختص بما له آلة، ولكن الملائكة لا يذكرون إلا بألفاظ المذكَّر، مظهَرَة أو مضمَرَة.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

٦ ـ إثبات اسم الرحمٰن، وما دلَّ عليه من صفة الرحمة.

٧ ـ أن المشركين منهم من يعبد الملائكة.

٨ ـ أنه لا مستند للمشركين في زعمهم أن الملائكة إناث، لا من حس ولا عقل ولا شرع.

٩ ـ أن من قال قولًا فقد شهِد به؛ لقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾.

١٠ ـ أن أقوال العبد مما تكتبه الملائكة.

١١ ـ أن الحكم على الغير لا يصح إلا بمعاينة أو بخبر صادق.

١٢ ـ إثبات الجزاء والحساب، وأن كلًّا مسؤولٌ عمَّا يقوله.

١٣ ـ التهديد والوعيد للقائلين بأن الملائكة إناث.

١٤ ـ أن المشركين كانوا يثبتون المشيئة لله.

١٥ ـ بطلان احتجاج المشركين بالقَدَر على شركهم.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

١٧ ـ أن الله لم ينزل على العرب كتابًا قبل القرآن.

١٨ ـ أن القول بلا علم خرصٌ مذموم.

١٩ ـ تكثير الأدلة وتنويعها؛ لإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

ثم بيَّن تعالى أنه لا مستند للمشركين على صحة عقائدهم وأقوالهم الفاسدة سوى تقليد أسلافهم الجهلة؛ **فقال تعالى:**

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ عن مشركي قريش ومَن قبلهم مِن الأمم التي كذَّبت الرسل بأنهم بَنَوا دينهم على اتباع آبائهم، وأنهم على آثارهم مهتدون ومقتدون، وأنهم مُصِرّون على ذلك ولو جاءهم الرسول بأهدى مما وجدوا عليه آباءهم، وأنهم كفروا بما جاءتهم به الرسل؛ فانتقم الله منهم، وجعلهم عبرة للمتفكرين.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وإبطال؛ أي: إبطال لأن يكون لهم حجةٌ أصلًا؛ أي: ليس لهم على ذلك حجة عقلية ولا نقلية؛ بل قالوا محتجين بالتقليد: إنا وجدنا آباءنا مجتمعين على دين وملة، وهي الشرك في العبادة، وهم أرجحُ منا عقولًا، وأصحُّ منا أفهامًا ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾؛ أي: على سنَنِهم خاصة ﴿مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: سائرون ولم نخطئ؛ لأننا لم نأت بشيء من عند أنفسنا، قال الشاعر الجاهليُّ قيس بن الخطيم:

كُـنَّـا عَـلَـى أُمَّـةِ آبَـائِـنَـا وَيَـقْـتَـدِي بِـالأَوَّلِ الآخِـرُ(١)

ثم بيَّن تعالى تسليةً لرسوله ﷺ أنَّ تمسُّكَ المشركين في باطلهم أمرٌ مستمرٌّ في الأمم من قديم الزمان، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ أي: ومثلَ هذا التقليد للآباء دون حجة فَعَل مَن قبلهم من المكذبين، فما أرسلنا قبلك في أمة من الأمم رسولًا ينذرهم ويخوِّفهم عاقبة الكفر والشرك ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾؛ أي: قال المتنعمون فيها من الرؤساء والكبراء، يقال: تَرِف - كفَرِح - تنعَّم، وأترفته النعمةُ إذا أطْغَتْه ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾؛ أي: مُقتدُون بطريقتهم، متَّبعون لهم، فلا هم يتدبرون ولا يتعظون، وتخصيص المترفين بالذِّكر مع أن هذا القول صادر من غيرهم أيضًا؛ لأن المترفين أسرعُ في الإدلاء بالشبهات من غيرهم، وغيرُهم تبعٌ لهم، ولأن التنعُّم من أسباب صرفهم عن النظر إلى التقليد.

ثم أخبر تعالى عمَّا ردَّ به رُسُلُ الله على أولئك الضُّلال المقلِّدين لأسلافهم بغير علم، فقال سبحانه: ﴿قَٰلَ﴾؛ أي: قال كلُّ رسول لقومه حين احتج أقوامهم باتباع آبائهم: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾، الواو في ﴿أَوَلَوۡ﴾ عاطفة على محذوف؛ أي: أتتبعون آباءكم في ضلالهم ولو جئتكم بدينٍ أهدَى من دين آبائكم؟! والاستفهام للإنكار والتوبيخ، وفي قوله: ﴿بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ تنزُّلٌ معهم بتقدير أن معهم شيئًا من الهدى؛ استمالةً لهم ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال المكذبون مجيبين لرسلهم على سبيل العناد ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون وإن جئتمونا بما هو أهدى.

---

(١) ليس في ديوان الشاعر بتحقيق: ناصر الدين الأسد، وهو في «تفسير القرطبي» (١٦/ ٧٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١١).

ولما أصرُّوا على التكذيب أنزل اللهُ بهم بأسَه الشديد، فقال سبحانه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾؛ أي: عاقبناهم على كفرهم بأنواع العذاب ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ أي: انظر كيف صار حالهم ومآلهم، والاستفهام لتهويل العذاب وتعظيمه، والخطاب للنبي ﷺ أو هو عام لكل من هو أهل النظر، وفيه تسلية للنبي ﷺ، وإرشاد إلى عدم المبالاة بتكذيب قومه له عليه الصلاة والسلام.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أصل دين أهل الجاهلية ومَن قبلهم من المكذبين هو تقليد الأسلاف.

٢ ـ إصرار المشركين على الباطل، ولو جاءهم خير منه وأهدى.

٣ ـ تَشَابُه أعداء الرسل في أقوالهم وأفعالهم.

٤ ـ تسلية الرسول ﷺ بأن ما قيل له قد قيل لمن قبله من الرسل.

٥ ـ أن اتباع الرسل سبيلُ النجاة.

٦ ـ أن إرسال الرسل رحمة من الله للعباد؛ لإنقاذهم من سبيل الشيطان.

٧ ـ تحريم معارضة الرسل بما كان عليه الأسلاف وما عليه جمهور الناس.

٨ ـ ذمُّ التقليد في أحكام الدين والتعصبِ للأئمة.

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

١٠ ـ التنَزُّل مع الخصم بتقدير أن معه شيئًا من الحق؛ لقوله: ﴿بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾.

١١ ـ أن سُنَّة الله ماضية في المكذبين، وهي الانتقام منهم.

١٢ ـ شدة عذاب الله الذي أخذ به المكذبين؛ لقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

١٣ ـ تهديد المصرِّين على التكذيب بأن تجري عليهم سُنَّةُ الله في أمثالهم.

١٤ ـ الإرشاد إلى التفكُّر في عواقب المكذبين للحذر من طريقهم.

ولمَّا أخبر اللهُ عن المشركين العرب أنهم مُقتدون بآبائهم في الشرك ذكر قصة إبراهيم عليه السلام الذي هو أشرف آباء العرب؛ ليقتدوا به في براءته مما يعبده أبوه وقومه، **فقال سبحانه:**

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الخبرَ والتذكيرَ بقول نبي الله وخليله إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، وهذه البراءة هي حقيقة التوحيد، وهي معنى لا إله إلا الله، وضمَّ إلى هذه البراءة حسنَ ظنه بربه بأنه سيهديه، وجعل هذه البراءة كلمة موروثة عنه في ذريته، لعلهم يرجعون إليها عند اختلافهم، ثم رجع السياقُ إلى ذكر كفار قريش، وإملاء الله لهم إلى أوان مجيء هذا الرسول ﷺ، فلما جاءهم كفروا به، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾؛ أي: واذكر ـ أيها الرسول ـ لقومك تنبيهًا ووعظًا حين قال: ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ الخليل عليه السلام إمام الحنفاء، وأبو الأنبياء ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم الكِلدانيون، وكانوا صابئين يعبدون الكواكب، ويصورون لها أصنامًا ينحِتونها بأيديهم، ولهذا قال لهم مُنكِرًا

عليهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]، ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: بريء متباعد من الأصنام التي تعبدونها من دون الله، و﴿بَرَآءٌ﴾ مصدر مثل السَّماع والذَّهاب، فـ﴿بَرَآءٌ﴾ مصدر وُضع موضع النعت للمبالغة في البراءة، ولا يثنَّى ولا يجمع كسائر المصادر، يقال: رجلان بَرَاء ورجالٌ بَرَاء، أما بَرِيء فيُثنَّى ويجمع فيقال: بريئان وبريؤون وبُرآءُ ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ أي: لكن أعبدُ الله الذي خلقني، فالاستثناء منقطع؛ لأن الفاطر تعالى غير داخل في قوله: ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ فهم لا يعبدون إلا الأصنام ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: سيهديني إلى الدين الحق، والسين للتأكيد، وأصل ﴿سَيَهْدِينِ﴾: سيهديني، النون للوقاية، وحذفت الياء تخفيفًا، ولحصول الفاصلة.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الاستثناء متصل؛ بناء على أن قوم إبراهيم يعبدون الله مع عبادتهم للأصنام، فيكون إبراهيم على هذا استثنى من البراءة من معبوداتهم الله تعالى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى﴾، ولا يُشكِل على هذا الرأي قوله: ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ فإن إطلاق ﴿مَا﴾ على الله وارد في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣].

والأظهر ـ والله أعلم ـ أن الاستثناء منقطع؛ لأنه لم يذكر في القرآن ما يدل على أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الله ويقرون بربوبيته، ولم يذكر ذلك المؤرخون، ولما قال لهم إبراهيم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠] أجابوا قائلين: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤].

وفي قول إبراهيم: ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى﴾ إشارة إلى أنه لا يستحق العبادة إلا الخلَّاق ﷻ، وفيه تحقيق إبراهيم لتوحيد الربوبية، كما كان محققًا لتوحيد الإلٰهية، وهو ما دلَّ عليه قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ﴾؛ أي: وصيَّر إبراهيمُ كلمة التوحيد (لا إلٰه إلا الله) بإعلانه لها، وهي المفهومة من قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ فإنها متضمِّنة للنفي والإثبات، فقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بمعنى: لا إلٰه، وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ بمعنى: إلا الله ﴿بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾؛ أي: في ذريته ووصَّاهم بها؛ فلا يزال فيهم من يوحِّد الله ويدعو إلى التوحيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: رجاءَ أن يرجعوا إلى الإيمان وترك الشرك.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾، ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب، وهو إضراب عن محذوف يدل عليه الكلام؛ أي: ولمَّا لم يرجعوا لم أعاجلهم بالعقوبة؛ بل مَتَّعتُ هؤلاء المشركين من أهل مكة وآباءهم؛ أي: أمددتُهُم بالنعم والخيرات وطول العمر ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: القرآن ﴿وَرَسُولٌ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مُّبِينٌ﴾؛ أي: واضح الرسالة بما معه من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرات.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ولما جاءهم القرآن الذي هو الحق يدعوهم إلى التوحيد ازدادوا عتوًّا وضلالًا و﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ وليس بوحي ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون، وأصرُّوا على كفرهم، فلم يوجد فيهم ما رجاه إبراهيم عليه السلام.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تنويه الله ببراءة إبراهيم عليه السلام مما يعبده المشركون من دون الله.

٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

٣ ـ الحكمة من ذكر إبراهيم عليه السلام في هذا المقام.

٤ ـ البداءة في الدعوة بالأقرب.

٥ ـ أن حقيقة التوحيد: البراءة من كلِّ ما يعبده المشركون إلا الله.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٧، ٧٨].

٧ ـ الإشارة إلى دليل صحة التوحيد وبطلان الشرك؛ لقول إبراهيم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

٨ ـ الجمع بين نوعي التوحيد الربوبية والإلٰهية.

٩ ـ أن الهداية إنما تُرجى وتطلب من الله.

١٠ ـ جَعْلُ إبراهيم البراءة من الشرك في ذريته بالوصية بها.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

١٢ ـ أن الإقرار بالتوحيد لم يَزَلْ في ذرية إبراهيم عليه السلام، أما في بني إسرائيل فظاهر؛ لوجود الأنبياء فيهم، وأما ذرية إسماعيل فلم يَزَلْ دين إبراهيم فيهم حتى غيَّره عمرو بن لُحيٍّ، فزرع الشرك في العرب، وقد رآه النبيُّ ﷺ يجر قُصْبَه في النار، ثم بعث اللهُ من ذرية إسماعيل سيد المرسلين، وخاتم النبيين محمدًا ﷺ، وقد دعا ببعثه من ذريتهما إبراهيمُ وإسماعيلُ، وذلك قوله تعالى عنهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ الآية [البقرة: ١٢٩].

١٣ ـ مِنَّة الله على إبراهيم عليه السلام، وتشريفه له بجعل النبوة في عقبه.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

١٥ ـ إملاء الله لقريش وآبائهم حتى بُعث فيهم محمد ﷺ.

١٦ ـ أن الله يعمِّر من يشاء، ويَنقص من عمر من يشاء.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

١٨ ـ إقامة الحجة على العباد بإرسال الرسل.

١٩ ـ أن ما جاء به الرسول من الدين والتوحيد هو الحق.

٢٠ ـ أن الرسول بيِّن الرسالة بما أظهر الله من دلائل صدقه، وكمال شرعه، وهو مبيِّن للحق بقوله وفعله.

٢١ ـ طَعْن قريش فيما جاء به الرسول ﷺ، وإصرارهم على الكفر.

٢٢ ـ تَنَوُّع أسلوب القصص في القرآن بالبسط والإيجاز، فقد أُوجِزت قصة إبراهيم هنا، وبسطت في سور أخرى، كالأنعام والأنبياء والشعراء.

ولمَّا أخبر اللهُ عن طعن المشركين في القرآن أتبعه الإخبارَ عن طعنهم فيمن جاء به، وهو الرسول ﷺ؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان الإخبارَ عن المشركين باقتراحهم على الله فيما أنزله من القرآن أن لو أنزل على عظيم من عظمائهم لا على محمد ﷺ الذي ليس له من أسباب العظمة عندهم؛ كالمال والرئاسة، ثم أنكر اللهُ عليهم تحكُّمَهم في فضل الله وقَسْم رحمته، وهو الذي قسم بينهم معيشتهم، وفاضل بينهم في الرزق والمنزلة لحكمته البالغة، ثم أخبر تعالى أن رحمته بما يعطيه من النبوة لمن يشاء خيرٌ مما يجمع الناس من أعراض الدنيا ويتنافسون فيه.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: وقال هؤلاء المشركون من أهل مكة ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ ﴿لَوْلَا﴾ حرف أصل معناه: طلب حصول ما بعده؛ أي: هلَّا نُزِّل هذا القرآن ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾؛ أي: من رجال إحدى القريتين: مكة والطائف، و﴿أل﴾ في القريتين للعهد الذهني؛ لأن مكة والطائف أشهر بلادهم ﴿عَظِيمٍ﴾؛ أي: عظيم في قومه؛ أي: ذي جاه ومال، قالوا ذلك احتقارًا للنبي ﷺ، واستعظامًا أن يوحَى إليه القرآن؛ لأنه كان يتيمًا وفقيرًا، وهذا تحكُّمٌ منهم واعتراض على حكمته ومشيئته

تعالى، وهو دالٌّ على مُكابرتهم، وفَرْطِ جهلهم؛ لأن مقياس العظمة عندهم كثرة المال والجاه، ولم يلتفتوا إلى ما سوى ذلك من سمو النفس، وكرم الطباع، وزكاء الأخلاق، وطيب الأعراق، وشرف النشأة، والتَّخَلِّي عن الرذائل، وهو ما اتصف به نبيّنا محمد ﷺ.

قوله سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؛ أي: أهم يمنحون النبوة من يشاؤون من الناس ويمنعونها من يشاؤون؟! والاستفهام للإنكار المؤذن بالتجهيل، فهو إنكار لأن يكون لهم سلطان في شؤونه تعالى، والله ﷻ أعلم حيث يجعل رسالته، وإطلاق الرحمة على النبوة من باب تسمية الشيء باسم سببه؛ لأن النبوة من آثار رحمة الله لمن اصطفاه، وفي إضافة ﴿رب﴾ إلى ضميره ﷺ تشريف له وتثبيت في مقابل احتقار المشركين له عليه الصلاة والسلام.

قوله سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: نحن بعلمنا وحكمتنا قسمنا بينهم أرزاقهم وأقواتهم في الحياة الدنيا، ولم نترك ذلك إليهم، ففيه تعريض بعجزهم وضعفهم، فإذا كانوا عاجزين عن تدبير شؤون أنفسهم، فكيف يقترحون أن تُعطى الرسالة لفلان وفلان؟! ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾؛ أي: فضَّلنا بعضهم على بعض درجات متفاوتة من الغنى، والفقر، والحرية، والرِّق، والقوة، والضعف، والعلم، والجهل ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ من التسخير بمعنى الاستخدام؛ أي: ليستخدم بعضُهم بعضًا، وينتفع بعضُهم ببعض، وبهذا تستقيم الحياة وينتظم العمران، وتقوم مصالح الناس. وفي الآية ـ والله أعلم ـ إشارة إلى معنى، وهو أن الله كما فضَّل العباد بعضهم على بعض كما شاء؛ كذلك اصطفى بالرسالة من شاء ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: النبوة، وهذا التفات من التكلُّم في ﴿قَسَمْنَا﴾ و﴿وَرَفَعْنَا﴾ إلى الغيبة في ﴿رَبِّكَ﴾ لتأكيد

تكريمه وتثبيته ﷺ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أي: خير وأفضل مما يجمعونه من حطام الدنيا ومتاعها الفاني.

الفوائد والأحكام:

١ ـ مجادلة المشركين بالباطل لردِّ الحق.

٢ ـ سَفَه المشركين بتحكُّمهم في فضل الله.

٣ ـ أن معيار العَظمة عند المشركين هو المال، وأن ذلك قديم في الناس.

٤ ـ أن اختيار الله لمن هو أهل لفضله ورحمته ليس تابعًا لما يختار العباد.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

٦ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

٧ ـ أن تفاضُل العباد في معيشتهم راجع إلى قَسْم الله.

٨ ـ جواز استخدام الأحرار برضاهم.

٩ ـ الحكمة في رفع العباد بعضهم على بعض في حظوظ الدنيا.

١٠ ـ إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

١١ ـ وجوب التسليم لقدر الله وحكمته.

١٢ ـ أن النبوة يضعها اللهُ حيث شاء، بحسب علمه وحكمته ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

١٣ ـ أن النبوة رحمة الله العظمى يختص بها من يشاء، فهي خير مما يجمع الناس من متاع الدنيا.

❊❊❊

ثم بيَّن تعالى حَقارة الدنيا ودَناءتها عنده تعالى؛ إبطالًا لما يعتقده الكفار من تفضيل الغنيِّ على الفقير، وجعْل الغِنى مناطًا للعظمة والكمال؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ البيانَ من الله عن السبب في أنه تعالى لم يُعْطِ كلَّ مَن كفر بالله ما يشتهي من زخرف الدنيا وزينتها؛ وهو أن ذلك يؤدي إلى أن يكون الناسُ أمة واحدة في الكفر، وذلك مكروه له تعالى، ثم أخبر أن ما يُعطاه الكفار هو من نعيم الدنيا الزائل، وأما الرفعة والنعيم الدائم فمدَّخر في الآخرة للمتقين.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾، الواو في ﴿وَلَوْلَآ﴾ استئنافية، و﴿لَوْلا﴾ حرف شرط غير جازم، وهو حرف امتناع لوجود؛ أي: امتنع الجَعْل لوجود المفسدة، وهي اجتماع الناس على الكفر.

معنى الآية: ولولا أن يكفر الناسُ جميعًا إذا رأوا الكفار في سعة من الرزق لأعطينا الكفار ما يريدون من متاع الدنيا وزينتها؛ لهوان الدنيا علينا، وفي الآية إشارة إلى أن الله لا يرضى لعباده الكفر ﴿أُمَّةً

﴿وَٰحِدَةً﴾؛ أي: جماعةً واحدةً في الكفر ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لم يقل: لمن يكفر بنا، ففي الآية التفات من التكلُّم في ﴿جَعَلْنَا﴾ إلى الغيبة بذكر اسم الرحمٰن الذي يكفرون به تنبيهًا لهم عليه، وإشارة إلى أن توسيع النعم من آثار رحمته تعالى العامة ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال من ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بإعادة حرف الجر اللام، والبدل هو المقصود بالحكم، المعنى: لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمٰن ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ جمع سَقْف، وهو غطاء البيت وسماؤه ﴿وَمَعَارِجَ﴾ من فضة؛ لأن المعطوف يشارك المعطوف عليه في قيوده، والمعارج جمع مِعَرج مثل مِخْلب ومَخالب، وهو الدَّرَج ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ أي: يصعدون.

قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أعاد ذكر البيوت لزيادة التقرير ﴿أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾؛ أي: ولجعلنا لبيوتهم أبوابًا من فضة، وسُرُرًا من فضة، جمع سرير، وهو عند العرب ما يُجلس عليه، ويكون مرفوعًا من الأرض، فإن كان عليه ستائر سمِّي أريكة ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾؛ أي: يعتمدون عليها حال جلوسهم فوقها.

قوله تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا﴾؛ أي: ولجعلنا لهم ذهبًا يتجملون به ويزينون به بيوتهم، وسمِّي الذهب زخرفًا؛ لأنه سبب الزينة ﴿وَإِن﴾ إنْ حرف نفي بمعنى ﴿ما﴾ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا﴾، ﴿لَمَّا﴾ حرف بمعنى ﴿إلَّا﴾ ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ما كلُّ ما ذُكر إلا متاعٌ فانٍ يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا ثم يزول، فهو ليس بشيء إذا قِيسَ بثواب الآخرة، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ هذا مبتدأ؛ أي: ونعيم الآخرة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: في الجنة، والظرف متعلق بمحذوف حال ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبر المبتدأ؛ أي: خالصةٌ لأهل التقوى الملازمين لها.

وعند هذه الآيات سؤال يثيره بعض المفسرين، وهو أن الله حين لم

يوسِّع على الكفار لاحتمال وجود المفسدة المذكورة، فهلا وسَّع على المسلمين ليجتمع الناس على الإسلام؟ وأجيب عن ذلك بأن التوسعة على المسلمين جميعًا تترتب عليها فساد النية في الدخول في الإسلام؛ لأن المطلوب في الدخول في الإسلام أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى.

الفوائد والأحكام:

١ ـ المفسدة المترتبة على إعطاء كل كافر ما يريد من حظوظ الدنيا وزينتها، وهي أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر، أو في معيشتهم.

٢ ـ أن مقتضى الحكمة التفاضلُ بين الناس في معيشتهم.

٣ ـ إثبات الجَعْل الكوني؛ لقوله: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٤ ـ علمه تعالى بالأسباب والآثار المترتبة عليها.

٥ ـ أن اجتماع الناس كلهم على الكفر بالله تأباه حكمة الرب تعالى.

٦ ـ تعليل أفعاله تعالى بحصول المصالح وانتفاء المفاسد.

٧ ـ حَقارة الدنيا عند الله تعالى.

٨ ـ تسلية من قُدِر عليه رزقه.

٩ ـ أن الذهب والفضة أنفس متاع الدنيا.

١٠ ـ كراهة جعل سُقُف البيوت وسَلالمها وسُرُرها من الذهب والفضة.

١١ ـ أن تحلية هذه المرافق بالذهب والفضة من عمل الكفار.

١٢ ـ أن تحلية هذه المرافق بالذهب والفضة ضرب من الإسراف.

١٣ ـ حبُّ الكفار لزينة الدنيا وزخرفها.

١٤ ـ أن حظوظ الدنيا وزينتها متاع صائر إلى زوال.

١٥ ـ أن النعيم التامَّ الدائمَ مدَّخرٌ عند الله للمتقين في الآخرة.

١٦ ـ إثبات عِندية المُلك أو المكان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ﴾.

١٧ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

١٨ ـ أن تقوى الله سبب السعادة في الدنيا والآخرة.

١٩ ـ أن السعادة الحقَّة هي السعادة في الآخرة.

٢٠ ـ حَقارة الدنيا بالقياس إلى الآخرة.

❁ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

❁ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ تحذيرَ الله من الإعراض عن ذكره، وتهديدَ المعرضين بأن يقيّض اللهُ لمن أعرض عن ذكره شيطانًا يكون له قرينًا ويُزيِّن له سوءَ عمله، فإذا قَدِم على ربه يوم القيامة تمنَّى أن يكون ذلك القرين بعيدًا عنه بعد المشرق من المغرب، وأقرَّ بسوء صحبته، ثم أخبر تعالى أنه لن ينفع المُعرِض وقرينَه اشتراكهما في العذاب؛ فلن يكون ذلك مُسلّيًا لواحد منهما.

❁ التفسير:

هذه الآياتُ متصلة بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾؛ يعني: أنَّ مَن يصف القرآن بهذا الوصف مُعرِضٌ عنه، فالله يُسلِّط عليه شيطانًا يلازمه ﴿وَمَن يَعْشُ﴾؛ أي: ومن يُعرض ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: عن القرآن وما فيه من الحُجج والمواعظ والعبر، فلا يستمع له ولا يتدبره، وإضافته إلى الرحمٰن إشارة إلى أن نزول القرآن رحمة للعالمين. يقال: عشا ـ كغَزا ـ يعشُو عَشْوًا، إذا أعرض عن الشيء ولم يأبه به، وعشِي يَعْشَى ـ كرضي يرضَى ـ عَشًى، إذا أصاب عينَه الداء الذي يمنع إبصارها ليلًا ﴿نُقَيِّضْ لَهُ﴾؛ أي: نُهيِّئ له ﴿شَيْطَانًا﴾ من شياطين الجن أو الإنس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا

﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]، فهذا الشيطان يتسلط عليه بالإغواء والإضلال، جزاءً وفاقًا على إعراضه عن القرآن ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: الشيطان ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: للإنسان المعرض ﴿قَرِينٌ﴾؛ أي: ملازم له لا يفارقه، فهما طريقان لا ثالث لهما؛ فإما الإيمان واتباع ذكر الرحمٰن، أو الإعراض وملازمة الشيطان!

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾؛ أي: ليمنعون الكفار المعرضين عن ذكر الله، ويزينون لهم الكفر ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: عن طريق الهدى الذي شرعه الله ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾؛ أي: ويظن الكفار المعرضون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: أنهم على حق فيما سلكوا.

وجَمْع الضميرين في ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾؛ لأن المراد بـ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ و﴿الشيطان﴾ جنس مبهم فيتناول جميع الأفراد.

قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائية ﴿إِذَا جَآءَنَا﴾؛ أي: إذا جاء المُعْرِض إلينا يوم القيامة للحساب والجزاء، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ﴿جَاءانَا﴾ على التثنية؛ أي: جاء المُعرِض وقرينه، وفي هذا دليل على أن القرين ملازم لصاحبه يوم القيامة كما كان ملازمًا له في الدنيا، ولكنه يتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾؛ أي: قال الكافر المعرض لقرينه نادمًا: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ أي: بُعد المشرق من المغرب، والمراد: مشرق الشمس ومغربها، فهو يتمنَّى أنه لم يكن صحبه

ولا عرفه، وقوله: ﴿ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ هذا من التغليب، كما قالوا: العُمَرين في أبي بكر وعمر، والأبوين في الأب والأم، والقَمَرين في الشمس والقمر؛ لأن العرب تثنِّي الاسمين المختلفين بلفظ أحدهما ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ ذمٌّ لقرينه، والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: فبئس القرين أنت؛ لأنه كان سببًا في شقائه.

ثم يُقال للكافرين يوم القيامة على سبيل التوبيخ وهم في النار: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ أي: هذا اليوم، فأل للعهد الحضوري ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾؛ أي: ظلمتُم أنفسكم بالكفر ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ هذا فاعل ﴿ينفع﴾، المعنى: لن ينفعكم اشتراكُكُم جميعًا في العذاب؛ لأن كلًّا منهم له نصيبه المقسوم من النار، وقد جرت العادةُ في الدنيا أن المكروب يتأسَّى ويتروَّح بوجدان المشارك، وليس الأمر كذلك في الآخرة، قالت الخنساء:

ولَـوْلا كَـثـرَةُ الـبـاكـيـنَ حَـوْلـي ... عـلـى إخـوانـهـمْ لـقـتـلـتُ نَـفـسـي
ومـا يَـبـكـونَ مـثـلَ أخـي ولـكِـنْ ... أُعَـزِّي الـنَّـفـسَ عـنـهُ بـالـتَّـأسِّـي[1]

الفوائد والأحكام:

١ ـ خطر الإعراض عن ذكر الله، وهو القرآن.

٢ ـ أن الإقبال على ذكر الله يطرد الشياطين.

٣ ـ أن من أسماء القرآن الذكر.

٤ ـ عقوبة من أعرض عن ذكر الله بأن يَقرن اللهُ به شيطانًا يُزيِّن له سيِّئ الأعمال.

٥ ـ أن العقوبة بتسليط الشيطان على الإنسان أعظمُ من العقوبة بأيِّ نوع من أنواع العذاب.

---

(١) «ديوان الخنساء» (ص٧٢).

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

٧ ـ الردُّ على القدرية بأن الكفر والمعاصي يكون بتسليط الله الشيطانَ على الإنسان.

٨ ـ الرد على الجبرية في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾، فأثبت للشياطين فعلًا.

٩ ـ التحذير من قُرناء السوء من الإنس.

١٠ ـ أن ممَّن ضل عن الحق مَن يحسب أنه على هدى، وشواهد هذا المعنى كثيرة في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

١١ ـ تمنِّي المُعْرِض عن ذكر الله يوم القيامة أن يكون ذلك القرين أبعدَ ما يكون منه في الدنيا.

١٢ ـ أن المُعْرِض عن ذكر الله وقرينه يشتركان في العذاب.

١٣ ـ أن اشتراكهما في العذاب لا يهوِّنه عليهما؛ للتَّسلي بالأُسوة.

١٤ ـ أن كلًّا من الشيطان وقرينه ظالم لنفسه بكفره بالله.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ [الحشر: ١٧].

ولمَّا وصفهم اللهُ بعَشَى البصر في الآية المتقدمة وصفهم بالصَّمم والعَمَى تسلية لنبيِّه ﷺ في عدم إيمانهم، **فقال سبحانه:**

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ الإخبارَ **بأمور** تتعلق بالدَّعوة والمدعوِين:

الأول: إصرار الكفار على الكفر حتى صاروا كالصُّمِّ لا يسمعون، وكالعُمْي لا يبصرون.

الثاني: تهديد الكفار بالانتقام منهم إذا خرج الرسول ﷺ من بينهم.

الثالث: أنه تعالى قادر على أن ينتقم منهم والرسول بينهم، فيُريه ما توعَّدهم اللهُ به.

الرابع: أن الرسول ﷺ في دعوته على صراط مستقيم.

الخامس: أن القرآن تذكيرٌ للنبي ﷺ ولقومه، وشرفٌ له ولقومه.

السادس: أن الله لم يَشرع الشرك في أي شريعة جاء بها رسول من رسل الله.

❁ **التفسير:**

قوله سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وهمزة الاستفهام للنفي والتعجب؛ أي: إنك لا تُسمع مَن أصمَّه اللهُ عن سماع الحق ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾؛ أي: ولا تهدي من أعمى اللهُ قلبَه عن الهدى ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: ولا تهدي مَن كان منغمسًا في ضلال بيِّن، وقد كان النبي ﷺ يدعوهم إلى الإيمان ولا يزدادون مع الدعوة إلا طُغيانًا وتعاميًا عن الحق، فكان الرسول ﷺ يأسى لذلك. المعنى: لا تحزن عليهم ـ أيها الرسول ـ وليست الهداية بيدك، فلو شاء اللهُ لهداهم أجمعين.

ثم توعَّد اللهُ الكفار بقوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾، ﴿إِمَّا﴾ مركبة من ﴿إن﴾ الشرطية و﴿ما﴾ الزائدة المؤكدة لمعنى الشرط؛ أي: فإنْ توفيناك قبل أن تُبصَر عذابَهم، ويُشفَى بذلك صدرُك وصدورُ المؤمنين ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾؛ أي: فإنَّا سننتقم منهم في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: ٤٦]

قوله تعالى: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾، ﴿أَوْ﴾ للتقسيم؛ أي: إن أخَّرنا وفاتك إلى أن ترى العذاب الذي وعدناهم في الدنيا من الذل والقتل ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾؛ أي: فهم في قبضتنا ولا يفلتون منا، وقد أبقى اللهُ نبيّه ﷺ إلى أن أقرَّ اللهُ عينَه بظهور الدين، وهزيمة الكفار في بدر وغيرها.

ولما سلَّى اللهُ نبيَّه ﷺ بوعده بالانتقام من أعدائه أمَره بالاستمساك بالقرآن، فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾؛ أي: تمسَّك بقوة ﴿بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن وما تضمَّنه من الشرائع، وفي ذكر القرآن بالاسم الموصول تفخيم له، وأنه موحًى به من الله العظيم، وفي ذلك دلالة على

ثبوت نبوته ﷺ ﴿إِنَّكَ﴾ أيها الرسول ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ أي: على طريق قويم لا عوج فيه، وهو دين الإسلام.

قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: القرآن ﴿لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾؛ أي: شرفٌ عظيمٌ لك ولقومك قريش خاصة والعرب عامة؛ لأنه نزل بلسانهم، وسيبقَى ذكرُهم ما بقي هذا القرآن يُتلى بلسانهم، وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى ﴿ذِكۡرٞ﴾؛ أي: تذكير، فيكون اسم مصدر في موضع اسم الفاعل ﴿مُذَكِّر﴾ مبالغة في وصفه بكونه مذكرًا بالله وأسمائه وصفاته ووعده ووعيده، ولا تَنَافي بين المعنيين ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾؛ أي: تُسألون يوم القيامة: هل شكرتم اللهَ على ما أنزل من القرآن؟ وهل عملتم به؟

ثم بيَّن تعالى أن جميع الأنبياء مُطْبِقون على الدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك، فقال سبحانه: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: اسأل جميعَ الرسل السابقين، والمراد: سؤال أممهم وكتبهم، والكلام على سبيل الفرض والتقدير، يعني: إن أردت أن تسأل عن صحة ما جئتَ به من عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾؛ أي: هل شرَعْنا عبادةَ غير الله، والاستفهام للنفي؛ أي: لم نجعل ذلك، والنبي ﷺ لم يسألْ أحدًا عن صحة ما هو عليه؛ لأنه على يقين من أمره، ولكن المراد من الأمرُ بالسؤال تقرير المشركين بأن الله ﷻ لم يشرع الشرك في شريعة أحد من الرسل، وأن الرسول ﷺ لم يكن بِدْعًا من الرسل.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إصرار الكفار على الكفر والإعراض عن الحق.

٢ - تيئيس الرسول ﷺ من استجابتهم مع ما هم عليه من الإعراض والإصرار.

٣ - فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

٤ - فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]

٥ - أن النبي ﷺ لا يَقْدر على هداية المُصِرِّين على الكفر.

٦ - تسلية النبي ﷺ في إصرار قومه على الكفر والتكذيب.

٧ - تهديد الكفار بالانتقام منهم إذا خرج الرسول ﷺ من بينهم، ولا سيما إذا أخرجوه.

٨ - تَعَلُّق قدرة الله بالمحال لغيره؛ لقوله: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾، وذلك لعلمه تعالى وإخباره أن تعذيبهم والرسول بينهم لا يكون، فكان لذلك محالًا لغيره، ومع ذلك أخبر تعالى أنه مقتدر عليه.

٩ - فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٦].

١٠ - أن الله قادر على أن يُعجل ما توعَّد به الكفار من العقاب، وإن كانت سُنَّته ألَّا يعذب أعداء الرسل وهم بينهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: ٣٣].

١١ - إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى؛ لقوله: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، وقوله: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾.

١٢ ـ إثبات القدرة لله تعالى.

١٣ ـ أنه يجب على النبي ﷺ والمؤمنين الاستمساك بقوة بما أنزل الله من الكتاب والحكمة.

١٤ ـ أن المقتضي لوجوب الاستمساك هو أن الرسول ﷺ على صراط مستقيم.

١٥ ـ أن النبي ﷺ فيما جاء به على حق.

١٦ ـ أن القرآن تذكير للنبي ﷺ وقومه، وفيه شرفٌ لهم.

١٧ ـ أن الذكر الجميل مطلبٌ للنفوس.

١٨ ـ أن الرسول والمرسل إليهم سيُسألون؛ هذا عن التبليغ، وأولئك عن الإجابة.

١٩ ـ إثبات البعث والحساب؛ لقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

٢١ ـ جواز سؤال أهل الكتاب عمَّا جاءت به الرسل.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

٢٣ ـ إثبات الجَعْل الشرعي؛ لقوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٢٤ ـ أن الله لم يشرع عبادة غيره في شريعة أيِّ رسول.

٢٥ ـ أن جميع الرسل جاؤوا بالدعوة إلى التوحيد، والنهي عن الشرك.

٢٦ ـ إثبات اسم الرحمٰن لله ﷻ، ردًّا على الكافرين بهذا الاسم.

***

ولمَّا كان المشركون يطعنون في نبوة نبيِّنا ﷺ احتقارًا له، واستهزاء به، ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، ذكَر اللهُ قصة موسى عليه السلام وما جرى له مع فرعون حين كذَّبه هذا الطاغية واحتقره وافتخر بملكه وسلطانه، ثم ما جرى عليه وعلى قومه من الهلاك، تسلية للنبي ﷺ وتثبيتًا لقلبه، فكلٌّ من كفار مكة وفرعون وقومه متشابهون في الطغيان وسوء العاقبة، وكثيرًا ما يقصُّ اللهُ على نبيِّه محمد ﷺ قصة موسى عليه السلام مع فرعون مبسوطة كما في سورة طه والقصص والأعراف، ومختصرة كما في هود والنمل وفي هذه السورة؛ **فقال تعالى:**

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآياتُ الإخبارَ من الله بإرسال عبده وكليمه موسى بن عمران عليه السلام بآياته إلى فرعون وقومه، وأنهم صاروا يضحكون من آيات الله ضحك تكذيب، وأخبر تعالى أن كلَّ آية يأتي بها موسى أكبر من التي قبلها، وأنه تعالى عجَّل لهم أنواعًا من العذاب؛ لعلهم يرجعون عن التكذيب، وأنهم طلبوا من موسى حينئذٍ أن يدعو بكشف العذاب عنهم، وأقسموا إن كشف العذاب أن يؤمنوا ويهتدوا، فلما كشف العذاب عنهم نكثوا أيمانهم، وتمادوا في كفرهم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام هي الموطِّئة للقسم ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: أرسلنا موسى بالمعجزات الظاهرة، والحجج الباهرة، الدالة على صدقه وصحة نبوته، وأضاف اللهُ الآياتِ إلى نفسه المقدسة؛ تشريفًا لها وتعظيمًا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ القِبطي الطاغية المتجبر المستكبر الذي قال: أنا ربكم الأعلى، وهو ملك مصر في عهد موسى ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ أي: وكبار قومه، وخُصُّوا بالذكر؛ لأن غيرهم تابع لهم ﴿فَقَالَ﴾ موسى لهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: رب جميع المخلوقات من السماوات والأرض وما فيهما؛ أي: مالكها ومدبرها، والعباد مملوكون لله تعالى، وهو القاهر فوقهم، فيجب الإيمان به، والانقياد لطاعته.

قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ موسى ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ المؤيدة لرسالته، وهي تسع آيات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، هي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص الثمرات.

وهذه الآيات التسع هي التي أُرِيَها فرعون، وأما الآيات الأخرى التي وقعت بعد هلاك فرعون، فهي آيات ونعم لبني إسرائيل بعدما فارقوا مصر ونجَّاهم اللهُ من فرعون وقومه، مثل: ضرب موسى الحجر بالعصا، وانفجار العيون منه، والتظليل بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها.

قوله تعالى: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾، ﴿إِذَا﴾ حرف مفاجأة يدل على سرعة حصول ما بعده عقب حصول ما قبله؛ أي: قابلوه بالضحك استهزاء وسخرية دون تأمل واعتبار ﴿وَمَا نُرِيهِم﴾؛ أي: وما أريناهم؛ أي: فرعون وقومه، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾

من الآيات ﴿إِلَّا هِىَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَا﴾؛ أي: أعظم من التي قبلها، ويحتمل أن المراد أن كلَّ واحدة منها عظيمةٌ في نفسها، فيحسب كلُّ من يراها أنها أعظم من الأخرى، ولكنهم لم يؤمنوا ﴿وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ﴾؛ أي: أنزلنا بهم أنواعًا من العذاب في الدنيا، وهي المصائب من الطوفان والجراد والضفادع وغيرها ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾؛ أي: لعلهم يرجعون عن الكفر إلى الإيمان.

قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: وقال فرعون وقومه حين نزل بهم العذاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾؛ أي: أيها العالم المعظَّم، وكانوا يعظِّمون السحرة ويسمونهم علماء، ولم يكن السحر عندهم مذمومًا ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ أي: ناد ربك باسمه مستغيثًا ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾؛ أي: بعَهده الذي عَهِد إليك، وما خصَّك به من المعجزات والفضائل ﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾؛ أي: لمؤمنون بك إذا كشف عنَّا، كما حكى اللهُ ذلك عنهم في سورة الأعراف: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾؛ أي: رفعنا عنهم العذاب، ويحتمل أن يكون ذلك بدعاء موسى ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾؛ أي: يفاجئون بنقض العهد، ويرجعون إلى كفرهم وعصيانهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن موسى بن عمران من رسل الله؛ بل هو أفضل الرسل من بني إسرائيل.

٢ ـ أنه أرسل بآيات، وهي تسع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وقال: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾ [النمل: ١٢].

٣ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقول موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٤ ـ غرور الكفار بما يؤتون من قوة وملك.

٥ ـ أن الآيات التي جاء بها موسى متفاوتة في الدلالة على الرسالة، فبعضها أعظم من بعض.

٦ ـ أن الاستهزاء بآيات الله من أخلاق الكفار، وأن تعظيمها من أخلاق أهل الإيمان.

٧ ـ أن الله ابتلى فرعون وقومه بالعذاب العاجل لعلهم يرجعون عن تكذيبهم.

٨ ـ إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٩ ـ أنهم خضعوا لموسى، ولكنهم لم يرجعوا عن التكذيب، ولذا طلبوا منه الدعاء بكشف العذاب، ووَعَدوا بالإيمان.

١٠ ـ أنهم أقسموا على ذلك ونكثوا لما كشف العذاب عنهم.

١١ ـ أن الساحر عندهم لقب تعظيم.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٥].

١٣ ـ اعتراف فرعون بأن ربَّ موسى هو الذي أنزل بهم العذاب، وأنه قادر على كشفه.

١٤ ـ أن دعاء الأنبياء والصالحين من أسباب كشف الشدة والعذاب.

١٥ ـ أن هذا العذاب ليس عذاب الاستئصال الذي لا ينفع الإيمان عنده.

١٦ ـ أن فرعون وقومه جاحدون لربوبية الله؛ لقولهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.

١٧ ـ الرد على الجبرية، وذلك في إضافة الأفعال إلى فرعون وقومه: ﴿يَرْجِعُونَ﴾، ﴿يَنكُثُونَ﴾.

ثم أخبر اللهُ عن تمرُّد فرعون وطغيانه بعد أن رأى آيات الله؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتَ الإخبارَ عن تمادي فرعون وقومه في طغيانهم، فلهذا نادى فرعون في قومه يفخر بُملكه وأبَّهته، ويحقِّر موسى، ويقترح لتصديق موسى آيات قد رأى ما هو أعظم منها، وأنه بهذا النداء والفخر والتحقير لموسى استخف قومه فأطاعوه في التكذيب لموسى، والإصرار على عبادة فرعون، وأنهم بذلك أغضبوا اللهَ فانتقم منهم، وجعلهم عبرة لمن بعدهم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: ونادى فرعون في مَجامع قومه فخرًا بملكه، مثبِّتًا لهم على طاعته، بعد أن رأى آيات الله التي جاء بها موسى خشية أن يؤمنوا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه استعطافًا لهم ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾؛ أي: أليس لي وحدي ملك مصر؟ والاستفهام للتقرير؛ أي: حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف وأن

يقول: بلى ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾؛ أي: والحال أن هذه الأنهار التي تشاهدونها تجري من تحت قصري، وهي فروع النيل المنبثقة منه وتُرَعه، فهي لطولها واتساعها كأن كل واحد منها نهر مستقل بنفسه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ استفهام إنكار؛ أي: أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي؟! وفي كلامه تعريض بموسى وأنه ضعيف فقير، ولهذا قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾، ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة، فهو إضراب انتقالي من الفخر بما أوتي من الملك والسلطان إلى التعالي على موسى؛ أي: بل أنا خير ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾؛ أي: ضعيف ذليل فلا جند لديه ولا خدم ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ أي: لا يقرُب أن يبين الكلام، وكان في لسان موسى أول الأمر حُبسةٌ أو لُثغة، ثم إنه سأل اللهَ أن يحلها بعد النبوة بقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨]، فأجاب الله دعاءه، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، فهذا الكلام من فرعون أراد به الحطَّ من شأن موسى باعتبار ما كان يعلمه من حاله قبل، فهو افتراء منه على موسى بأنه لا يقدر على البيان، وإذا كان موسى عند فرعون مهينًا فهو عند الله وجيه، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ولقد ألقى اللهُ عليه محبَّة منه، وصَنَعه على عينه، كما قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وخاطبه الله بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

قوله تعالى عن فرعون: ﴿فَلَوْلَآ﴾، (لولا) حرف يطلب به حصول ما بعده، ويسمَّى حرف تحضيض ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾ جمع سِوار ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾؛ أي: فهلَّا ألبسه مَن أرسله أسورةً من ذهب؛ دلالة على أنه رسول، قيل: كانوا إذا نصبوا رجلًا رئيسًا عليهم ألبسوه سوارين من ذهب ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾؛ أي: هلَّا جاء معه الملائكةُ يتبع

بعضُهم بعضًا، يصاحبونه لتأييده والدفاع عنه، و﴿أَوْ﴾ للترديد؛ أي: إما هذا وإما هذا، وقول فرعون: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقتضي أنه كان يُقِرُّ بالملائكة أو يعرف عنهم، ولم يذكر أحد من المفسرين أن فرعون وقومه كانوا يؤمنون بوجود الملائكة، والأقرب أن فرعون قال ذلك مجاراة لموسى؛ فلعله أخبره بهم، كما جاراه في أن إلٰهه في السماء، فلهذا قال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨].

قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾؛ أي: فاستخَفَّ عقولَهم وصرفهم عمَّا يوجبه العقل والنظر، فأطاعوه إلى ما دعاهم إليه من الكفر والضلال، وكذَّبوا موسى عليه السلام ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ أي: كافرين خارجين عن طاعة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا بكفرهم وفسادهم ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بتعجيل العذاب لهم في الدنيا ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: فأغرقنا فرعون وقومه في اليم أجمعين، فكان هلاك الطاغية بالماء الذي افتخر به ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ السَّلف هو المتقدم؛ أي: جعلنا فرعون وقومه قدوة لمن بعدهم من الكفار ممن يعمل مثل عملهم، فيصيبه مثل ما أصابهم من العذاب، كما قال الله في فرعون وقومه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾؛ أي: عبرة وعظة لمن بعدهم تسير فيهم مسير الأمثال لكونها من أحداث التاريخ العجيبة.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ الرد على المشركين في طعنهم في نزول القرآن على النبي محمد ﷺ على قلة ذات يده، وأنَّ شُبهتهم في ذلك هي شُبهة فرعون في طعنه في رسالة موسى عليه السلام، ففرعون سلفهم، وموسى سلف محمد ﷺ.

٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

٣ ـ أن لقصة موسى عليه السلام في كل موضع وردت فيه من القرآن مناسبةً تقتضيها.

٤ ـ أن الطواغيت من الكفرة ـ وهم المستكبرون ـ هم الذين يُضِلون أقوامَهم، ويصدونهم عن اتباع الرسل.

٥ ـ أن الطعن في دعوة المصلحين من الأنبياء والصالحين حيلة العاجزين عن ردِّ الحجة بالحجة.

٦ ـ استفزاز المستكبرين للمستضعفين بما أوتوا من قوة وسلطان.

٧ ـ أن الجهل وخفة العقل سبب للتقليد الأعمى.

٨ ـ أن الفسق والخروج عن طاعة الله سبب لعمى البصائر.

٩ ـ إثبات صفة الغضب لله.

١٠ ـ أن من آثار غضب الله: الانتقام من الكفرة، **ففيه**: الرد على من تأوَّل الغضب بالانتقام.

١١ ـ أن فرعون وقومه أهلكوا بالغرق.

١٢ ـ أن الله جعل لكل قوم سلفًا ووارثًا.

١٣ ـ إثبات الجَعْل الكوني من الله تعالى.

١٤ ـ الإرشاد إلى الاعتبار بقصص المهلَكين الذي جاء في القرآن.

ولمَّا ذكر اللهُ في صدر هذه السورة جملة من شُبهات المشركين وتعنُّتاتهم من قولهم: لو شاء الله ما عبدناهم، وقولهم: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وقولهم: هذا سحر، وقولهم: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، ونظَّرهم بفرعون في عناده وتكذيبه لرسول الله موسى = ذكَر اللهُ نوعًا آخر من اعتراضهم على النبي ﷺ، وهو ضرب المثل بعيسى عليه السلام، وتأليه النصارى له؛ اعتراضًا منهم على قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، الآيات، حسبما ورد في سبب نزول هذه الآيات؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ عن جدل المشركين وإلقائهم الشبهات في معارضة القرآن، ومن ذلك: ضرب أحدهم المثل بالمسيح عليه السلام في معارضة قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وإعجابهم بهذه الشبهة، ثم أخبر تعالى عن حقيقة المسيح، وأنه عبدٌ لله ليس إلا، وقد أنعم اللهُ عليه بالنبوة، ثم أخبر تعالى أنه قادر على أن يجعل سكان الأرض ملائكة بدلًا من الناس، فيرسل إليهم رسلًا من الملائكة، وأنه جعل المسيح علَمًا على الساعة، والمراد: نزوله آخر الزمان، ثم نهى تعالى على لسان نبيّه ﷺ عن الشك في أمر

الساعة، وأنه ﷺ دعا إلى اتباعه؛ لأنه على صراط مستقيم، ونهى عن طاعة الشيطان؛ لأنه الصاد عن صراط الله؛ لعداوته البيِّنة.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ الذي عليه أكثر المفسرين في سبب نزول هذه الآية أن قريشًا لما سمعت قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي: حطبها ووقودها، قالوا لرسول الله ﷺ: إن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، أيكون في النار مع مَن عَبَده؟! وارتفعت أصواتهم بالضجيج والجلبة فرحًا بهذه الحجة، فأنزل اللهُ الآية[1].

وقد بيَّن اللهُ في آية أخرى أن المسيح والملائكة وصالحي المؤمنين مُستثنَون من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، فهذه الآية مخصصة للعموم في الآية السابقة، فهي منها بمنزلة الاستثناء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾؛ أي: جُعل مثَلًا، والذي ضرب المثل هم كفار قريش، أو بعضهم، والمثَل في الآية هو الممثَّل به والمشبَّه به، فهم يقولون: إذا كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من ذلك المثل؛ أي: لأجله وبسببه ﴿يَصِدُّونَ﴾؛ أي: يضِجُّون ويصيحون فرحًا وسرورًا ظنًّا منهم أنهم خصَموا رسول ﷺ وغلبوه بالحجة، والتعبير بقومك للتعجيب منهم؛ إذْ كيف يكون هذا منهم مع صاحبهم؟

---

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (٢٩١٨)، ط. مؤسسة الرسالة، وحسن إسناده محققوه، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٢٩٢١): «إسناده صحيح».

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟﴾؛ أي: قال المشركون: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؛ أي: أمعبوداتنا خيرٌ أم عيسى؟ فإن كان عيسى في النار فلنكن نحن وآلهتنا معه ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ﴾؛ أي: المثَل ﴿إِلَّا جَدَلًۢا﴾ مفعول لأجله؛ أي: لأجل الجدل لا لطلب الحق، فهم لا يعتقدون صحة حجتهم؛ لأنهم يعرفون اللغة ومدلولاتها، فلا يخفى عليهم أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، حيث ذُكر المعبودون بلفظ ﴿ما﴾ وهي لغير العقلاء، فظهر أن المراد الأصنام، ولم يقل: (ومَنْ تعبدون)، وعلى هذا فلا تتناول الآيةُ مَن عُبد من دون الله من الأنبياء ـ كعيسى ـ والملائكة والصالحين، فالمشركون أرادوا المغالطة، ولهذا قال الله عنهم: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾؛ أي: شديدو الخصومة والجدال، جمع خَصِم، وصيغة فَعِل ـ بفتح العين كسر العين ـ للمبالغة و﴿بَلْ﴾ حرف إضراب وانتقال، وهو هنا للترقِّي ببيان أن عادة القوم الخصومة، والجدال في كل حق.

ثم بيَّن اللهُ أمرَ عيسى بقوله سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾؛ أي: ما هو إلا عبد من عبادنا ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة والمعجزات ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: صيَّرناه عبرة عجيبة لبني إسرائيل وهم أعلم الناس به، فهو كالمثل السائر لغرابته؛ يُستدل به على قدرة الله تعالى، حيث خلقه من غير أب.

قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً﴾ الخطاب لكفار مكة، ويحتمل أن يكون عامًّا لهم ولغيرهم؛ أي: ولو نشاء لجعلنا بدلًا منكم ملائكة، فمعنى ﴿مِن﴾ البدلية والعِوض، كما في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨]، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾؛ أي: يخلفونكم في عمارة الأرض، ولا يكون منهم شرك ولا معصية، والله لا

يعجزه شيء، وله الحكمة البالغة، كما قال سبحانه: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾؛ أي: علامة واضحة من علامات الساعة الكبرى، حيث ينزل من السماء قبيل قيام الساعة إمامًا عادلًا، وحَكَمًا مقسطًا، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحيحة، قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**»[1].

قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾؛ أي: فلا تشكُّنَّ في قيام الساعة ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾؛ أي: وقل لهم ـ أيها الرسول ـ اتبعون فيما أدعوكم إليه من طاعة الله ﴿هَٰذَا﴾ الذي أدعوكم إليه ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: طريق قويم موصل إلى النجاة، وهو دين الإسلام ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ﴾؛ أي: لا يصرفنَّكم عن هذا الصراط ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: واضح العداوة، فاحذروه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إلقاء المشركين الشبهات في معارضة القرآن.

٢ ـ أن من شبهاتهم: ضربهم المثل بعيسى عليه السلام في معارضة قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

٣ ـ أن أهل الباطل ينتزعون الشبهات من بعض الآيات، تلبيسًا على الناس.

٤ ـ أن ضرب المشركين المثل بعيسى عليه السلام في معارضة آية الأنبياء

(١) البخاري (٢٣٤٤)، ومسلم (١٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كان محضَ جدل؛ لأن آية الأنبياء لا تدل على ما زعموا من دخول المسيح في معناها.

٥ ـ أن كفار قريش أهل خصومة وجدل.

٦ ـ ذمُّ الجدل بالباطل.

٧ ـ أن الجدَل أخصُّ من الجدال، فكل جدَل جِدالٌ، وليس كل جِدال جدَلًا.

٨ ـ أن حقيقة المسيح أنه عبد من عباد الله أنعم الله عليه بالنبوة.

٩ ـ إثبات العبودية الخاصة لعيسى عليه السلام.

١٠ ـ أن لعيسى عليه السلام خصائص ليست لغيره؛ كرفعه حيًّا، ونزوله حكَمًا مقسطًا.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

١٢ ـ أن الله جعله آية لبني إسرائيل.

١٣ ـ أن بني إسرائيل أخصُّ بعيسى عليه السلام وأعلم بأمره، ولهذا كان مثَلًا لهم، وهو آية لجميع الناس، كما قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١].

١٤ ـ الرد على النصارى في تأليههم المسيح.

١٥ ـ الرد على اليهود في تكذيبهم للمسيح.

١٦ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

١٧ ـ إثبات الجَعْل الكوني.

١٨ ـ أن الله تعالى قادر على أن يجعل سكان الأرض ملائكة بدلًا من بني آدم.

١٩ ـ إثبات الملائكة.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

٢١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

٢٢ ـ ذكر الله نفسه بضمير الجمع المفيد للتعظيم في قوله: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ﴾، و﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾.

٢٣ ـ أن الله جعل عيسى عليه السلام عَلَما من أعلام الساعة، وذلك حين ينزل آخر الزمان.

٢٤ ـ أن الساعة لا ريب فيها.

٢٥ ـ أن من أسماء القيامة الساعة.

٢٦ ـ وجوب اتباع النبي ﷺ.

٢٧ ـ وجوب الحذر من طاعة الشيطان.

٢٨ ـ أن عداوة الشيطان للإنسان عداوة بينة.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ عن إرسال عيسى عليه السلام بالبينات إلى بني إسرائيل، وأنه بيَّن لهم الحكمة من إرساله إليهم، وقرَّر المسيح لهم ربوبيته تعالى له ولهم، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأخبرهم أن الإقرار بربوبيته تعالى وإلٰهيته صراط مستقيم، ثم أخبر تعالى أن بني إسرائيل اختلفوا في المسيح؛ فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وهم الظالمون، ثم توعَّد اللهُ الظالمين المكذبين بعيسى عليه السلام بالعذاب الأليم، ثم أخبر عن قرب الساعة، وأنها آتية الناس بغتة، وهم لا يشعرون.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، (لمَّا) ظرفيَّة مضمَّنة معنى الشرط؛ أي: ولما جاء عيسى بالآيات الواضحات الدالة على أنه رسول من عند الله ﴿قَالَ﴾ هذا جواب الشرط؛ أي: قال لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾؛ أي: بالشريعة الحكيمة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾؛ أي: وجئتكم لأبين لكم ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾؛ أي: من أمور الدين مما تحتاجون إلى بيانه، وهو ما اختلفت فيه أفهام بني إسرائيل من أحكام التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام؛ فعيسى عليه السلام مكمِّل لما جاء به موسى عليه السلام من

الشرائع، ومسهِّل عليهم في بعض ما شدِّد عليهم، كما قال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: اجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه ولا تعصوني ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾؛ أي: إن الله ـ وحده ـ هو خالقي وخالقكم، وهو الذي ربَّانا جميعًا بنعمه ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾؛ أي: فأخلصوا له العبادة والطاعة ﴿هَٰذَا﴾ الذي أدعوكم إليه ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؛ أي: طريق لا عوج فيه، وهو موصل إلى الله وإلى جنته، وهو الدِّين الحق الذي لا يُقبل من أحد دينٌ سواه.

قوله سبحانه: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾؛ أي: فاختلفت الفرق ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾؛ أي: من بين الذي بعث إليهم عيسى من اليهود والنصارى؛ وهذا الاختلاف جاء تفصيله في القرآن في مواضع كثيرة، فقد آمن بعيسى طائفة، وكفرت به طائفة وهم جمهور اليهود، وقالوا عنه: ابن زنا، واختلفت النصارى فيه؛ فمنهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: هو ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة، وهؤلاء كلهم من الكفار بعيسى والمختلفين فيه سمَّاهم الله ظالمين، وتوعَّدهم اللهُ بالعذاب الأليم، فقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك وعذاب ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من هؤلاء وغيرهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: مؤلم، وهو صفة لعذاب، ويحتمل أن يكون صفة ليوم على معنى: يوم أليمٍ عذابُه، ويؤيد هذا ورود هذا الوصف مجرورًا مع نصب المضاف في قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥].

وإعراب الجملة: ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ، وجاز الابتداء به وهو نكرة لما فيه من معنى الدعاء ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ خبر المبتدأ؛ أي: عذاب كائن

لهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ خبر ثان، أو حال؛ أي: حال كونه كائنًا من عذاب يوم القيامة لا من عذاب الدنيا، و﴿مِنْ﴾ ابتدائية.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام بمعنى النفي؛ أي: ما ينتظر هؤلاء المختلفون في عيسى إلا الساعة؛ أي: القيامة، وسمَّاها اللهُ ساعة؛ لأنها تقع في ساعة من الزمان، وأقلُّ ما يصْدُق عليه اسم الساعة اللحظةُ ونحوها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧]، أو لأنها تفجأ الناس بغتة؛ أي: فجأة، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ الجملة بدل من الساعة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: وهم لا يُحسُّون بمجيئها.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن عيسى عليه السلام رسول؛ بل هو أفضل رسول لبني إسرائيل بعد موسى، وهو أحد أولي العزم الخمسة.

٢ ـ أنه عليه السلام جاء بآيات بينات، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ﴾ [المائدة: ١١٠].

٣ ـ أنه جاء بالحكمة، وهي الشريعة المشتملة على العلم الصحيح والعمل الصالح.

٤ ـ الحكمة من إرسال عيسى عليه السلام، وهي بيان بعض ما اختلف فيه بنو إسرائيل.

٥ ـ ذكر ما دعا إليه المسيح بني إسرائيل من تقوى الله وطاعته، والإقرار بربوبيته وإلٰهيته، وأن هذا الاعتقاد صراط مستقيم؛ من سلكه نجا، ومن تَنَكَّبه هلك.

٦ ـ إثبات الربوبية العامة لله تعالى.

٧ ـ ذم الاختلاف في الدين.

٨ ـ إثبات العذاب للظالمين في يوم الدين.

٩ ـ أنه عذاب أليم.

١٠ ـ اختلاف بني إسرائيل في شأن المسيح من مولده ونبوته.

١١ ـ أن تكذيب المسيح وغيره من الرسل من أظلم الظلم؛ كالشرك بالله.

١٢ ـ إثبات الساعة، وهي القيامة، وأنها آتية لا محالة.

١٣ ـ أنها تأتي الناس بغتة.

ولـمَّا ذكر اللهُ الساعةَ وهي القيامة أخبر بما يكون من بعض أحوالها؛ **فقال سبحانه:**

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ من الله أنه في يوم القيامة تنقطع الصِّلات العاديَّة بين الناس، فتنقلب المودة عداوة، ولا يبقى إلا المودة في الله بين المتقين، وأن الله يقول لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، ووصف المتقين بالإيمان الإسلام، ثم أخبر تعالى أنه يقال للمتقين: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ وأنه يطاف عليهم في الجنة بصحاف وأكواب من ذهب، وفيها المطاعم والمشارب الشهيَّة الحسنة المنظر، ويُبشَّرون بالخلود في الجنة، ويُخبَرون أنهم أعطوا الجنة بما كانوا يعملون، وأن لهم فيها فاكهة كثيرة منها يأكلون.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ مبتدأ؛ أي: الأصدقاء الذين جمعتهم المعصية، جمع خليل ﴿يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ خبره؛ أي: يوم القيامة، فتنقلب صداقتُهم إلى عداوة، ويتبرأ بعضُهم من بعض ﴿إِلَّا

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين كانوا يخافون عذاب الله، ويرجون ثوابه، ويعملون بطاعته، ويجتنبون معاصيه، فهؤلاء تحابوا في الله واجتمعوا على طاعته، فمحبتهم ثابتة لا تزول، فكلُّ أخوَّة في الدنيا فهي منقطعة في الآخرة إلا ما كان في الله. والاستثناء في الآية منقطع؛ لأن الأخِلَّاء من المتقين ليسوا من الأخِلَّاء الذين جمعتهم المعصية.

ويخاطب اللهُ أهلَ التقوى ويُضيفهم إلى نفسه المقدسة؛ تكريمًا لهم بقوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ أصلها: يا عبادي، حذفت الياء للتخفيف ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم العصيب ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾؛ أي: ولا أنتم تحزنون على شيء فاتكم من الدنيا، ونفي الخوف والحزن يستلزم ثبوت ضدهما؛ أي: فأنتم في طمأنينة وسعادة؛ إذْ فزتم بأعظم ثواب ونجوتم من العقاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الجملة مستأنفة جواب لسؤال مقدر؛ كأنه قيل: مَن هم؟ فقال: هم الذين آمنوا؛ أي: الذين صدَّقوا بآياتنا، وهي ما بعث اللهُ به رسله من الآيات الدالة على ربوبيته تعالى وإلٰهيته وعلى صدق رسله، وأضاف اللهُ الآيات إلى نفسه بصيغة الجمع تعظيمًا لها ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ الجملة معطوفة على جملة صلة الموصول؛ أي: مستسلمين لحكم الله منقادين لشرعه ظاهرًا وباطنًا أتَمَّ انقياد، على ما تفيده (كان) من معنى الاستمرار.

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ الجملة مقول قول محذوف؛ أي: وقيل لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ هذا أمر إكرام ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾؛ أي: نظراؤكم في الإيمان والإسلام والتقوى، ليكمل أنسُهم ونعيمُهم، وقال بعض المفسرين: أي: زوجاتكم المؤمنات في الدنيا؛ لأن نظراءهم منهم، وداخلون في الخطاب من قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تفرحون وتسرُّون سرورًا عظيمًا يظهر حِبارُه ـ أي: أثره ـ على وجوهكم، يقال:

حَبَره يحبُره حَبْرًا إذا سرَّه، وبابه نصر، قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

ففي هذه الآيات خاطب اللهُ المؤمنين بأربعة أمور:

١ ـ نفي الخوف.

٢ ـ نفي الحزن.

٣ ـ الأمر بدخول الجنة.

٤ ـ البشارة بالسرور في قوله: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾.

ثم ذكَر اللهُ حالَهم إذا دخلوا الجنة فقال سبحانه: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾؛ أي: يدار عليهم ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾؛ أي: بآنية للطعام، ومفردها صَحْفة ﴿وَأَكۡوَابٖ﴾ من ذهب، جمع كُوب وهي آنية الشراب التي لا عُرى لها ليشرب الشارب من نواحي الكُوب كلها، وجاء في القرآن أنَّ مِن أهل الجنة مَن له آنية وأكواب من فضة أيضًا، قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]، وأكل أهل الجنة وشرابهم باعثه التلذُّذ، لا لجوع أو عطش.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا﴾؛ أي: وفي الجنة أو في تلك الصحاف والأكواب من المطاعم والمشارب، ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾؛ أي: كلُّ ما تشتهيه نفوس أهل الجنة، وكلُّ مشتهياتهم سامية لائقة بعالم الخلود والسُّمُو، فشهواتهم في الآخرة ليست كشهواتهم في الدنيا ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾؛ أي: تلَذُّه أعينهم؛ أي: تستمتع به من المرئيات، وأعظم ذلك: النظر إلى وجه الله الكريم، وذكر الأعْيُن؛ لأنها طريق إلى لذة النفس.

ولْيُعْلَم أن قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾

من الكلام البليغ المُعجِز؛ إذْ جَمعت هاتان الجملتان من نعم الجنة ما لا تحصره الأفهام، ولا تبلغه الأوهام، قال بعض البلغاء: جُمع بهاتين اللفظتين ما لو اجتمع الخلقُ كلُّهم على تفصيله لم يخرجوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ اعتراض بين أجزاء القول، فائدته بيان ما يمتعون به من المطاعم والمشارب وغيرها، وليس في الكلام التفات.

ثم يُبشَّرون بالخلود فيقال لهم: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ خلودًا أبديًّا، فلا يخرجون من الجنة ولا يبغون عنها حولًا ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة؛ أي: تلك التي ترونها هي الجنة ﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ صفة للجنة؛ أي: أُعطِيتموها بسبب عملكم الصالح، وعبَّر تعالى عن إعطائه وتفضُّله بالميراث؛ لأنه أقوى أسباب الملك؛ لحصوله حتمًا من غير اختيار وشعور، ولا تعب ولا منازعة، ويحتمل أن المراد ورثوها من الكفار، وبه قال بعض المفسرين، ويؤيده قوله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]»[١].

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ صفة ثانية للجنة؛ أي: لكم فيها من أنواع الفاكهة ما لا يدخل تحت الحصر لكثرته، سوى الطعام والشراب ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: من تلك الفاكهة تأكلون متى شئتم، وكيفما اخترتم.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٣٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصحح إسناده الحافظ في الفتح (٤٥١/١١)، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢٦٦/٤): «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تغيُّر أحوال النفوس يوم القيامة في الحب والبغض.

٢ ـ استحالة المودة بين الأخِلَّاء إلى عداوة.

٣ ـ دوام المحبة في الله، وهي التي بين المتقين.

٤ ـ الترغيب في الحبِّ لله.

٥ ـ إثبات العبودية الخاصة لله تعالى.

٦ ـ أن من صفات المتقين: الإسلام والإيمان بآيات الله.

٧ ـ أنهم يُبَشَّرون عند دخول الجنة بالأمن من الخوف والحزن.

٨ ـ أن من نعيم أهل الجنة: أنه يُطاف عليهم بصحاف وأكواب من ذهب.

٩ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: **«لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها؛ فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»**[1].

١٠ ـ أن في الصحاف والأكواب من المطاعم والمشارب ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعْيُن.

١١ ـ أن في الجنة من أنواع النعيم ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعْيُن.

١٢ ـ أن نعيم الجنة شامل لكل ما تتمتع به الحواس، وأعظم ذلك: النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلام الرب الرحيم.

١٣ ـ خلود أهل الجنة فيها أبد الآباد.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) البخاري (٥١١٠)، ومسلم (٢٠٦٧) عن حذيفة رضي الله عنه.

١٥ ـ أن الجنة عطاءٌ من الرب من غير عوض قدَّموه؛ لقوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾.

١٦ ـ أن سبب دخول الجنة العمل الصالح.

١٧ ـ إثبات الأسباب، والردُّ على من أنكرها.

١٨ ـ كثرة الفواكه في الجنة، وقد دلت آيات أخرى على أن فاكهة الجنة أنواع وألوان، قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمٰن: ٥٢].

ولمَّا ذكر تعالى وَعْده للمتقين أتبعه بوعيد المجرمين؛ **فقال سبحانه:**

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ عن مصير المجرمين، وأن عذابهم لا يُفتَّر عنهم، وأنهم آيسون من الخلاص حتى إنهم يتمنون الموت، ثم أخبر تعالى أنه لم يظلمهم بهذا العقاب، ولكنهم ظلموا أنفسهم، وبعد الخبر عن حال أهل النار يتوجه الخطابُ إلى الكفار الموجودين في الدنيا؛ توبيخًا لهم على إصرارهم على الكفر بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾، وهو ما تقدم من الوعد والوعيد، ثم توعَّدهم على تدبيرهم الكيد لرد الحق بأنه تعالى سيدبر ما به الانتقام منهم، ثم وبَّخهم على سوء ظنهم بالله أنه لا يسمع سِرَّهم ونجواهم، وأخبر أن أعمالهم مُحصاة عليهم يكتبها رُسُلُ الله الموكَّلون بهم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين، والمجرم في لغة القرآن هو الكافر، وسمَّاه الله بذلك؛ لأنه جاء بالجُرم العظيم، وهو الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا

يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: النار، وهي مشتقة من الجُهُومة وهي الغِلَظ، سُمِّيتْ بذلك؛ لغِلَظ عذابها وشدته، وهي ممنوعة من الصرف؛ للعلمية والتأنيث ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: خلودا أبديًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وافتتاح الآية بـ ﴿إِنَّ﴾ لتأكيد الوعيد.

قوله سبحانه: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ من الفُتور؛ أي: لا يُخفَّف العذاب ولا يسكن عن هؤلاء المجرمين طَرفة عين ﴿وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾؛ أي: يائسون من تخفيف العذاب، من الإبلاس وهو اليأس ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾؛ أي: وما ظلمنا المجرمين بذلك العذاب، والظلم مستحيل في حقه تعالى؛ لكمال عدله، وإن كان قادرًا عليه ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿هم﴾ ضمير فصل وتوكيد لا محل له من الإعراب، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبر كان؛ أي: ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم؛ حيث أوردوها موارد الهلاك بتكذيبهم وكفرهم.

ثم ذكر اللهُ ما يقوله أهل النار وما يُجابون به، فقال سبحانه: ﴿وَنَادَوۡاْ﴾؛ أي: عند شدة العذاب ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو اسم خازن النار ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ من القضاء الذي هو الموت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ [القصص: ١٥]، واللام في ﴿لِيَقۡضِ﴾ لام الأمر بمعنى الدعاء؛ أي: لِيُمِتْنا ربُّك فنستريح من هذا العذاب، ويجيبهم مالك بقوله: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾؛ أي: مقيمون في العذاب أبدًا، ولم يذكر متى أجابهم مالك، والظاهر أنهم أُهينوا بتأخير الجواب. وهنا ينتهي كلام مالك عليه السلام.

قوله سبحانه: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ هذا خطاب توبيخ من الله لكفار قريش في الدنيا، وحضٌّ لهم على الإيمان؛ أي: لقد جئناكم بالدين

الحق على لسان الرسول ﷺ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فلا يقبلونه.

ويحتمل أن قوله: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أنه من قول مالك للكفار في النار، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

قوله سبحانه: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا﴾ التفات من الخطاب إلى الغَيبة؛ إعراضًا عنهم، وتحقيرًا لهم، و﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة المقدرة بـ(بل) والهمزة، فهي للإضراب الانتقالي، فهو انتقال من الكلام السابق، وهو ذكر كيفية عذابهم في الآخرة، إلى ذكر حالهم في الدنيا؛ أي: بل أَأَحكموا تدبيرهم في الكيد للنبي ﷺ وإبطال دعوته، وأصل الإبرام إحكامُ فتل الحبل، استعير لتدبير الأمور وإتقانها ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ هذا تهديد لهم؛ أي: مُحكِمون أمرَنا في مُجازاتهم، وفي حماية النبي ﷺ ونصرته، والكلام في معنى الشرط؛ أي: إن أبرموا أمرًا فإنا مُبرِمون، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾؛ أي: بل أيظنون أنا لا نسمع ما يُسرون به في أنفسهم من التكذيب والكيد، وما يتناجون به من ذلك فيما بينهم من الكلام الخفي، وفي الاستفهام توبيخ لهم وتجهيل ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب معناه: إثبات ما نُفي قبله؛ أي: بلى نحن نسمع سرهم ونجواهم ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ﴾؛ أي: الملائكة الحفظة للأعمال عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ كل ما يصدر منهم من أقوال وأفعال، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ التعاقب في الآيات بين الوعد والوعيد.

٢ ـ أن مصير المجرمين ـ وهم الكفرة ـ الخلود في جهنم.

٣ ـ إثبات جهنم ودوامها.

٤ ـ أن من أسماء النار جهنم.

٥ ـ أن لنار جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ طبيعةً تخالف طبيعة نار الدنيا؛ إذ لا تتلف ما يلقى فيها.

٦ ـ أن أهل النار فيها لا يموتون.

٧ ـ أن عذابهم في جهنم لا يخفف؛ **ففيها**: شاهد لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

٨ ـ أنهم في العذاب آيسون من النجاة، وآيسون من رحمة الله.

٩ ـ أن الله لم يظلمهم بهذا العذاب؛ بل هم الظالمون لأنفسهم بالكفر.

١٠ ـ أن اسم خازن النار مالك.

١١ ـ أنهم ينادون مالكًا خازن النار يستشفعون به ليَقضي الله لهم بالموت.

١٢ ـ أن مالكًا يردُّ عليهم: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾.

١٣ ـ أن أهل النار يسمعون ويتكلمون ويدركون، فهم ينادون مالكًا، ويجيبهم، ويسمعون قوله، ويتلاومون ويلعن بعضهم بعضًا، ولكن ليس هذا شأنهم دائمًا بل في حال، وفي حال أخرى هم بخلاف ذلك، فلا يسمعون ولا يتكلمون، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ

وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥] وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] وقال سبحانه: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]. فأهل النار لهم فيها أحوال وشؤون، نسأل الله السلامة.

١٤ ـ أن نار الآخرة تُخالِف نارَ الدنيا، فنار الدنيا مَن دخلها تَعَطَّل إدراكُه، وفَقَد إحساسَه، أما نار الآخرة فيتكلم أهلها ـ في بعض أحوالهم ـ ويسمعون ويدركون؛ ليحصل منهم التلاوم والندم، والاعتراف بالكفر، وتمنِّي الرجعة، وليسمعوا التقريع والتوبيخ.

١٥ ـ أن ما أخبر الله به من الوعد والوعيد هو الحق؛ بل كل ما أخبر الله به فهو حق كما أخبر.

١٦ ـ أن أكثر الناس كارهون للحق.

١٧ ـ أن كراهة الحق من سمات الكفار.

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

١٩ ـ أن الكفار يدبِّرون المكايد للرسول ﷺ والمؤمنين، ولكن الله يدبر ما يبطل تدبيرهم، ويرد كيدهم.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

٢١ ـ سوء ظن الكفار بالله أنه لا يسمع سرهم ونجواهم.

٢٢ ـ أن الله يسمع السر والنجوى.

٢٣ ـ وجوب مراقبة الله في السر والعلانية.

٢٤ ـ أن الله وكَّل بالعباد ملائكة يكتبون أعمالهم.

٢٥ ـ أن الحفَظة من الملائكة رسل من رسل الله.

ولمَّا ذكر اللهُ في أول السورة عن المشركين قولهم: إن الملائكة بنات الله، أمر اللهُ رسولَه أن يجيبهم؛ فقال سبحانه:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات أَمْرَ الله لنبيِّه ﷺ أن يقول للمشركين: إن كان للرحمٰن ولد فأنا أول العابدين له سبحانه، وهذا تعليق على مستحيل، ثم يسبح النبيُّ ربه رب السماوات ورب الأرض ورب العرش عن أن يكون له ولد؛ وعن كل ما يصفه الجاهلون والمفترون، ويأمر اللهُ نبيَّه أن يعرض عن المشركين، ويتركهم في خوضهم ولعبهم حتى يأتي اليوم الموعود الذي توعَّدهم اللهُ فيه بعقابه، ويخبر تعالى بأنه إلٰه أهل السماوات وأهل الأرض؛ فهو المعبود بحق في السماوات وفي الأرض، ويثني على نفسه بأنه حكيم عليم، وينزه تعالى نفسه عن النقائص والعيوب، ويثني على نفسه بعموم المُلك وعلم الساعة، وأنه يُرجع إليه العباد في يوم المعاد.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول لهؤلاء المشركين: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾؛ أي: إن كان لله ولد افتراضًا جدليًا ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾؛

أي: فأنا أول العابدين لله ولو كان له ولد، وهذا غاية التوحيد والمبالغة في نفي الولد؛ لأنه تعليق بالمحال؛ فالله ممتنع في حقِّه الولد والزوجة، فالمعلَّق بالمحال محالٌ مثله.

قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يحتمل أن تكون هذه الجملة من تمام مقول القول؛ أي: الكلام الذي أُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يقوله، ويجوز أن تكون من كلام الله ابتداءً، تنزيهًا لنفسه عن الولد وغيره ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: تنزيهًا وتقديسًا لله خالقِ السماوات والأرض والمتفرد بتدبيرهما ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: خالقه والمختص به سبحانه، والعرش هو سرير المُلك العظيم الذي استوى عليه ربنا ﷻ، وخصَّه اللهُ بالذكر بعد ذكر ربوبيته للسماوات والأرض تشريفًا للعرش، ولأنه أعظم مخلوقاته تعالى وأوسعها، وهو سقف المخلوقات كلها ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: تنزَّه تعالى عمَّا يصفه به الكافرون ممَّا ينافي ربوبيته وإلٰهيته وأسماءه وصفاته، ومن ذلك: نسبة الولد إليه تعالى.

قوله سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، الفاء ﴿فَذَرْهُمْ﴾ للتفريع، فالكلام مُفرَّع على ما قبل؛ أي: إذا ثبت بالدليل القاطع انتفاءُ الولد عن الله، وهم مُصِرُّون على هذا القول مع كفرهم بالله ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أيها الرسول ﴿يَخُوضُوا۟﴾ في ضلالهم وأباطيلهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ باشتغالهم في دنياهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ﴾ وهو يوم البعث والقيامة، وأضافه إليهم؛ لأنه يوم جزائهم ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾؛ أي: الذي يوعدون فيه بالعذاب، فسيعلمون عاقبة أمرهم حيث لا ينفعهم هناك توبة ولا ندم، وهذا تهديد لهم.

ولمَّا نزَّه سبحانه نفسه عن الولد أخبر بإلٰهيته لأهل السماوات

والأرض، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾؛ أي: وهو تعالى ـ وحده ـ المعبود في السماء بحق، والمعبود في الأرض بحق ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: الذي يضع الأشياء في مواضعها، فهو تعالى حكيم في أمره وصُنعه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ أي: العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء ﴿وَتَبَارَكَ﴾؛ أي: تعالى وتَعَاظَم وتَقَدَّس، وتزايدت بركاته وخيراته ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: الذي له ـ وحده ـ مُلك السماوات والأرض خلقًا وتدبيرًا ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: من جميع ما خلق الله بين السماوات والأرض مما على الأرض من الإنس والجن والحيوان والنبات والجبال، أو في السماء من الشمس والقمر والكواكب والسحاب، فكلُّ هذه المخلوقات العظيمة مِلك لله تعالى، ويدل على عظمتها عطفُها على السماوات والأرض.

قوله سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: وعنده تعالى ـ وحده ـ علم القيامة، لا يعلم وقتها إلا هو ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تعليم الله نبيَّه محمدًا ﷺ الاحتجاج على المشركين، في قوله: ﴿قُلْ﴾.

٢ ـ إثبات اسم الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وما دلَّ عليه من صفة الرحمة.

٣ ـ جواز فرض المستحيل عند مناظرة المشركين.

٤ ـ أن الالتزام بالمعلَّق على المستحيل لا يلزم منه وقوعه.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

٦ ـ تنزيه الله عن النقائص والعيوب.

٧ ـ عموم ربوبيته ﷻ لكل شيء.

٨ ـ أن عموم ربوبيته تعالى برهانٌ على تنزيهه عن الولد.

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٦].

١٠ ـ فيها شاهد لقوله سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

١١ ـ ذمُّ الكفار بالخوض بالباطل واللعب.

١٢ ـ أن الأمر بتركهم والإعراض عنهم تهديدٌ لهم.

١٣ ـ إثبات البعث.

١٤ ـ أن الله تعالى هو الإلٰه الحق المستحق للعبادة في السماوات والأرض.

١٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، وهما: ﴿الْحَكِيمُ﴾ و﴿الْعَلِيمُ﴾، وما دلَّا عليه من صِفَتي الحكمة والعلم لله تعالى.

١٦ ـ تقديس الله نفسه عن كل نقص وعيب.

١٧ ـ عموم ملك الله للسماوات والأرض وما فيها.

١٨ ـ أن علم الساعة عند الله وحده، فلا يعلم متى الساعة إلا الله.

١٩ ـ إثبات عندية العلم؛ لقوله: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

٢٠ ـ أن العباد راجعون إلى الله، وذلك بموتهم ثم بعثهم، ومجازيهم على أعمالهم.

ولمَّا أثبت تعالى لنفسه ملك السماوات والأرض، نفَى عن آلهة المشركين أن تَملِك شيئًا ولا الشفاعة، **فقال سبحانه:**

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ عن آلهة المشركين أنها لا تملك الشفاعة التي يعتقدها فيها عُبَّادها، لكن من شهد بالحق يشفعون لمن أُذن لهم بالشفاعة فيهم؛ كعُزير وعيسى والملائكة عليهم السلام، ثم أخبر تعالى عن إقرار المشركين بربوبيته؛ لأنه تعالى خالقهم، ومع ذلك يعبدون معه غيره، وهذا من عجيب أمرهم، وهو جَمْعُهم بين الإقرار والإنكار، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، ثم أخبر تعالى عن شكوى النبي ﷺ إليه تكذيبَ قومه له، وأَمْره له بالصفح عنهم، وأن لهم جزاءً عنده سوف يعلمونه.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾؛ أي: يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ﴾؛ أي: من دون الله ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ وهي التوسط للغير بدفع مضرة أو جلب منفعة؛ أي: ولا يملك كلُّ من عُبِد من دون الله أن يشفع لأحد عند الله كما زعم المشركون أنهم شفعاؤهم؛ لأن الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: لكن من شهد بالحق وهو التوحيد، فهؤلاء يشفعون. الاستثناء منقطع؛ لأن الملائكة وعزيرًا وعيسى وغيرهم ممن عُبد من دون الله لا يملكون الشفاعة، لكنهم يشفعون بإذنه تعالى

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم، فتكون شهادتهم عن علم وبصيرة.

قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ هذا نظير ما ورد في أول السورة من قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، والمقصود التعجيب من حالهم أنهم يُقِرُّون بربوبية الله ثم يجعلون له أندادًا ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: كيف يصرفون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، مع اعترافهم أنه خالقهم؟

قوله سبحانه: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ مصدر قال، والضمير (الهاء) يعود على النبي ﷺ، وهذا المصدر المضاف معطوف على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]؛ أي: وعنده تعالى علمُ الساعة وعلمُ قولِ الرسول ﷺ شاكيًا إلى ربه قومه الذين كذبوه بقوله: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: كفار قريش ﴿قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لا يُصدِّقون ما أدعوهم إليه، فهم معاندون لا يُنتظَر منهم إيمان.

قوله سبحانه: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ الفاء هي الفصيحة التي تفصح عن شرط محذوف؛ أي: إذا لم يؤمنوا ﴿فَٱصْفَحْ﴾؛ أي: فأعرض عنهم ولا تقابلهم بما يقابلونك به من العدوان والأذى، وذلك كان في مكة قبل الأمر بالقتال، فالآية منسوخة بآيات القتال على قول أكثر المفسرين ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾؛ أي: سلامُ تركٍ ومسالمةٍ لا سلام تحية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وتكذيبهم، وهذا وعيد للمشركين، وتسلية للرسول ﷺ، و﴿سوف﴾ حرف استقبال يفيد توكيد الوعيد.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن معبودات المشركين التي يظنونها تشفع لهم لا تملك الشفاعة؛ بل لا تملك شيئًا.

٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

٣ ـ أن الصالحين من عباد الله ممن يُعبدون من دون الله يشفعون لمن أذِن الله لهم بالشفاعة فيه، وإن كانوا لا يملكون الشفاعة.

٤ ـ اشتراط العلم بالشهادتين.

٥ ـ اشتراط العلم في الشهادة بالحقوق.

٦ ـ إقرار المشركين بأن الله خالقهم.

٧ ـ أن الخلق يستلزم الإلٰهية، كما قيل: إن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلٰهية.

٨ ـ مناسبة أول السورة لآخرها في هذا.

٩ ـ أن إقرارهم بتوحيد الربوبية حجةٌ عليهم في اتخاذهم آلهة من دون الله.

١٠ ـ أن أهل التوحيد يشفعون ويُشفَع فيهم.

١١ ـ تناقض المشركين وسفه عقولهم.

١٢ ـ شكوى النبي ﷺ إلى ربه تكذيب قومه له.

١٣ ـ التوسل إلى الله باسم ﴿الرب﴾، وهي سُنَّة الأنبياء والصالحين في دعائهم.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن نبيِّه محمد ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠].

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء: ١١٧]، وقوله تعالى عن موسى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢].

١٦ ـ الأمر بالإعراض عن المشركين بترك أذاهم والاعتداء عليهم، وذلك في مكة قبل الأمر بقتالهم، ومقابلة سفههم بالسلام.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

١٩ ـ تسلية الله لنبيِّه ﷺ في عصيان المشركين بتهديد المشركين بسوء ما سيلقونه.

٢٠ ـ إثبات البعث والجزاء.

٢١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].





سورة الدخان

هذه السورة مكيَّة، وعدد آياتها تسع وخمسون، افتُتحت بحرفين من الحروف المقطَّعة: الحاء والميم، فهي من آل حم، وهي الخامسة منها، وافتُتحت بالقَسم بالكتاب المبين على إنزال القرآن في ليلة القدر، ومدارُ السورة على تقرير الأصول الثلاثة: التوحيد والنبوة والبعث.

فأما التوحيد: فمن قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، إلى قوله: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

وأما النبوة: فمن قوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، إلى قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾.

وأما البعث: فمن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، إلى قوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقد خُتمت السورة بمثل ما بُدئت به من التنويه بالقرآن بإنزاله وتيسيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات القسمَ بالكتاب المبين على إنزاله في ليلة مباركة، ثم التنويه بفضل هذه الليلة وما فيها من البركة والرحمة، ثم تمدَّح سبحانه بربوبيته وإلٰهيته.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿حمٓ﴾ هذان حرفان من الحروف المقطَّعة في أوائل السور، وتقدم القول الراجح فيها، وهو أنها تنبيه على إعجاز القرآن؛ يعني: أن القرآن الذي أعجز العرب، منظوم من هذه الحروف التي يعرفونها ويَتألَّف منها كلامهم، ومع ذلك عجَزوا أن يأتوا بسورة من مثله، وهم أهل البيان والبلاغة، فإذا ثبت عجزُهم تبيَّن أنه ليس كلام بشر، كما يدَّعون، وقامت الحجةُ به عليهم، ولهذا جاءت هذه الحروف المقطَّعة في أوائل سور كثيرة قبل ذكر القرآن وتنزيله، وذكر كونه عربيًّا.

قوله سبحانه: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الواو للقسَم، والكتاب مقسَمٌ به، وهو القرآن، فالله يُقسِم بالقرآن العظيم البيِّن الواضح لفظًا ومعنًى، المبيِّن

لما اشتمل عليه من العقائد والأحكام، فقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ اسم فاعل من أبان اللازم، المرادف لبَان بمعنى ظَهَر، وهمزته زائدة مثل ﴿أتبعه﴾ بمعنى تَبِعه. وهو أيضًا بمعنى أبانَ المتعدي؛ أي: أظهَر، فتكون الهمزة للتعدية، وعلى هذا فـ﴿مُبِين﴾ بمعنى بيِّن ومبيِّن.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هذا جواب القسم؛ أي: إنا أنزلنا القرآن في ليلة كثيرة الخيرات، عظيمة البركات، وهي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، كما قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ودلَّت الآياتُ على عظمة القرآن وشرفه من **ثلاثة أوجه**:

الأول: إقسام الله به.

الثاني: أن الله اختار لإنزاله أشرف الأوقات.

الثالث: أن الله أسند إنزاله إلى نفسه المقدسة.

وفي صفة إنزال القرآن **مذهبان** لأئمة التفسير من السلف:

الأول: أنه أُنزل في تلك الليلة المباركة جملة واحدة ـ أي: فُصِل عن اللوح المحفوظ ـ إلى السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك منجَّمًا ـ أي: مفرَّقًا ـ بحسب الوقائع، وصحَّ هذا عن ابن عباس، وعليه أكثر المفسرين، فقد روى الطبري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنزل القرآن كلُّه جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن يُحدِث في الأرض شيئًا أنزله منه حتى جَمَعه(١).

---

(١) «تفسير الطبري» (٣/ ١٩٠)، وأخرجه بنحوه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٢٢٢)، والنسائي في الكبرى (٧٩٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٢٢)، والضياء المقدسي في «المختارة» (١٥١) قال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وصحح إسناده ابن كثير في التفسير (١/ ٢٠)، ط. ابن الجوزي.

الثاني: أن ابتداء نزول القرآن كان في ليلة القدر؛ أي: أن الليلة التي نزل فيها جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] هي ليلة القدر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾؛ أي: مُحذِّرين ومُخوِّفين من عذاب الله بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، والإنذارُ إعلامٌ مصحوبٌ بتخويف، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠]، وقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١].

قوله سبحانه: ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الليلة المباركة ﴿يُفْرَقُ﴾؛ أي: يُفصَل ويُقضَى ويُبيَّن ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: كلُّ أمر مُحْكَم؛ أي: مشتمل على الحكمة، من أرزاق العباد وآجالهم وكل ما هو كائن من هذه الليلة إلى الليلة الأخرى من السنة القابلة، وهذا هو التقدير السَّنَوي، وهذا التقدير لا ينافي التقدير العام، وهو التقدير الأول الذي كتب في اللوح المحفوظ؛ بل هو مطابق له، ودليل هذا التقدير الأول قوله ﷺ: «**كتب اللهُ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**»(١)، وهناك **تقديران آخران**:

أحدهما: التقدير المتعلق بآدم وذريته، وهو المذكور في حديث المحاجَّة بين آدم وموسى، وفيه: «**قال آدم لموسى: أتلومني على أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة**»(٢)، وفي لفظ: «**فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيًّا، فبِكَمْ وجدتَ الله كتب التوراة قبل أن أُخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا، قال آدم: فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى؟**

---

(١) مسلم (٢٦٥٣) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) مسلم (٢٦٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: نعم، قال: أفتلُومني على أن عملت عملًا كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟»، قال رسول الله ﷺ: «**فحجَّ آدم موسى**»[(١)].

الثاني: التقدير الشَّخصي، وهو المتعلِّق بكل فرد من الناس، وهو الذي يكون عند نفخ الروح في الجنين، كما يدل له حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفيه: «**ثم يبعث اللهُ ملَكًا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أم سعيد**»[(٢)].

قوله سبحانه: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾؛ أي: أمرًا عظيمًا صادرًا من عندنا، وانتصاب ﴿أَمْرًا﴾ على الحال من ﴿أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، و﴿مِّنْ عِندِنَآ﴾ صفة للحال، وقد فخَّم اللهُ الأمرَ الصادر من عنده بعدة أوجه، فوصفه أولًا بأنه حكيم، وأعاده بقوله: ﴿أَمْرًا﴾، ونكَّره لتعظيمه، ثم زاد في فخامته بقوله: ﴿مِّنْ عِندِنَآ﴾، فكونه من عند الله يزيد في شرفه وفضله.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بدل من ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾؛ أي: كنَّا مرسلين الرسل إلى الخلق لإنذارهم ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: لأجل رحمة المؤمنين، وفي الكلام التفات بإقامة الاسم الظاهر ﴿رَّبِّكَ﴾ مقام ضمير العظمة؛ للإشعار بأن مقتضى الربوبية يستدعي الرحمةَ بالمربوبين، ولو روعي اللفظ لقيل: رحمةً منَّا.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾؛ أي: السميع لأقوال العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم ونياتهم، وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ يفيد الحصر؛ يعني: أنه تعالى ـ وحده ـ الذي يسمع كلَّ شيء ويعلم كلَّ شيء، فلا تخفى عليه خافية من قول أو فعل، وذِكر هذين الاسمين الكريمين له تعلُّق بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، فهو سميعٌ لأقوال المرسَلين والمرسل إليهم،

---

(١) مسلم (٢٦٥٢).

(٢) البخاري (٣٠٣٦) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٤٣).

عليمٌ بأعمالهم؛ كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

قوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ومالكهما ومدبِّرهما وما فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من جميع المخلوقات من أحياء وجمادات؛ أي: ربُّ كل شيء ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ هذا شرطٌ محذوفٌ جوابُه؛ أي: إن كنتم تريدون اليقين ومعرفة الحق فلا تعبدوا غير الله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق سواه، وهذا مقتضى ربوبيته العامة ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: يحيي من يشاء، ويميت من يشاء، وهذا من آثار ربوبيته العامة ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن افتتاح السورة بالحروف المقطَّعة أمارة القرآن المكِّيِّ.

٢ ـ أن من كلام الله الإقسامَ بما شاء.

٣ ـ عِظَم شأن القرآن، ولذا أقسم الله به.

٤ ـ أن من أسماء القرآن: الكتاب.

٥ ـ أن القرآن مبيِّن لكل ما يحتاج الناس إلى بيانه من العقائد والأحكام.

٦ ـ إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، والنزول إنما يكون من علو.

٧ ـ أن القرآن أنزل في ليلة القدر.

٨ ـ عظم شأن ليلة القدر.

٩ ـ أنها ليلة مباركة.

١٠ ـ أن الليل أفضل من النهار، كما استنبطه بعض العلماء من إنزال القرآن في ليلة القدر، وهو استنباط وجيه، ويؤيده: أن الليلَ أخصُّ بالوظائف والفضائل الدينية، كالتهجد والدعاء، وفيه النزول الإلٰهيُّ، ومن الليالي ليلة القدر.

١١ ـ أن العمل قد يفضُل غيرَه لفضل الزمان، أو لمناسبة ذلك الزمان لذلك العمل، ولذا خُصَّ الليلُ بتلاوة القرآن، كما قال تعالى في سورة المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [١، ٢] إلى قوله: ﴿عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [٤] إلى قوله في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾ [٢٠]، ويشهد لذلك: أن جبريل كان يدارس النبيَّ ﷺ القرآنَ كلَّ ليلة في رمضان، وخُصَّت صلاة الفجر بطول القراءة، وبهذا تظهر حكمة إنزال القرآن في ليلة القدر.

١٢ ـ أن القرآن أنزل للإنذار من عذاب الله.

١٣ ـ أنه يقدَّر في تلك الليلة ما يكون في السنة من الأرزاق والآجال، ولذا سمِّيت ليلة القدر.

١٤ ـ أن أقدار الله مُحْكَمة، وجاريةٌ على وفق الحكمة.

١٥ ـ إثبات عندية المِلك؛ لقوله: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾.

١٦ ـ أن الله يرسل بأمره الشرعي والكوني ملائكتَه، ويرسل بشرعه رسلًا من الناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾.

١٧ ـ أن إرسال الرسل رحمةٌ من الله لعباده.

١٨ ـ أن الله نوَّع أسباب هداية العباد؛ فأنزل الكتاب والحكمة، وأرسل الرسل يبلغون ويبيِّنون.

١٩ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على التعظيم.

٢٠ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

٢١ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، وما دلَّا عليه من صِفَتي السمع والعلم لله تعالى.

٢٢ ـ عمومُ ربوبيته تعالى للعالم العلوي والسفلي.

٢٣ ـ أن طالب اليقين بالحق يُهدَى إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

٢٤ ـ تفرده تعالى بالإلٰهية.

٢٥ ـ أنه تعالى الذي يحيي ويميت، وحده لا شريك له.

٢٦ ـ إثبات ربوبيته تعالى للناس كلهم، وهو من معنى الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٢٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

❀ ❀ ❀

۞ قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ۝١٦﴾

۞ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ عن المشركين وأنهم في شكٍّ مُستحكِم وغفلة، وتهديدهم باقتراب العذاب، وهو الدخان الذي يرونه بين السماء والأرض، وأنه يغشاهم، وأنهم ـ حينئذ ـ يدعون اللهَ بكشف العذاب عنهم، ويُظهِرون الإيمان، وأنَّ هذا الإيمان لا ينفعهم، ثم أخبر تعالى عن إعراضهم وعَيبهم لرسولهم بعدما أظهروا من الإيمان عند رؤية العذاب، ثم أخبر تعالى عن كشف العذاب مدة قليلة، وأخبر سبحانه أنهم سيعودون إلى الكفر والتكذيب، ثم هدَّدهم بنوع آخر من العذاب، وهو البطشة الكبرى، وذلك انتقام من الله لكفرهم وتكذيبهم وتماديهم في ذلك.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾؛ ﴿بَلْ﴾ حرف إضراب، فهو ردٌّ لأن يكونوا مريدين اليقين ومعرفة الحق؛ أي: فهم في شكٍّ من البعث يلهون متبعين أهواءهم، والآية التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ تحقيرًا لهم، وإعراضًا عنهم؛ حين لجُّوا في العناد والطغيان.

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، وهو أسلوب أمر

مراد به تثبيت النبي ﷺ وتسليته وتهديد الكفار؛ أي: انتظر عذابهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بيِّن واضح، وهذا الدخان هو الذي أصاب قريشًا في سِني القحط بعد الهجرة؛ حيث دعا عليهم النبيُّ ﷺ بالجدْب، فكان الرجل يرى كهيئة الدخان بينه وبين السماء من شدة الجوع، كما جاء في «الصحيحين» عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: إنما كان هذا لأن قريشًا لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجهد؛ فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال: فأتي رسول ﷺ فقيل: يا رسول الله استسق الله لمُضَر فإنها قد هلكت. قال: «**لمُضَر؟ إنك لجريء**»[1]، فاستسقى فسُقوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾. قال: يعني يومَ بدر[2]، قال عبد الله: خمس قد مَضَين: الدخان والقمر والروم والبطشة واللِّزام[3].

هذا مذهب جماعة من المفسرين في تفسير الدخان في الآية، منهم: ابن مسعود راوي الحديث، والنخعي ومجاهد والضحاك، ورجَّحه ابن جرير.

---

(١) اللام متعلقة بمحذوف؛ أي: أتأمرني أن أستسقي لمضر مع ما هم عليه من الإشراك، وإنما قال لمضر؛ لأن غالبهم كان بالقرب من مياه الحجاز، وكان الدعاء بالقحط على قريش وهم سكان مكة، فسرى القحطُ إلى مَن حولهم، فَحَسُن أن يطلب الدعاء لهم، ولعل السائل عَدَل عن التعبير بقريش؛ لئلا يذكرهم فيذكر بجرمهم فقال لمضر؛ ليندرجوا فيهم، ويشير أيضًا إلى أن غير المدعو عليهم قد هلكوا بجريرته. قاله في «فتح الباري» (٨/ ٥٧١).

(٢) البخاري (٤٥٤٤)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٣) البخاري (٤٤٨٩)، ومسلم (٢٧٩٨).

وذهب آخرون منهم: علي بن أبي طالب وأبو سعيد الخدري وابن عمر وابن عباس إلى أن الدخان في الآية هو دخان يجيء قبل قيام الساعة، ولم يأت بعْدُ، ويعتري المؤمنَ كهيئة الزكام، ورجَّحه ابن كثير، متأيِّدًا بالنصوص الواردة في الدخان، وأنه من الآيات المنتظرة؛ كقوله ﷺ في حديث حذيفة الغفاري: «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة**»[1] الحديث.

ويرى بعض المفسرين ومنهم: ابن عطية؛ أن هذا دخانٌ آخر يكون من أشراط الساعة غير الذي أصاب قريشًا، ولم يستبعده ابن جرير، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: يعمُّهم، والمراد المشركون، فهو عام مخصوص ﴿هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الجملة معمول لقول محذوف منصوب على الحال؛ أي: قائلين حين أصابهم: هذا عذاب أليم؛ أي: مؤلم، ويستغيثون ربهم قائلين: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ارفع عنا هذا العذاب، وهو الجوع والجهد والدُّخان، فإنْ كشَفْته فسنكون مؤمنين بالقرآن وبمحمد ﷺ.

ولما كان وعْدُهم بالإيمان كذبًا، وهم إنما يريدون كشف العذاب عنهم فحَسب، استبعد اللهُ اتِّعاظهم بقوله سبحانه: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: كيف يكون لهم التذكُّر عند نزول العذاب، والحال أنه قد جاءهم رسول بيِّن الرسالة من ربِّه، بما معه من المعجزات وأعظمها القرآن، فلم يتعظوا ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾؛ أي: ثم أعرضوا عنه فلم يصدقوه ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ﴾؛ أي: يُعلِّمه غيرُه وليس رسولًا ﴿مَّجْنُونٌ﴾؛ أي: وقالوا عنه: مجنون، يقولون هذا تارة، وذاك تارة أخرى.

---

(١) مسلم (٢٩٠١).

قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾ هذا ردٌّ من الله عليهم؛ أي: سنكشف عنكم هذا العذاب زمانًا قليلًا، أو كشفًا قليلًا؛ لإقامة الحجة عليكم ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾؛ أي: ستعودون إلى كفركم وتكذيبكم، فتلك سَجيَّتكم، وهذه الآية دليل على القول الأول، حيث طلبوا كشف العذاب، ووُعِدوا بكشفه قليلًا.

ولمَّا كان هذا العذاب الأليم لم يُجد فيهم توعَّدهم اللهُ بما هو أعظم منه، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾؛ أي: اذكر ـ أيها الرسول ـ يوم نأخذهم الأخذة الكبرى بعنف وقوة ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾؛ أي: ننتقم منهم في ذلك اليوم، وهو يوم بدر، فقد وقع لهم فيه من القتل والأسر ما هو معلوم، وهذا على قول من فسَّر الدخان بأنه الجوع والقحط الذي أصاب قريشًا، وأما من قالوا: إنه دخان يكون قبل قيام الساعة فقد فسَّروا البطشة الكبرى بالقيامة.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ ذمُّ الله الكفار بالإصرار على الكفر مع الإعذار إليهم، وقيام الحجة عليهم.

٢ ـ تحرِّي العذابِ المتوقَّع.

٣ ـ أن قريشًا عُذِّبوا بالدُّخان.

٤ ـ إثبات المجاز العقلي؛ لقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، فأسند الإيتاء إلى السماء، وهي محلُّه.

٥ ـ ذكر العام مرادًا به الخُصوص؛ لقوله: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ﴾، والمراد المشركون.

٦ ـ أنه كان عذابًا مؤلمًا؛ أي: موجعًا.

٧ ـ أن قريشًا آمنوا لما رأوا العذاب، ودعوا الله بكشفه.

٨ ـ أن الإيمان بعد رؤية العذاب لا ينفع؛ لقوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

٩ ـ أن من أعرض بعدما جاءه الرسول بالبينات وقامت عليه الحجة بعيدٌ أن يتذكَّر.

١٠ ـ علمه تعالى بكذب من يؤمن عند رؤية العذاب، وأنه سيعود إلى كفره.

١١ ـ الثناء على الرسول ﷺ بأنه بيِّن الرسالة، مُبيِّنٌ للحق.

١٢ ـ سفه المشركين بوصفهم أَحْلَمَ الناس وأَعْقَلَ الناس بالجنون.

١٣ ـ تهديد قريش ببطشة كبرى، وهي هزيمتهم يوم بدر، وذلك انتقام من الله، **ففيه**: تسلية الرسول ﷺ بإهلاك أعدائه.

١٤ ـ فيها عَلَم من أعلام نبوته ﷺ حيث أخبر بشيء لم يقع فوقع، وهو هزيمتهم في بدر.

١٥ ـ أن من أفعال الله الانتقام من أعدائه وأعداء رسله.

ثم ذكر اللهُ خبرَ فرعون وقومه وما حلَّ بهم من العذاب؛ ليتعظ كفار مكة؛ **فقال تعالى:**

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢)﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ بفتنة قوم فرعون، وإرسال موسى إليهم مطالِبًا بإرسال بني إسرائيل معه، وتسليمهم إياه، ومحاورةَ موسى لفرعون وقومه، ودعاءه ربَّه، واستنصارَه به على القوم المجرمين.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ﴿فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: ولقد بلونا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم أقباط مصر، بإرسال موسى إليهم ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: كريمٌ على ربه، وكريمٌ في نفسه وخلقه، وجميع رسل الله كرام عليهم السلام ﴿أَنْ أَدُّوا﴾؛ أي: قال موسى لفرعون وقومه ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾؛ أي: أطلقوا وسلِّموا إليَّ عبادَ الله من بني إسرائيل الذين استعبدتموهم ظلمًا، كما قال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

وجعل بعض المفسرين قوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ منادى؛ أي: يا عبادَ الله، وليس بصحيح؛ بل هو مفعول به للفعل ﴿أَدُّوا﴾، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله

﴿أَمِينٌ﴾؛ أي: مؤتمن على الوحي وما أمرني الله بإبلاغه إليكم؛ فلا أزيد فيه، ولا أنقص منه.

قوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تتعالوا ولا تتكبَّروا على الله ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بحجة واضحة تبيِّن صدق رسالتي، ولم يأت وصف الحجة بالسلطان المبين لرسول إلا لموسى عليه وعليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٩٦]، وقال: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٨]، ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

قوله: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾؛ أي: وإني اعتصمتُ بالله ربي وربكم أن ترجموني بالحجارة، وذِكرُ ربوبية الله له أدعى إلى استجابتهم له، وكفِّ أذاهم عنه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾؛ أي: وإن لم تصدقوني فيما جئتكم به، يقال: آمن به، وآمن له، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، واللام للتعليل على تضمين فعل الإيمان معنى الانقياد ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾؛ أي: كونوا بمعزل مني، ولا تؤذوني، وأصلها: ﴿فاعتزلوني﴾ حُذفت ياء المتكلم؛ مناسبة لرؤوس الآي، وكذا ﴿تَرْجُمُونِ﴾.

ذلك ما قاله موسى عليه السلام لفرعون وقومه ناصحًا ومبيِّنًا، ولكنهم كذبوه وعصوه، فلجأ إلى ربه ضارعًا شاكيًا حين يئس من إيمانهم، قال سبحانه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾؛ أي: كافرون مستحقون للعقاب، فانتقم منهم، وجاء هذا الدعاء مفصَّلًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تسلية النبي ﷺ من طغيان قومه بذكر إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون الذي طغى وبغى.

٢ ـ أنَّ إرسال الرسل إلى الناس ابتلاءٌ لهم؛ هل يستجيبون أو لا يستجيبون؟

٣ ـ ثناءُ الله على موسى عليه السلام بالكرم والأمانة.

٤ ـ أنَّ مِن أهم الحِكَم في إرسال موسى إلى فرعون وقومه: تخليصَ بني إسرائيل من ظلمهم.

٥ ـ استمالة المخالف بإخباره أنه ناصح له.

٦ ـ أن الآيات التي أجراها الله على يد موسى بيِّنة ظاهرة، وحجج قاهرة، ولهذا قال لفرعون: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ﴾ [الشعراء: ٣٠، ٣١].

٧ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ﴾.

٨ ـ أن الرسل عليهم السلام ومن تبعهم في الدعوة إلى الله معرَّضون لأذى الكافرين بأنواع الأذى؛ لقوله: ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾، وشواهد هذا في القرآن كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال عن نوح: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

٩ ـ تحذير موسى عليه السلام فرعونَ وقومَه من العلو على الله وعلى عباده، واعتصامُه بالله، واستنصارُه إياه.

١٠ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾.

١١ ـ التوسل إلى الله في الاستنصار على العدو بعظم جُرمه.

ولمَّا شكا موسى إلى ربه طغيان فرعون وقومه مستنصرًا به أجاب الله دعاءه؛ **فقال سبحانه:**

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الخبرَ عن أمر الله موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل ليلًا، فيخرجهم من مصر، وأنَّ فرعون سيتبعهم بجنوده، وإذا انتهى موسى إلى البحر فلا يعرض له؛ بل يتركه على حاله حتى يأمره الله بما شاء حين يقترب فرعون، فإن مصيره إلى الغرق في البحر، وبخروج فرعون بجنوده من مصر أخرجه الله مما هو متمتِّع به من الجنات والعيون والزروع والمقام الحسن، فأورثها الله قومًا آخرين، وهم بنو إسرائيل، فذهب فرعون وقومه غير مأسوف عليهم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾؛ أي: فأوحى الله إلى موسى، أو فقال الله لموسى: أسر بعبادي؛ أي: سِرْ بهم ليلًا في خفية، والمراد بعبادي: بنو إسرائيل ومن آمن معهم من القبط ﴿لَيْلًا﴾ منصوب على الظرفية، وهو تأكيد لقوله: ﴿فَأَسْرِ﴾ بغير لفظه؛ لأن الإسراء والسُّرى لا يكون إلا بالليل ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ تعليل للأمر بالسَّير ليلًا؛ أي: إنَّ فرعون وقومه سيتبعونكم إذا علموا بخروجكم، وفي هذا حثٌّ لهم على الإسراع.

قوله سبحانه: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ﴾ وهو بحر القُلْزُم، المعروف اليوم بالبحر الأحمر ﴿رَهۡوًاۖ﴾؛ أي: اتركه ساكنًا على حاله التي هو عليها بعد خروجكم منه؛ ليدخله فرعون وقومه، يقال: رَها يرهُو، بوزن عَدا يعدو، فـ﴿رَهۡوًاۖ﴾ مصدر مراد به اسم الفاعل ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ لا محالة، وهذه بشارة من الله لموسى عليه السلام بإهلاك عدوه، وسمَّى فرعون وقومه جندًا؛ لأنهم كانوا في معركة مع موسى، وقد خرجوا متأهبين للقضاء على المؤمنين، ولكن الله أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وفي عرض القصة في هذه السورة إيجاز وحذف كثير لبعض تفاصيلها. المعنى: فأسْرَى موسى عليه السلام كما أمره الله، حتى أتى هو ومن معه البحر؛ فأوحى اللهُ إليه أن يضرب البحر؛ فضربه؛ فانفلق اثني عشر طريقًا يبَسًا بعدد أسباط بني إسرائيل، فساروا فيه حتى جاوزوه، فلما نجوا أمر اللهُ موسى أن يترك البحر على حاله، فدخله فرعون وقومه فانطبق البحر عليهم، فأغرقوا جميعًا، كما قال سبحانه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ثم أخبر تعالى عمَّا ترك فرعون وقومه بعد هلاكهم؛ فقال سبحانه: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾، ﴿كَمۡ﴾ خبرية للتكثير، و﴿مِن﴾ بيانية؛ أي: تركوا بعد إغراقهم كثيرًا من البساتين المثمرة، والعيون الجارية، ومنها جداول متفرعة من النيل ﴿وَزُرُوعٖ﴾ متنوعة ﴿وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾؛ أي: ومجلسٍ حسَن، والكريم من كل نوعٍ أنفسُه وأفضُله ﴿وَنَعۡمَةٖ﴾؛ أي: وعِيشة مترفة ﴿كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: متنعِّمين، وعَطْف النَّعمة على ما قبلها من عطف العام على الخاص؛ لأنها تشمل الأربعة قبلها وغيرها باعتبار التمتع بها.

قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر

كذلك؛ أي: أمرُ فرعون وقومه كذلك؛ أي: كما سمعت، وهي جملة معترضة؛ لتهويل عاقبة الظالمين، وتهديد أشباههم ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ معطوف على ﴿تَرَكُواْ﴾؛ أي: تركوها وأورثناها غيرهم، وهم بنو إسرائيل كما جاء صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]؛ أي: جعلنا جنس هذه المذكورات الخمسة، وهي: الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والنَّعمة ميراثًا لبني إسرائيل، وليس المراد أن أرض فرعون ومملكته آلت لبني إسرائيل؛ لأن بني إسرائيل بعد عبورهم البحر توجَّهوا إلى الشام، ولم يرجعوا إلى مصر، كما ذكره ابن عطية وغيره[1]، وهو ظاهر القرآن، قال تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، والأرض المباركة هي أرض الشام بالاتفاق، ويؤكد ذلك أن هذه الآية ـ آية الأعراف ـ جاءت بعد الإخبار عن إغراق فرعون وقومه في اليم: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، وأما مصر فبقيت بيد أهلها القبط.

قوله سبحانه: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾؛ أي: لم يحزن على هلاكهم أحد؛ وهذا تحقير لهم، تقول العرب: بكت السماء على فلان، إذا كان عظيمًا ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾؛ أي: وما كانوا مؤخَّرين عن الوقت المقدَّر لإهلاكهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إجابة الله دعاء موسى عليه السلام على فرعون.

٢ ـ حسن تدبير الله لعباده بني إسرائيل.

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٤/٢٩٣)، ط. المغرب.

٣ ـ أن الإسراء هو الذَّهاب في الليل.

٤ ـ أن من الحكمة الحذرَ من العدو الطالب، وهو مَن يأتي مِن خلف القوم.

٥ ـ أن من السياسة تركَ الساعي في شأن الأمور على حالها حتى يتضح وجهُ المصلحة.

٦ ـ أن فرعون وقومه متِّعوا بجميع أسباب النعيم في الدنيا.

٧ ـ أن الكفر والمعاصي سببٌ لسَلب النعم، وهو العذاب الشديد الذي توعَّد اللهُ به الكافرين بنعمه.

٨ ـ نصر الله للمظلومين على الظالمين.

٩ ـ التبايُن في مصير الفريقين.

١٠ ـ أن الله يخفض ويرفع، كما خفض فرعون وقومه، ورفع بني إسرائيل بعدما كانوا مستعبدين.

١١ ـ تفسير القرآن بالقرآن.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

١٣ ـ أن الجمادات لها إدراكات يناسبها.

١٤ ـ أنها تبكي لفقد الصالحين دون الفاسقين.

١٥ ـ هوانهم على الله بكفرهم بعد التكريم للإنسان.

ولما بيَّن اللهُ كيفيةَ هلاك فرعون وقومه ذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل، **فقال سبحانه:**

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ بمنِّته تعالى على بني إسرائيل بإنجائهم من العذاب المهين على يد فرعون وملئه، واختياره تعالى لهم على العالمين، وابتلائهم بالآيات، ثم أخبر ﷻ عن تكذيب قريش ومن تبعهم من العرب بالبعث بعد الموت، ثم هدَّدهم بسُنَّته الماضية في المكذبين قبلهم، وهي الإهلاك بما اكتسبوه من الإجرام.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهم قوم موسى عليه السلام، وإسرائيل الذي انحدروا منه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة السلام، وإسرائيل اسم أعجمي، ﴿إسرا﴾ بالعبرانية عَبْد، و﴿إيل﴾ اسم الله تعالى، فمعناه: عبد الله، وبنو إسرائيل هم أولاد يعقوب، ومَن تناسلوا منهم فيما بعد، إلى عهد موسى ومن جاء بعده من الأنبياء حتى عهد عيسى عليه السلام، وحتى عهد نبيّنا محمد ﷺ.

وقد أُطلق على بني إسرائيل الذين آمنوا بموسى وبالتوراة اسم

اليهود، ولا سيما بعدما جاء المسيح وكفروا به، كما عُرف مَن آمن بعيسى منهم بالنصارى، وأما مَن آمن بمحمد ﷺ فقد أصبحوا في عِداد المسلمين، ويعرفون بمسلمي أهل الكتاب.

قوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾؛ أي: نجيناهم من العذاب المُذل لهم؛ أي: خلَّصناهم مما هم فيه من قتل الأبناء، واستحياء النساء للخدمة، وتسخيرهم في الأعمال الشاقة المهينة، وجعلهم كالعبيد، وكان هذا الإنجاء بإهلاك فرعون وقومه.

قوله تعالى: ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ جُعل فرعون في نفسه عذابًا؛ لأنه سبب ما وقع على بني إسرائيل من العذاب ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: فرعون ﴿كَانَ عَالِيًا﴾؛ أي: مستعليًا على الناس مستكبرًا ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: من المجاوزين الحد في البغي والطغيان ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾؛ أي: اصطفينا جنس بني إسرائيل بما آتيناهم من الملك والنبوة وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الآية [الجاثية: ١٦].

والاختيار في لغة القرآن يراد به: التفضيل والانتقاء والاصطفاء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١١ ـ ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: اخترناهم عالمين بأنهم أهل لذلك ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: عالَمي زمانهم، وأما الأفضلية المطلقة فهي لأمة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولما بدَّل بنو إسرائيل من بعد موسى واختلفوا غضب اللهُ عليهم، وضربت عليهم الذلة والمسكنة.

قوله سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ أي: أعطيناهم من

المعجزات على يد موسى كفلق البحر، والمن، والسَّلوى ﴿مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾؛ أي: اختبار جليٌّ لهم؛ ليتميَّز الصالح من الفاسد، والشاكر من الكافر.

ثم رجع السياقُ إلى الحديث عن كفار مكة المتحدَّث عنهم أول السورة، في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: المشركين المكذبين، والمعروف في القرآن أن اسم الإشارة ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ إذا لم يَرِد بعده عطفُ بيان يُبين المُشارَ إليهم فإنه يُراد به مشركو أهل مكة.

ووجه إيراد قصة فرعون وقومه: تخويفُ كفار مكة وتحذيرهم من أن يَحِل بهم ما حل بأولئك؛ لأن الاشتراك في السَّبب يؤدي إلى الاشتراك في المسبَّب ﴿لَيَقُولُونَ﴾؛ أي: يقولون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: ما هي إلا موتة واحدة في الدنيا، والأول عند العرب ما يحصل أوَّلًا وقد لا يكون له ثان، فالأول عندهم بمعنى السالف ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾؛ أي: وما نحن بمبعوثين أحياء من القبور، ويقولون أيضًا للرسول والمؤمنين: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ وهذا طلب تعجيز؛ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم في البعث فأتوا بآبائنا أحياء! وهذا من عنادهم واستكبارهم، فليس لطلبهم وجه بل هو ساقط؛ لأن إحياء الموتى يكون يوم القيامة، ولا يلزم من عدم حصول الشيء حالًا امتناعُه في المستقبل.

وقد أمر الله نبيَّه ﷺ أن يواجه الكافرين بما يُبطل شبهتهم ويفحمهم، فقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: يحييكم بعد أن كنتم أمواتًا في الأصلاب والأرحام ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦]؛ فإحياء الله للناس بعد أن كانوا

أمواتًا في الأصلاب والأرحام أقوى دليل على إحيائهم بعد الموت، وهذا من نوع الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، ويزيد هذا المعنى جلاء قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

قال تعالى مهدِّدًا لهم: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾؛ أي: في القوة والمنَعة، والاستفهام إنكاريٌّ؛ أي: ليسوا بخير من قوم تُبَّع، والخيرية هنا بمعنى القوة لا بمعنى الفضل؛ لأن الفريقين ـ قوم تبَّع ومشركي مكة ـ كفارٌ لا فضل لهم عند الله ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهم الحِميريون أهل اليمن، وهم من العرب القحطانيين، و﴿أَمْ﴾ متصلة عاطفة لطلب التعيين، والخبر محذوف؛ أي: أم قوم تبع خير ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من نُظرائهم المشركين مثل عاد، وثمود، وقوم نوح، وقوم إبراهيم، وقوم فرعون، وكانوا أكثر من قريش عددًا، وأقوى منهم جندًا، وأوسع مُلكًا ﴿أَهْلَكْنَـٰهُمْ﴾؛ أي: استأصلناهم، وأفنيناهم بالعذاب، ودمَّرنا ديارهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: كافرين مُصِرِّين على الكفر، والجملة تعليلية. المعنى: أهلكناهم لإجرامهم، وإذا كان أولئك لم يدفعوا عن أنفسهم العذاب مع قوتهم ومنَعتهم؛ فكفار قريش ومن معهم من أحلافهم أولى ألَّا يَقْدِروا على دفع العذاب، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من قبل كفار مكة ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾؛ أي: عُشر ما آتينا أولئك من القوة والتمكن من كل شيء ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥] أي: إنكاري على الكافرين بالعقوبة والإهلاك؛ أي: هو واقع موقعه فليحذر هؤلاء من مثله.

وتخصيص قوم تُبَّع بالذكر؛ لقرب بلادهم من عرب الحجاز، ولشهرة أخبارهم عندهم، ويُذكر أنهم غزوا بلاد العرب ودخلوا المدينة

ومكة، وتُبَّع لقب لكل من ملك اليمن، مثل كسرى للفرس، وقيصر للروم، وفرعون لمصر، وتُبَّع المذكور في الآية قيل: هو أبو كَرِب، وظاهر الآية أن الله خصَّ بالإهلاك قومه فحسب، وأما هو فلم يهلك، وذهب بعض المفسرين إلى أنه نبي، وقيل: كان مؤمنًا ولم يكن نبيًّا، ويؤيِّده حديث سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تسبوا تُبَّعًا؛ فإنه قد كان أسلم**»[1]، وقالت عائشة ﵂: «كان تُبَّع رجلًا صالحًا، ألا ترى أن الله ﷻ ذمَّ قومه ولم يذمَّه»[2]، فلعله مات قبل هلاك قومه، والله أعلم.

ويؤيد أن تُبَّعًا نبيٌّ أو عبدٌ صالحٌ ذكرُه تبَعًا لذكر قومه وإضافتُهم إليه، وتخصيصُهم بالإهلاك، وهذه سُنَّته تعالى في الإخبار عن أقوام الأنبياء المهلكين، كما قال تعالى عن شعيب ﵇ لقومه: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، وقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ [الحج: ٤٢، ٤٣]، وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ مِنَّة الله على بني إسرائيل بنجاتهم من العذاب الذي كانوا فيه.

٢ ـ أن فرعون هو الأصل في هذا العذاب.

---

(١) «مسند أحمد» (٢٢٨٨٠)، ط. الرسالة، وقال محققوه: «حسن لغيره». وساق ابن كثير طرقه.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٨٨)، وإسناده صحيح، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

٣ ـ ذمُّ الله لفرعون بالعلو والإسراف.

٤ ـ تحريم الله العلوَّ في الأرض، وهو الاستكبار.

٥ ـ اختيار الله لبني إسرائيل على العالمين.

٦ ـ سبب اختيار الله لهم، وهو ما علمه من الخير فيهم.

٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

٨ ـ إثبات علم الله تعالى.

٩ ـ ذمُّ الله لقريش لتكذيبهم بالبعث.

١٠ ـ ذكر شبهة من شبهات المكذبين بالبعث، وهي قولهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾.

١١ ـ تهديده تعالى بإهلاك المكذبين بالبعث، كما أهلك مَن قبلهم لكفرهم.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣].

١٣ ـ أن الإجرام بالكفر والتكذيب سببٌ للهلاك.

١٤ ـ إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

ثم نبَّه تعالى على بعض دلائل البعث الظاهرة؛ **فقال** ﷻ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

▣ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ عن خلق السماوات والأرض وما بينهما، وأن الله لم يخلقها لعبًا؛ بل خلقها بالحق، وهي حكمته البالغة من ابتلاء العباد ومجازاتِهم على أعمالهم، وأكثر الناس لا يعلمون، ثم أخبر عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة الذي جعله الله ميقاتًا للعباد، يجمعهم فيه ويحاسبهم، ويفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وفي ذلك اليوم لا يُغني مولى عن مولى، ولا ينصر فيه الظالمون.

▣ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾؛ أي: لعبًا وعبثًا بلا حكمة؛ لأن اللعب هو فعل الشيء لا لغرض ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات إلا خلقًا مصحوبًا بالحق، ملابسًا له، فهذه المخلوقات العظيمة كلُّها خلقت بالعدل والحكمة البالغة؛ ليعرف العبادُ عظمة خالقها ومُوجدها، وكمال قدرته، وشمول علمه، فيعظموه ويفردوه بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

ومن حكمته تعالى في خَلْق هذا العالم: ابتلاء العباد حتى يتبيَّن أيُّهم أحسن عملًا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: ولكنَّ أكثر المشركين لا يعلمون ذلك، فلم يعبدوا ربهم، وأنكروا البعث والجزاء، والآية حجَّة عليهم. وجه ذلك: أنه تعالى لما خلق الإنسان هيَّأ له أسباب معاشه في هذا الملكوت الفسيح من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وسخَّر له ما في السماوات وما في الأرض، وأمره بالإيمان والطاعة، وحذره من الكفر والمعصية، وأخبره بالجزاء الأخروي على كل ذلك، ولو لم يحصل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لعبًا، ولكان خلق الإنسان عبثًا، وقد أنكر الله ذلك بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ولمَّا ذكر تعالى دليل البعث أكَّده بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأنه يُفصل فيه بين الخلائق ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾؛ أي: موعد جمْعهم، والفصل بينهم وجزائهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: من الأولين والآخرين من المكلَّفين ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾؛ أي: لا يدفع صاحب عن صاحبه شيئًا، سواء أكان قريبًا أو صديقًا ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: ولا أحد يستطيع نصرهم في ذلك اليوم ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ وهم المؤمنون؛ فإنه يشفع بعضهم لبعض بإذنه تعالى، والاستثناء متصل؛ لأن المستثنى منه جميع الناس وهم أهل الموقف.

وقال بعض المفسرين: إنه استثناء منقطع بجعل الضمير الواو في ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعود على الكفار، وهذا قول ضعيف؛ لأن الجُمَل

السابقة عامة في جميع الناس بدليل التأكيد بقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ أي: القوي الذي له القدرة التامة، والإرادة النافذة فلا يُغلب ﴿الرَّحِيمُ﴾؛ أي: الواسع الرحمة لخلقه، والجملة تعليل لقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ فبعزته عذَّب الكافرين، وبرحمته نصر المؤمنين وأثابهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الله خالق السماوات والأرض.

٢ ـ أن السماوات والأرض مخلوقة محدَثة.

٣ ـ تنزيه الله عن اللعب والعبث.

٤ ـ أن الله خلق السماوات والأرض بالحق.

٥ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

٧ ـ وشاهد لقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

٨ ـ أن الجهل بحكمة الله حال أكثر الناس.

٩ ـ أن من أسماء القيامة: يوم الفصل.

١٠ ـ أن يوم القيامة ميقاتٌ لجمْع جميع الناس.

١١ ـ أنه في ذلك اليوم لا يغني أحدٌ عن أحد، مهما كانت الصلة.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

١٣ ـ فيها شاهد لقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

١٤ ـ أن الكفار لا ينصرون يوم القيامة، فلا ينجُون من العذاب.

١٥ ـ إثبات صفة الرحمة؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾.

١٦ ـ إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما: (العزيز) و(الرحيم)، وما دلَّا عليه من صِفَتي العزة والرحمة لله تعالى.

❊ ❊ ❊

ولمَّا ذكر الدليل على إمكان البعث، وأتبعه بوصف ذلك اليوم، ذكر وعيد الكفار **بقوله سبحانه:**

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ عن ألوان عذاب المكذبين باليوم الآخر المشركين به؛ من شجرة الزقوم، وأنها تغلي في البطون؛ كغلي الحميم، وأنها طعام الأثيم، ومن عذاب أولئك الأشقياء: أنهم يؤخذون بعنف وقوة فيُلقَون في وسط الجحيم، ثم يُصَب فوق رؤوسهم من عذاب الحميم، ويوبخون على كفرهم وتكذيبهم بهذا العذاب، ويُتهكم بهم، ويُذَكَّرون أنهم كانوا يمترون فيه ويمارون.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ وهي المعروفة بقبح منظرها وخبث طعمها، وأخبر الله عنها أنها تخرج في أصل الجحيم، وأن طلعها كأنه رؤوس الشياطين، هذه الشجرة ثمرها ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾؛ أي: الكثير الإثم، وهو الكافر ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾؛ أي: كالزيت الأسود، ووجه الشبه: سوء المنظر، وبشاعة الطعم ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾؛ أي: في بطون المشركين ﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾؛ أي: كغلي الماء الحار الذي تناهى في الغليان.

ثم يقال لزبانية النار: ﴿خُذُوهُ﴾؛ أي: خذوا هذا الكافر

﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾؛ أي: جرُّوه بعنف وقوة ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: إلى وسط النار، وأصل الجحيم: النارُ العظيمة المستحكِمة، يقال: جَحَمتِ النَّار تجْحَمُ، إذا عظُمت، فهي جاحمة وجحيم ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾؛ أي: ثم أفرغوا فوق رأسه ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾؛ أي: من الماء الشديد الحرارة؛ زيادة في إيلامه وعذابه وإهانته، ولم يقل من الحميم؛ ليكون أهول وأهيب؛ حيث جُعل المصبوب هو العذاب تجوُّزًا، وجاء على الأصل في قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

ثم يقال له على وجه الإهانة والتهكم: ﴿ذُقْ﴾؛ أي: ذق هذا العذاب ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾؛ أي: المنيع الجَناب، المكرَّم عند نفسك وقومك ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: إن هذا العذاب والجزاء هو ما كنتم تشُكُّون فيه في الدنيا وتجادلون فيه، فذوقوه اليوم، والجمع في الآية؛ رعاية للمعنى؛ لأن المراد جنس الأثيم.

الفوائد والأحكام

١ ـ أن في النار طعامًا وشرابًا هما شرُّ الطعام وشرُّ الشراب.

٢ ـ أن شجرة الزقوم طعام أهل النار، والحميم شرابهم.

٣ ـ أن من أنواع عذاب الكافر في النار: سحبَه ودفعَه إلى وسط الجحيم، وصبَّ الحميم فوق رأسه.

٤ ـ تفاوُت دَرَكات النار في شدة العذاب؛ فوسطها وأسفلها أشدُّ من أعلاها.

٥ ـ أن من أسماء النار: الجحيم.

٦ ـ أن من أنواع عذاب الكافر: توبيخَه والتهكمَ به.

٧ ـ تذكير الكافر بتكذيبه بالعذاب؛ لتعظم حسرته.

٨ ـ أن أهل النار يسمعون ما أريد منهم سماعه في بعض الأوقات؛ لقوله: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾.

٩ ـ جواز تسمية المخلوق بما يوافق اسم الخالق في اللفظ والمعنى المشترك، لقوله: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾.

١٠ ـ وجوب الإيمان بالبعث والجنة والنار وما فيهما.

ولمَّا ذكر أحوال أهل النار أخبر عن حال أهل الجنة؛ **فقال سبحانه:**

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ من الله عن ثواب المتقين، وأنهم في مقام أمين، وهو جنات وعيون، وأن لباسهم السندس والإستبرق، وأنهم في مجالس متقابلون، وأن كل الفواكه موجودة عنهم، فمهما طلبوا أتوا به، ومع هذا كله هم فيه خالدون، آمنون من الموت، لا يذوقون في الجنة الموت إلا الموتة التي ذاقوها في الدنيا، وأول فضل الله عليهم أن وقاهم عذاب الجحيم؛ ففازوا بالمطلوب، ونجوا من المرهوب، فضلًا من الله، ومَن نال ذلك فقد فاز الفوز العظيم.

ثم رجع الكلامُ إلى الخبر عن القرآن أن الله يسَّره بلسان النبي ﷺ، وهو اللسان العربي؛ ليتذكر العباد به ما يجب عليهم وما ينفعهم، ثم خُتمت السورة بأمر النبي ﷺ بارتقاب وعد الله بالنصر والتأييد وحسن العاقبة، وأخبر عن المشركين بأنهم مرتقبون لما تُوعِّدوا به، وذلك من واقع حالهم لا بإرادة منهم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: المؤمنين الموصوفين بالتقوى،

وهي فعل الأوامر، واجتناب المناهي ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾؛ أي: في مكان آمن، والمراد: المساكن التي يأمنون فيها من كل سوء ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ هذا بدل من ﴿مَقَامٍ﴾ للدلالة على حسن ذلك المكان واشتماله على كل يستلذ من المآكل والمشارب والمجلس الحسن، والجنَّات جمع جنَّة، وهي في الأصل البستان، وجنات الآخرة كثيرة متفاوتة الدرجات تبعًا لتفاوُت أهلها في أعمالهم، قال ﷺ للمرأة التي سألت عن ابنها المقتول يوم بدر: «**يا أمَّ حارثة، إنها جنانٌ في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»[(١)]، ﴿وَعُيُونٍ﴾؛ أي: وعيون جارية بأشربة أهل الجنة.

قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ وهو ما رقَّ من الحرير الخالص ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما غلظ من الحرير الخالص ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أي: متقابلين في مجالسهم؛ ليتم أُنسُهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمر كذلك، وهذه جملة اعتراضية لتقرير ما تقدم ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ معطوف على ﴿يَلْبَسُونَ﴾ وجاء على صيغة الماضي؛ للدلالة على تحقُّق وقوعه، ولكونه نعمة وفضلًا عظيمًا. المعنى: جعلنا لهم أزواجًا حِسانًا واسعات العيون حِسانهن، الحُور جمع حَوْراء، مأخوذ من الحَوَر في العين، وهو شدة بياضها مع شدة سوادها فهو يتضمن الأمرين، والعِين جمع عَيْناء، وهي ذات العين الواسعة، وحَوَر العين مع سعتها نهاية الجمال.

قوله سبحانه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾؛ أي: يطلبون في الجنة كل فاكهة يشتهونها، والدُّعاء نوع من الأمر، يقال: دعا بالشيء؛ أي: طلب إحضاره ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أي: آمنين من انقطاع تلك الفواكه ومن تبعاتها، كما قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤).

وفاكهة الجنة أنواع منوَّعة، وألوان مختلفة، قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوۡجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنة ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾ فلا يموتون فيها ﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾؛ أي: السالفة في الدنيا، وهذا استثناء منقطع؛ لأن الموتة الأولى ليست مما يذاق في الجنة. المعنى: لا يذوقون في الجنة موتًا أبدًا، ولكنهم ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا، وهذا من تأكيد النفي بما يشبه الإثبات، وهو قريب من تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أي: وحفظهم من عذاب النار.

قوله سبحانه: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ أي: منحهم اللهُ ما ذُكر فضلًا منه تعالى، و﴿فَضۡلٗا﴾ منصوب على الحال ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: المذكور من الثواب والنجاة من العذاب ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ أي: الذي لا فوز أعظم منه ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ﴾؛ أي: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾؛ أي: سهَّلناه بإنزاله باللغة العربية؛ ليكون واضحًا بيِّنًا لك ولمن يقرؤه ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لعلهم يتعظون ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾؛ أي: انتظر ـ أيها الرسول ـ ما يحل بهم ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾؛ أي: ينتظرون ما يحل بك، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وسيعلمون أن النصر لك عمَّا قريب، وفرق بين الانتظارين من **وجهين**:

الأول: أن انتظار الرسول ﷺ هو مقتضى الإيمان واليقين بوعد الله ووعيده، وأما انتظارهم فهو مقتضى الخرص وسوء الظن بالله.

الثاني: أن ما يرتقبه الرسول ﷺ واقع محقَّق لا محالة، وما يرتقبونه من الشر بالرسول ﷺ لا يكون.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ ذكر الوعد بعد الوعيد؛ ترهيبًا وترغيبًا.

٢ ـ أن التقوى سبب السعادة.

٣ ـ الترغيب بلزوم التقوى.

٤ ـ أن المتقين يصيرون يوم القيامة إلى مقام فيه جميع دواعي السرور؛ من الأمن من كل مَخُوف، والتمتع بكل مطلوب من شهوات النفوس من اللباس والأزواج والطعام.

٥ ـ أن لباس الجنة من أنواع الحرير، ما رقَّ منه وما غلظ وما بينهما.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

٧ ـ اعتبار لباس الزينة من مقدمات النكاح، ومن الحقوق بين الزوجين.

٨ ـ أن في الجنة نساءً هنَّ أزواج المؤمنين، وهنَّ **نوعان**: **نوع** خُلِقن لهم في الجنة وأُسكنَّ في مساكنهم، **ونوع** هنَّ المؤمنات اللاتي يدخلن الجنة مع المؤمنين، وكلُّهنَّ حور عين.

٩ ـ أن نساء الجنة حور عين، وهاتان صفتان من صفات العيون، كما أشير إليه في التفسير.

١٠ ـ أن معظم طعام أهل الجنة الفاكهة، مع الأمن من قطعها أو منعها.

١١ ـ أن أهل الجنة فيها خالدون، أحياء لا يموتون.

١٢ ـ أن أوَّل الإنعام عليهم نجاتُهم من العذاب الأليم.

١٣ ـ أن ذلك كله من فضل الله وكرمه.

١٤ ـ أنه لا يجب على الله للعباد شيء؛ لقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٥ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٦ ـ أن النجاة من العذاب، والظفر بالنعيم هو الفوز العظيم.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

١٨ ـ تيسير القرآن بلسان الرسول ﷺ، اللسان العربي المبين.

١٩ ـ الحكمة من ذلك، وهي تذكرهم.

٢٠ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٢١ ـ الإشارة إلى الأمر بدوام التذكير بالقرآن.

٢٢ ـ أن وعد الله ووعيده يقين محقَّق؛ لقوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾.

٢٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠].

٢٤ ـ التناسب بين أول السورة وآخرها؛ للخبر عن القرآن في أولها وآخرها.





سورة الجاثية

هذه السورة مكيَّة، وعدد آياتها سبع وثلاثون، وهي مُفتَتَحة بحرفين من الحروف المقطعة: الحاء والميم، فهي من آل حم، وهي السادسة منها، وافتتحت بالتنويه بتنزيل القرآن من العزيز الحكيم، ومدارها على التنويه بآيات الله الكونيَّة والشرعيَّة، وتقرير التوحيد، وتقرير البعث، والردِّ على الكافرين به؛ فمن قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في شأن القرآن والتوحيد، ومن قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ إلى آخر السورة في شأن القيامة والجزاء على الأعمال، والردِّ على المكذبين.

وتضمَّنت الآيات من أول السورة إلى الآية (١١) التنويهَ بشأن الكتاب، والتذكيرَ بآياته الكونيَّة من السماوات والأرض، واختلافَ الليل والنهار، وإحياءَ الأرض بعد موتها، وتصريفَ الرياح، وبآياته المتلوة المتضمِّنة للتذكير بآيات الله الكونيّة، ولوعيد المعرضين عن آياته بالعذاب المهين والعظيم والأليم.

وتضمَّنت الآيات من (١٢) إلى (١٧) الامتنانَ من الله على عباده بتسخير ما في البحر، وتسخير ما في السماوات وما في الأرض، وذكر الجزاء على الأعمال خيرها وشرها، والحكم بين العباد يوم القيامة.

وتضمَّنت الآيات من (١٨) إلى (٢٣) بيانَ حكمته تعالى في شرعه وخلقه.

وتضمَّنت الآيات من (٢٤) إلى (٢٦) الردَّ على المكذبين بالبعث.

وتضمَّنت الآيات من (٢٧) إلى آخر السورة بعضَ مشاهد القيامة، وانقسامَ الناس إلى فريقين: فائزين وخاسرين.

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ بتنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، والتذكيرَ بما في السماوات والأرض من الآيات التي يهتدي بها المؤمنون، والتذكيرَ بما في خلق الناس، وما بثَّ في الأرض من الدواب من الآيات التي يهتدي بها الموقنون، والتذكيرَ بما في اختلاف الليل والنهار، وإنزالِ الرزقِ من السماء، وتصريفِ الرياح من الآيات التي يهتدي بها القوم الذين أوتوا عقولًا بها يعقلون.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ تقدم الكلامُ في الحروف المقطَّعة، وأنها تُشير إلى إعجاز القرآن، وتستدعي الانتباهَ والإصغاءَ إلى كلام الرحمٰن ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ أي: هذا الكتاب الكريم وهو القرآن، منزَّلٌ من الله تعالى، وسمي القرآن كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة، وفي مصاحف المؤمنين، فالكتاب اسم من أسماء القرآن، و﴿أل﴾ في الكتاب للعهد الذهني، وذكر المصدر ﴿تَنزِيلُ﴾ للدلالة على نزول القرآن مفرَّقًا، خلافًا للإنزال

فإنه يدُلُّ على نزول الشيء جملة، على ما هو الغالب في استعمال الفعلين نزَّل وأنزل.

قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: القويُّ الذي له القدرة التامة، والإرادة النافذة فلا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، فلا يصدر منه إلا ما هو موجَب الحكمة والمصلحة.

وفي الإخبار عن القرآن بأنه منزَّل من الله ما يقطع بأنه حقٌّ وصدق وصواب، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وكونه من العزيز يدل على أنه يَغلب ولا يُغلب، وكونه من الحكيم يدل على أنه مُحكَمٌ في نفسه، وأنه مشتمل على الحكم البالغة.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في خلقهما على هذه الهيئة، وما فيهما من المخلوقات العظيمة من الشمس والقمر وسائر النيِّرات وحركاتها وأوضاعها، وما نصب من الجبال، وأجرى من البحار والأنهار، وأنبت من الأشجار وغير ذلك على هذا النظام البديع ﴿لَأَيَٰتٍ﴾؛ أي: أدلةٍ باهرةٍ على ربوبيته تعالى وقدرته، وحكمته وعلمه ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: المؤمنين بالله وما له من صفات الجلال، ونعوت الكمال.

ولما ذكر سبحانه آياته الكونيَّة في الآفاق أتبعها بآياته في الأنفس، فقال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أيُّها الناس في أطوار مختلفة من نطفة إلى علقة إلى تمام الخلق وإلى الموت ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾؛ أي: وما ينشره الله ويفرقه في الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ تدب عليها مما تعلمون وما لا تعلمون ﴿ءَايَٰتٌ﴾؛ أي: أدلةٌ ظاهرة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يصدقون تصديقًا جازمًا بأن الله هو الخالق المدبر لهذا الكون العظيم.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: وفي اختلاف الليل والنهار في الطول والقِصَر، والضياء والظلام، وفي تعاقبهما على نظام

ثابت، فلا يسبق هذا هذا ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾؛ أي: من مطر، سمَّاه رزقًا؛ لأنه مسبَّب عن المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: جعلها مُنبِتة بعد قحطها ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾؛ أي: وتصريفها لكم من جميع الجهات، لحمل الأمطار، وتسيير الفلك، وبجعلها قوية وضعيفة وحارة وباردة؛ لتنتفعوا بها ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: يتفكرون ويتدبرون.

وقد جاءت فواصل هذه الآيات الثلاث على أسلوب التَّرَقِّي؛ **فأولها:** ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، **وثانيها:** ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، **وثالثها:** ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ والموصوف بها واحد، ووجه التغاير بينها أنَّ من نظر في خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات العجيبة، والأحوال الغريبة، وأنها لا بد لها من صانع فلا بد أن يؤمن، وإذا نظر في خلق بني آدم وما حوله مما يَدِب على الأرض ازداد إيمانًا فأيقن، وإذا نظر فيما حوله من اختلاف الليل والنهار، وحصول الأرزاق، وسائر الحوادث عَقَل وكَمُل علمه، كذا قال بعض المفسرين.

والأظهر ـ والله أعلم ـ أن هذا التغايُر من قبيل التَّفنُّن في الكلام، كما يشهد لذلك توارد هذه المعاني، وهي الإيمان والإيقان والعقل في موضوع واحد وهو القرآن، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن السورة مكيَّة؛ لافتتاحها ببعض الحروف المقطَّعة.

٢ ـ أن القرآن منزَّل من الله.

٣ ـ أن من أسماء القرآن: الكتاب.

٤ ـ إثبات علوِّ الله تعالى.

٥ ـ تضمُّن القرآن أسباب العزة والحُكم والحكمة.

٦ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: (العزيز) و(الحكيم)، وما تضمَّنا من صِفَتي العزة والحكمة لله تعالى.

٧ ـ أن إنزال القرآن كان مفرقًا، لا جملة.

٨ ـ أن الإيمان يبعث على التفكر في آيات الله.

٩ ـ أن التفكر في آيات الله يزيد في الإيمان.

١٠ ـ أن التفكر في اختلاف الليل والنهار وفي خلق الإنسان يُثمر اليقين.

١١ ـ أن أهل اليقين هم المنتفعون بالآيات.

١٢ ـ أن من آيات الله الكونيَّة: إنزالَ الغيث من السماء، وإحياء الأرض به.

١٣ ـ تسمية الماء النازل من السماء رزقًا.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

١٥ ـ أن من آيات الله: تصريف الرياح.

١٦ ـ أن الرياح مخلوقة مدبَّرة لله.

١٧ ـ أن من أفعال الله: إنزالَ الرزق من السماء، وتصريفَ الرياح.

١٨ ـ إثبات أفعال الله الاختيارية.

١٩ ـ أن المنتفعين بالآيات هم ذوو العقول الذين يستعملون عقولهم.

٢٠ ـ فضل العقل، وهو الذي فضَّل اللهُ به الإنسان على سائر الحيوان.

٢١ ـ اعتبار الأدلة العقليَّة.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

٢٣ ـ التفنُّن في أساليب القرآن، بتنويع الألفاظ في التعبير عن معنى واحد، مما يدعو إلى التدبر.



لمَّا ذكر اللهُ كثيرًا من الآيات الكونيَّة أتبعها بالتنويه بالآيات الشرعيَّة، **فقال سبحانه:**

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات التنويهَ بآيات القرآن المتضمِّنة للحق، وأنها المُثمرة للإيمان لا سواها، ثم تضمَّنت وعيد كل كذَّاب مكذِّب بآيات الله، مستهزئ بها، معرض عن استماعها استكبارًا؛ كأن لم يسمعها، وأنهم لا يغني عنهم من العذاب شيئًا ما كسبوا في الدنيا، ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء، ولهم عذاب عظيم، ثم أخبر تعالى عن اشتمال هذه الآيات على الهدَى، ثم توعَّد الكافرين بها بالعذاب الأليم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، واسم إشارة البعيد للتعظيم، والمراد: آيات الله المنزلة وهي القرآن؛ فهي دالة على وحدانيته تعالى وقدرته، وحكمته وعلمه ورحمته، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الآيات الكونيَّة التي تقدم ذكرها ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾؛ أي: نقرؤها عليك ـ أيها الرسول ـ والقارئ هو الملَك جبريل عليه السلام، وأُسندت القراءة إلى الله؛

لأنها كانت بأمره تعالى ﴿بِٱلْحَقِّۖ﴾ حال من المفعول والباء للمصاحبة والملابسة؛ أي: مشتملة على الحق ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ﴾؛ أي: فبأيِّ كلامٍ، والفاء جزائية؛ أي: إن لم يؤمنوا بهذه الآيات المتلوة بالحق فبأيِّ حديثٍ ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بعد حديث الله وهو القرآن ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أي: وآيات القرآن؛ أي: ما اشتمل عليه من الحجج والبراهين الدالة على ربوبيته تعالى وإلٰهيته، وعطف الآيات على القرآن من عطف الخاص على العام، ووقع في الكتاب العزيز ـ أيضًا ـ عطف القرآن على الآيات في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، وهو من عطف العام على الخاص.

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: يصدِّقون، والمقصود الدلالة على أن لا بيانَ أكملُ من هذا البيان، وأنَّ من لم يؤمن بكلام الله فلن يؤمن بحديث سواه.

قوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك وعذاب شديد وخزي، وهذا وعيد عظيم ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾؛ أي: كثيرِ الإفك، وهو أقبح أنواع الكذب ﴿أَثِيمٍ﴾؛ أي: كثير الآثام ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يسمع آيات القرآن ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: تُقرأ عليه، وهي مشتملة على الوعد والوعيد والبِشارة والنِّذارة ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾؛ أي: ثم يدوم على حاله متكبرًا على الإيمان بربه ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَاۖ﴾؛ أي: كأنَّه لم يسمع تلك الآيات، ولم تبلغ أذنيه، جحودًا وتعاليًا ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: فبشِّره ـ أيها الرسول ـ بعذاب مؤلم، وهذا تهكم واستهزاء بهذا المكذب الأفَّاك؛ لأن البِشارة في الأصل إنما تكون فيما يسُرُّ، فإذا استعملت في ضدِّه كانت تهكُّمًا.

قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾؛ أي: وإذا بلغته الآيات وإن لم يقصد استماعها ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾؛ أي: جعل هذه الآيات موضع

سخرية واستخفاف، فجمع بين الاستهزاء والاستكبار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: البعداء الموصوفون بتلك الصفات، والجمع مراعاة لمعنى كل أفَّاك ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ أي: عذابٌ يُهينهم ويُذلهم، وهذا مناسب لاستكبارهم.

قوله سبحانه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: أمامهم جهنم تنتظرهم بتغيظها وزفيرها ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا﴾ عدَّى الفعل ﴿يُغْنِي﴾ بـ ﴿عن﴾ لتضمنه معنى يدفع؛ أي: لا يدفع عنهم ما كسبوا في الدنيا من الأموال والأولاد شيئًا من عذاب الله، و﴿شَيْـًٔا﴾ مفعول به لتغني ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: ولا ينفعهم أيضا آلهتهم التي اتخذوها من دون الله أنصارًا، وتكرار ﴿وَلَا﴾ لتأكيد النفي، وبيان أنه يشمل الأمرين معًا، وكلًّا منهما على حدة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: شديد هائل، لا يعلم مقدار شدته وهوله إلا الله وحده.

قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾؛ أي: هذا القرآن هدًى كامل الهداية للناس، وهذا له اتصال بما في أول السورة؛ فإنه لما أخبر عن القرآن بأنه منزَّل منه تعالى وصفه هنا بأشرف صفاته بأنه هدى خالص، ويحتمل أن يكون المشار إليه ما تضمَّنته الآيات السابقة من الذم والوعيد للكاذبين المكذِّبين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: بالقرآن، ووضع الاسم الظاهر موضع ضمير الكافرين تشنيعٌ عليهم، وإثباتٌ لوصفهم بالكفر، وتعليلٌ لاستحقاقهم العذاب، ولهذا قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ وهو أشدُّ العذاب، و﴿مِّن﴾ بيانيَّة ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع؛ أي: مؤلم، وهو صفة لعذاب، وهي قراءة ابن كثير وحفص ويعقوب، وقرأ الباقون بالجر: ﴿أليمٍ﴾ صفة لرجز.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الآيات شرعيَّة وكونيَّة؛ متلوَّة ومرئيَّة.

٢ ـ تضمُّن الآيات المتلوَّة للحق علمًا وعملًا.

٣ ـ تلاوة الله لها على النبي ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، وقوله: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣].

٥ ـ تسمية القرآن حديثًا.

٦ ـ أن القرآن أحسنُ حديثٍ في بيانه، وحججه، ومواعظه، ووعده ووعيده، وشرائعه وأخباره، فمن لم يَهْتد بالقرآن لم ينفعه أيُّ حديث بعده، فلا هُدى بعد هدى القرآن، ولا بيان بعد بيانه.

٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

٨ ـ أن آيات الله أعظمُ داعٍ إلى الإيمان.

٩ ـ أن الإيمان لا يحصل بغير الآيات.

١٠ ـ أن التقليد لا يحصل به الإيمان.

١١ ـ أن من لم يؤمن بسماع الآيات لم يُطمع في إيمانه.

١٢ ـ ذمُّ الإعراض عن سماع القرآن.

١٣ ـ ذمُّ ووعيد كلِّ كذاب ومكذب بآيات الله، معرضٍ عن استماعها حين تتلى.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

١٥ ـ وصف العذاب بكلِّ معاني الشدة من الألم والإهانة والعِظَم، فهو أليمٌ ومهينٌ وعظيمٌ.

١٦ ـ أن آيات القرآن هدى لمن يهتدي بها.

١٧ ـ وعيد الكافرين بآيات الله بعذاب من رجز أليم.

ولمَّا ذكر تعالى أنواعًا من آياته الكونيَّة والشرعيَّة الدالة على ربوبيته وإلٰهيته وتوعَّدَ المعرضين عنها، أتبع ذلك بذكر نوع آخر من الآيات الكونيَّة التي أنعم بها على عباده؛ ليشكروه ويفردوه بالعبادة؛ **فقال سبحانه:**

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات الامتنانَ من الله على عباده بتسخير البحر والفلك، وتسخير ما في السماوات وما في الأرض، وأن ذلك كلَّه نعمٌ وآياتٌ جعلها اللهُ ميدانًا لتفكير المتفكرين، ثم ندَب اللهُ المؤمنين إلى أن يغفروا للكفار إذا آذوهم، ويصبروا على ذلك، وأخبر تعالى أن الجميع صائرون إلى جزائهم بما كانوا يكسبون، ثم ذكر سُنَّته تعالى في الجزاء، وهي أن من أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها، وأن العباد راجعون إلى ربهم فيجدون جزاء أعمالهم، خيرها وشرَّها.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: الله ـ وحده ـ بقدرته وحكمته ذلَّل لكم البحر ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾؛ أي: السُّفُن، فالفُلْك هنا جمعٌ لفظُه كلفظ مفرده، ومن إطلاقه على المفرد قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾؛

أي: نوحًا ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]، ﴿فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ أي: لتجري السُّفُن في البحر بمشيئته تعالى، وتلك آية من آيات الله الباهرة التي لا يقدر عليها إلا الله، حيث يُرى هذا البحر بسطحه الأملس الشفاف، والسُّفُن الثقيلة المصنوعة من الخشب والحديد تسير فوقه طافية محملة بالأثقال من الناس وأمتعتهم وتجاراتهم ولا تغوص فيه، ثم ما سخَّر اللهُ للفُلك من الريح التي تدفعها، وما علَّم اللهُ الإنسانَ ـ بعدُ ـ من وسائل تسييرها في البحر؛ فالبحر آية من آيات الله في مساحته وعمقه وفي حركته وأمواجه، وما ضمَّ في بطنه من المخلوقات المتنوعة والعوالم الهائلة، فهو مخلوق عجيب، ومنظره عجيب! قال الشاعر:

البحرُ أعظمُ مما أنتَ تحسبُهُ   مَن لم يَرَ البحرَ يومًا ما رأى عَجَبا

قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ أي: ولأجل أن تبتغوا من فضل الله وخيراته بالتجارات والمكاسب، وبالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطَّريِّ ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ أي: ولعلكم تشكرون الله على نعمه بدوام طاعته، وتخلصون الدين له.

قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾؛ أي: وهيَّأ وذلَّل لأجلكم كل ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا تعميم بعد تخصيص؛ لتوكيد الامتنان، والإلزام بالحجة ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من دابة، وشجر، ونبات، وأنهار، وجبال، وهواء، وغير ذلك ﴿جَمِيعًا﴾ حال مؤكِّدة للعموم المدلول عليه بالموصول ﴿مِّنۡهُۚ﴾؛ أي: جميع ذلك من فضله تعالى، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لجميع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: التسخير ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ أي: دلائل على ربوبيته تعالى وحكمته، وعلمه ورحمته بعباده ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: يتدبرون الآيات فيعتبرون بها.

ولما علَّم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة أتبع ذلك بتعليم

الأخلاق الفاضلة، فقال سبحانه: ﴿قُل﴾ أيها الرسول ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: آمنوا بالله وصدَّقوا رسوله واتبعوه ﴿يَغْفِرُواْ﴾؛ أي: ليغفروا، على تقدير لام الأمر المحذوفة، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يخافون بأس الله ونقمته بالعاصين إذا رجعوا إليه. المعنى: قل للمؤمنين يصفحوا عن المشركين، ويحتملوا أذاهم، ويصبروا عليهم، ولا يكن همُّهم الانتصار لأنفسهم، وكان هذا في أول الأمر قبل أن يقوى المسلمون، ويكون لهم دولة، وقبل الأمر بالقتال، فالسورة مكيَّة؛ فالآية منسوخة بآيات القتال، كما ذهب إليه ابن جرير الطبري وكثير من المفسرين.

وذهب طائفة من المفسرين إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، فنحن مدعوُّون إلى كظم الغيظ، والصفح عن المشركين، والصبر على ما يمكن فيه الصبر؛ كالاستهزاء والشَّتم ونحو ذلك، وهذا مندوب إليه في كل حال، ولا نسخ فيه، وفي الصفح عنهم إغراء لهم بالإيمان، ودعوة إلى الدخول في دين الله الإسلام.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا﴾ اللام للعاقبة؛ أي: أن عاقبتهم الجزاء، وتنكير ﴿قَوْمًۢا﴾ للشيوع؛ أي: لعموم الفريقين؛ أي: ليجزي اللهُ أقوامًا بالثواب وهم المؤمنون، وأقوامًا بالعقاب وهم الكافرون ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: بسبب ما كانوا يكسبون في الدنيا من الأعمال؛ فالآية وعد ووعيد؛ وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين.

ثم بيَّن تعالى كيفية الجزاء فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: من عمل عملًا صالحًا فلنفسه الأجر والثواب ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: ومن أساء فعلى نفسه وزرُ عمله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تُرَدُّون إلى الله بالبعث يوم القيامة، فيجازي كلًّا بعمله حسنًا أو سيِّئًا.

الفوائد والأحكام:

١ - أن البحر مسخَّرٌ للعباد يحمل الفُلك على ظهره، ويَجْرِين بأمر الله.

٢ - الحكمة من تسخير البحر وجريان الفلك، وهي ابتغاء فضل الله.

٣ - جواز ركوب البحر لطلب فضل الله.

٤ - استحباب طلب فضل الله في التجارة.

٥ - إثبات الأمر الكوني؛ لقوله: ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

٦ - أن كلَّ ما سُخِّر للعباد في السماوات والأرض كلُّه بأمر الله، بمشيئته وتدبيره.

٧ - أن الغاية من ذلك كله هو شكر الله.

٨ - إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله؛ لقوله: ﴿لِتَجْرِيَ﴾، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

٩ - الرد على النصارى في احتجاجهم لمذهبهم في عيسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]؛ فإنه يلزمهم على هذا أن يكون كل ما في السماوات وما في الأرض ابنًا لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

١٠ - أن هذه المسخَّرات آيات.

١١ - الإرشاد إلى التفكر في آيات الله.

١٢ - أن الرسول ﷺ عبدٌ لله يؤمر وينهى؛ لقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

١٣ - إرشاد المؤمنين إلى أن يغفروا للكفار، ويصبروا على أذاهم، لكن عليهم ألَّا يطيعوهم.

١٤ ـ استحباب العفو عمَّن أساء، وإن كان كافرًا.

١٥ ـ أن الكفار لا يرجون أيام الله، وهي أيام القيامة؛ لأنهم لا يؤمنون بها ولا يخافونها.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

١٧ ـ أن جميع العباد مؤمنهم وكافرهم راجعون إلى الله، ومجزيُّون بأعمالهم.

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

١٩ ـ الرد على الجبرية في إثبات سائر العمل؛ لقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.

٢٠ ـ إثبات أن الأعمال أسباب للجزاء؛ لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ففيه: الرد على من أنكر الأسباب، وجعل الجزاء ثوابًا وعقابًا راجعًا إلى محض المشيئة.

٢١ ـ إثبات الربوبية العامة؛ لقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

٢٢ ـ إثبات البعث والجزاء.

ثم ذكر اللهُ ما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينيَّة والدنيويَّة، ومع هذا لم يشكروا الله على ذلك، واختلفوا فيما بينهم؛ والمقصود تحذير كفار مكة أن يسلكوا مسلكهم في اختلافهم على أنبيائهم وكفرهم بنعم الله؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ بما فضَّل اللهُ بني إسرائيل من الكتاب والحكمة والنبوة ورزق الطيبات، وما آتاهم من البينات، ولكنهم اختلفوا، وأنه تعالى سيحكم بينهم يوم القيامة، وأنه تعالى أكرم نبيَّه محمدًا ﷺ وأمته، وجعلهم على شريعة من الأمر عظيمة، وأمَرهم باتباعها، ونهاهم عن اتباع أهواء الجاهلين، وأخبر تعالى أنهم لن يغنوا عمَّن اتبعهم شيئًا، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى أن هذا القرآن بصائر وهدى ورحمة للموقنين، ثم أنكر تعالى على الذين يحسبون أن الله يسوِّي بين المؤمنين الذين يعملون

الصالحات وبين الذين يقترفون السيئات، وذمَّ اللهُ حكمهم؛ لأنه مخالف للفطرة والعقل والدين، ساء ما يحكمون.

۞ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل وغيرهما ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾؛ أي: والحكم بما فيها بين الناس ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾؛ أي: أكثرْنا فيهم الأنبياء والرسل، وصارت النبوة التي جعلها اللهُ في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكل والمشارب ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: عالَمي زمانهم، بما أنزلنا إليهم من الكتب، وجعلنا فيهم من الرسل والأنبياء، وبما مكَّنا لهم في أرض الشام، وقد اجتمع في بني إسرائيل الملكُ والنبوةُ؛ كما وقع ذلك لداود وسليمان عليهما السلام، وقال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: وأعطيناهم مع ذلك ﴿بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: الأمر الشرعي؛ أي: أعطيناهم دلائل واضحات من أمر الدين من الحلال والحرام، وأمر محمد ﷺ ومعرفة صفاته، وكلُّ ذلك مما يقتضي الألفة والاجتماع، ولكن بني إسرائيل صاروا بضد ذلك؛ فتفرقوا واختلفوا اختلافًا عظيمًا، وقتلوا فريقًا من أنبياءهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾؛ أي: فما وقعوا في الاختلاف إلا من بعد ما جاءهم العلم، وقامت عليهم الحجة به ﴿بَغْيًۢا﴾ مفعول لأجله ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بسبب البغي والحسد فيما بينهم، والتنافس على الرئاسات، وهذا مما يدعو للعجب؛ لأن حصول العلم يوجب رفعَ الخلاف لا بقاءه ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: يوم يقوم الناس لربِّ العالمين للحساب والجزاء ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: من أمر الدين والدنيا.

وفي الآية تحذير وزجر لمشركي مكة؛ إذ فيهم شبَه من بني إسرائيل حيث أصرُّوا على الكفر بعد ما جاءهم الهدى، وأعرضوا عن الإيمان عداوة وحسدًا.

ثم أمر اللهُ رسوله ﷺ أن يتمسك بالحق الذي جاءه من ربه، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾؛ أي: ثم صيَّرناك ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: على طريقة ومنهاج من أمر الدين الذي شرعناه لك من العقائد والعبادات والأحكام ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾؛ أي: اتبع ـ أيها الرسول ـ شريعتك الحقَّ واثبت عليها ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ﴾ جمع هوًى وهو شهوة النفس مع الجهل؛ أي: لا تتبع آراء ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يعلمون طريق الحق، وهم المشركون الذين يدعون النبي ﷺ إلى الرجوع إلى دين آبائه وعبادة أصنامهم، والخطاب وإن كان للرسول ﷺ فهو عام للأمة المسلمة.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ هذا تعليل للنهي أو توكيد له، وضُمِّن الفعل ﴿يغني﴾ معنى يدفع، فعدِّي بـ﴿عن﴾؛ أي: إنهم لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئًا إن اتبعت أهواءهم ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: الكافرين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾؛ أي: بعضُهم أنصار بعض على الباطل في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: والله ناصر المتقين ومؤيدهم في الدنيا والآخرة، وهم المتقون لعذاب الله وسخطه بفعل الطاعات، وترك السيئات، وفي الكلام التفات من التكلُّم في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، والتعبير بالاسم الشريف ﴿ٱللَّهُ﴾ لتربية المهابة، والتشويق إلى اتخاذه تعالى وليًّا.

قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ﴾ جمع بصيرة، وهي للقلب بمنزلة البصر للإنسان ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ أي: هذا القرآن المنزل عليك ـ أيها الرسول ـ بصائر

للناس يبصرون به الحق من الباطل، ويعرفون به الإيمان والتوحيد ﴿وَهُدًى﴾؛ أي: وهو هدى يهتدي به المؤمنون من الضَّلال ﴿وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يوقنون بحقيقته وأنه كلام الله منزَّل منه تعالى، وجُعل بصائرَ للناس؛ لأنه بلاغ لهم جميعًا، وجُعل هدى ورحمةً للموقنين؛ لأنهم المنتفعون به، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولمَّا ذكَر سبحانه أن الظالمين بعضُهم أولياء بعض، وأنه تعالى وليُّ المؤمنين، بيَّن عدم استواء الفريقين؛ فقال سبحانه ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة المقدرة بـ﴿بل﴾ والهمزة، وهو استفهام إنكاري لإنكار هذا الحسبان ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: اكتسبوها، قال الراغب: الاجتراح: اكتساب الإثم، وأصله من الجِراحة[1]؛ أي: لأن المذنب كأنه جرح نفسه وآلمها، والمراد بالذين اجترحوا السيئات الكفار بدليل مقابلتهم بالذين آمنوا ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، المعنى: أيظُن الذين اجترحوا السيئات من المشركين أن نجعلهم كالمؤمنين المتَّقين في الجزاء، ونساوي بينهم في الحياة والممات؟

وانتصاب ﴿سَوَآءً﴾ على الحال من الفريقين؛ أي: أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات مستويَيْن في الحياة والممات، أو منصوب على البدل من كاف التمثيل، والتقدير: أن نجعلهم سواءً ﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ فاعل ﴿وَمَمَاتُهُمْ﴾ معطوف عليه، والمحيا والممات مصدران ميميَّان للحياة والموت.

---

(١) «المفردات» (ص١٩١).

فلا يستوي المؤمن والكافر في الحياة ولا في الممات، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]، فالمؤمنون عاشوا في الدنيا على التقوى والإيمان، وماتوا على البشرى بالرضوان والجنات التي عرضها السماوات والأرض، والكفار أقاموا على الفجور والعصيان، وماتوا على اليأس من الرحمة والمصير إلى الهوان والنار التي وقودها الناس والحجارة، ووجوه المؤمنين في الآخرة مُسفرة ضاحكة مستبشرة، ووجوه الكافرين مُسْودَّة عليها غبرة، ترهقها قترة، فدلَّت الآية على نفي المساواة بين الصالح والفاسد في حياته ومماته، وذمِّ من حسب أن الله يسوِّي بينهم في ذلك.

قوله سبحانه: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، ﴿سَآءَ﴾ فعل ماض جامد لإنشاء الذم، و﴿مَا﴾ مصدرية أي: قبُح حكمُهم، وبلَغ الغاية في السوء والفساد؛ إذْ حسبوا أن الله يجعلهم كالمؤمنين.

ولفظ الآية يتناول العُصاة من المؤمنين، ونقل ابن عطية[(١)] والقرطبي[(٢)] أنَّ هذه الآية تسمَّى مبكاة العابدين، ونُقِل عن طائفة من العبَّاد أنهم كانوا يبكون عند تلاوة هذه الآية، فعن مسروق قال: قرأ تميم الداري سورة الجاثية فلما أتى على قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾ الآية لم يزل يكررها ويبكي حتى أصبح[(٣)]، ونُقل عن الربيع بن خثيم أنه كان يصلي فمرَّ بهذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾ إلخ، فلم يزل يرددها حتى

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٤/ ٣١٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٦٦).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٤)، والقاسم بن سلام في «فضائل القرآن» (١٥٤)، وأبو داود في «الزهد» (٣٧٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٣٧٠)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٨٩٧)، والطبراني في «الكبير» (١٢٥٠)، وقال ابن حجر في «الإصابة» (١/ ١٨٣): «رواه البغوي في الجعديات بإسناد صحيح إلى مسروق».

أصبح[١]، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها: «ليت شعري من أيِّ الفريقين أنت»![٢].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تفضيل بني إسرائيل على عالمي زمانهم بأنواع من الفضائل: الكتاب والحكم والنبوة، وهذا مصداق قوله تعالى عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن موسى ﷺ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

٣ ـ أن الله آتاهم البينات على يد موسى ومن بعده من الرسل إلى عيسى ﷺ.

٤ ـ ذكر الله نفسه بضمير الجمع الدال على العظمة.

٥ ـ أن بني إسرائيل لم يشكروا نعمة الله عليهم؛ بل كفروا أنواعًا من الكفر من عبادة العجل وقتل الأنبياء.

٦ ـ أن بني إسرائيل اختلفوا بعدما جاءتهم البينات، وآخر ذلك اختلافهم في عيسى ﷺ.

٧ ـ أن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٨٣٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١١٢).

(٢) ذكره جماعة من المفسرين، منهم: الزمخشري في الكشاف (٤/ ٩٤)، وابن عطية في المحرر الوجيز (١٣/ ٣١٢)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٦٦)، وغيرهم.

٨ ـ أن يوم القيامة موعد الحكم بين جميع المختلفين، وشواهد ذلك في القرآن كثير.

٩ ـ تحذير أمة محمد ﷺ من الاختلاف على وجه البغي.

١٠ ـ التنويه بالشريعة التي جعل الله عليها محمدًا ﷺ.

١١ ـ تفضيل النبي ﷺ وأمته بهذه الشريعة.

١٢ ـ الامتنان من الله على نبيِّه وأمته بشريعة الإسلام.

١٣ ـ فضل هذه الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ وكمالها.

١٤ ـ أن اتباع هذه الشريعة فرض عليه وعلى أمته ﷺ.

١٥ ـ أنه ما ثَمَّ أمام السالكين إلا طريقان: هدى الله وهو شريعته، أو هوى الظالمين الجاهلين، فماذا بعد الحق إلا الضَّلال.

١٦ ـ تحريم اتباع أهواء الكافرين.

١٧ ـ تهديد من يتبع أهواء الكفار؛ بأنهم لا يغنون عنه من الله شيئًا.

١٨ ـ أن الكفار بعضهم أولياء بعض.

١٩ ـ أن الله وليُّ المتقين المؤمنين.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

٢١ ـ الامتنان على العباد بهذا القرآن.

٢٢ ـ مدح القرآن بأنه بصائر للناس، وهدى ورحمة للموقنين.

٢٣ ـ بُطلان ظن من يظن أن الله يسوِّي بين الذين يعملون الصالحات والذين يقترفون السيئات.

٢٤ ـ أن هذا الحكم سيئ ولا يليق بالله، وهو مخالف للعقل والفطرة.

٢٥ ـ ذمُّ الله لهذا الحكم؛ لقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

٢٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

٢٧ ـ الرد على منكري البعث بأن قولهم يستلزم التسوية بين الذين يعملون الصالحات والذين يقترفون السيئات.

ولمَّا حكم تعالى بأن الكافر والمؤمن لا يستويان ذكر الدليل على ذلك؛ **فقال تعالى:**

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبارَ عن خلق الله السماوات والأرض وحكمته تعالى في ذلك، والتعجيب من حال المتبع لهواه، حتى اتخذه إلٰهًا يطيعه ولا يعصيه، وسوء عاقبته، ثم أخبر تعالى عن شيعته من الكافرين المنكرين للبعث الذين يقولون ما لا يعلمون، وما مصدر أقوالهم إلا الظنون، وإذا تُلِيَت عليهم آيات البعث والنشور عارضوها بالحجج الداحضة؛ كقولهم: ﴿ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ثم أمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يقول لهم: ﴿ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: خلْقًا مشتملًا على الحق، لا لعبًا ولا عبثًا بل لحكمة، فخلق السماوات السبع

والأرضين السبع وما ضمَّت من المخلوقات العظيمة دالٌّ على كمال قدرته تعالى، وشمول علمه، وتمام عدله، فهذا العالم كلُّه الذي أوجده الله بعد عدم، وأودع فيه من دلائل القدرة وبدائع الصنعة، ما تحار له العقول، وتدهش له البصائر من إتقان خلقه، وانتظام أحواله، كلٌّ ذلك ناطق بقدرته تعالى وحكمته وعدله، ومن عدله: ألَّا يسوي بين المصلحين والمفسدين، والمؤمنين والكافرين، والمتقين والفجار.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فيه معنى التعليل، فالمعنى: وخلق اللهُ السماوات والأرض بالحق؛ لتظهر دلائل ربوبيته وعدله وعموم علمه ﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ معطوف على معنى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فهو من تتمَّة التعليل؛ أي: ولكي تُجزى كلُّ نفس في الآخرة بما كسبته من خير أو شر ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بنقص من حسناتهم، أو زيادة في سيئاتهم.

قوله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ هذا رجوع إلى الحديث عن الكفار، وأسباب ضلالهم ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ أصل معنى هذا التركيب ﴿أخبرني﴾، فهو استفهام تعجيب، والمقصود منه هنا: التعجيب من حال هذا الضَّال الذي جعل هواه معبوده، فهو يعبد هواه كما يعبد الرجل إلٰهه، فـ﴿إلٰه﴾ مفعول ثان مقدَّم لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾، وتقديمه للاعتناء به؛ لأنه الذي يتعلق به التعجيب، و﴿هَوَىٰهُ﴾ مفعول أول، فهو من قبيل التشبيه المقلوب.

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾؛ أي: وأضلَّ اللهُ ذلك الشَّقيَّ على علم من الله سابق بأنه ليس من أهل الهداية ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ﴾؛ أي: وختم اللهُ على سمعه فلا يتأثر بالمواعظ ﴿وَقَلۡبِهِۦ﴾؛ أي: وطبع اللهُ على قلبه فلا يتدبر ولا يتفكر ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾؛ أي: جعل على بصره غطاء فلا ينظر في آيات الله نظرَ تذكُّر وتفكُّر ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾

استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أحد يهديه من بعد إضلال الله إياه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ استفهام إنكار؛ لإفادة الحَثِّ على التذكُّر؛ أي: أفلا تتعظون وتعتبرون ـ أيها الناس ـ أن من كانت هذه حاله فلن يهتدي أبدًا؟

وإضلال الله لهذا الضَّال وختمُه على سمعه، وجعلُ الغشاوة على بصره أمورٌ حقيقيَّة معنويَّة، واقعة بفعله تعالى ومشيئته.

ثم حكى الله عن المشركين نوعًا آخر من ضلالهم، وهو إنكارهم البعث، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: ما حياتنا إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها لا غير، أرادوا بذلك إنكار البعث ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يموت منَّا قوم، ويحيا آخرون بالولادة ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؛ أي: مرور الزمان، وكانوا في الجاهلية ينسبون كل حادث إلى الدهر، فأنكروا الإلٰه الخالق، وأنكروا الملائكة التي تقبض الأرواح، وقد ردَّ اللهُ عليهم بقوله سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾؛ أي: بما يقولون ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: ليس لهم علم يقيني، بل يتكلمون عن جهل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ أي: ما هم إلا قوم يظنون الظنون الفاسدة.

ثم ذكر تعالى شبهتهم في إنكار البعث، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: وإذا قرئت عليهم آيات القرآن، وأضافها اللهُ إلى نفسه تشريفًا لها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالة على إمكان البعث ووقوعه ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: لم يكن لهم حجَّة إلا أن قالوا للرسول والمؤمنين: أحيوا آباءنا السابقين، وأخرجوهم من قبورهم أحياء إن كنتم صادقين في قولكم بالبعث والنشور، وسمَّاها اللهُ حجَّة تهكمًا بهم، وليست بشيء؛ بل هذا طلب تعجيز يدل على عنادهم واستكبارهم، فليس لطلبهم وجه؛ لأن إحياء الموتى يكون يوم القيامة، ولا يلزم من عدم حصول الشيء حالًا امتناعه في المستقبل؛ أي: امتناع بعثهم من القبور مطلقًا.

وقد أمر اللهُ رسوله ﷺ أن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: يحييكم بعد أن كنتم أمواتًا في الأصلاب والأرحام ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾؛ أي: عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: ثم يجمعكم في يوم القيامة، أو يحشركم إلى يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ حال من يوم القيامة؛ أي: الذي لا شك في إتيانه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من الكفار والمشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قدرة الله على البعث فينكرونه.

فإحياء الله للناس بعد أن كانوا أمواتًا في الأصلاب والأرحام أقوى دليل على إحيائهم بعد الموت، وهذا من نوع الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، فمن قدِر على إحياء الأموات فهو قادر على إعادة آبائكم والإتيان بهم مرة أخرى، ويزيد هذا المعنى جلاء قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

❁ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن السماوات والأرض مخلوقة مُحدَثة بعد عدم.

٢ ـ أن الله خالقها.

٣ ـ أن من حكمته تعالى في خلق السماوات والأرض: أن يبتلي العباد، ثم يجزيهم بما كسبوا من خير وشر.

٤ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

٥ ـ إثبات الجزاء على الأعمال.

٦ ـ إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

٧ ـ تنزيهه تعالى عن الظلم.

٨ ـ ذمُّ المتِّبع لهواه، والتعجيبُ من حاله.

٩ ـ إثبات صفة العجب لله.

١٠ ـ أن من المتبعين لأهوائهم من بلغ به الحال أن جعل إلٰهه هواه.

١١ ـ أن الهدى والإضلال من أفعال الله.

١٢ ـ أن مَرَدَّ ذلك إلى علم الله بخلقه.

١٣ ـ الردُّ على المعتزلة في قولهم: إن العباد يخلقون أفعالهم.

١٤ ـ أن من أعظم العقوبات على الإعراض عن آيات الله: الختمَ على القلب والسمع، وجعلَ الغشاوة على الأبصار.

١٥ ـ أن مَن فعل اللهُ به ذلك فلا طمع في هدايته إلا أن يشاء الله.

١٦ ـ إثبات الجعل الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾.

١٧ ـ إثبات هداية التوفيق.

١٨ ـ الدعوة إلى التفكُّر والتذكُّر.

١٩ ـ ذمُّ التقليد في الدين.

٢٠ ـ أن من عقائد الكافرين: إنكار الآخرة، وأنه لا حياة بعد هذه الدنيا.

٢١ ـ أن من عقائد الكفار: اعتقادهم أن الدهر يهلكهم.

٢٢ ـ أن أقوالهم لا مستند فيها إلا الظن.

٢٣ ـ أن القول بلا برهان ظنٌّ وحسبان، ومما يأمر به الشيطان.

٢٤ ـ أن الآيات المتلوة بيِّنةُ الدلالة قاطعةٌ للعذر.

٢٥ ـ معارضة المشركين للآيات البينات بالحجج الداحضات.

٢٦ ـ الردُّ عليهم بالخبر القاطع عمَّا يفعله الرب تعالى بالعباد، وهو أنه يحييهم ثم يميتهم ثم يجمعهم يوم القيامة اليوم الذي لا ريب فيه.

٢٧ ـ أن الله هو الذي يحيي ويميت.

٢٨ ـ الرد على الدهرية.

٢٩ ـ إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى.

٣٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ولمَّا ذكر تعالى أنه الذي يحيي ويميت، وأقام الدليلَ على قدرته على النشر والحشر، أخبر سبحانه عن عموم ملكه للسماوات والأرض، ثم ذكر الساعة وما يكون عند قيامها من أحداث؛ **فقال سبحانه:**

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات إخبارَ الله عن ملكه السماوات والأرض، وخسران المبطلين الكفار يوم تقوم الساعة، وجمع الأمم في ذلك اليوم، جاثين على الركب، وأن كلَّ أمة تُدعَى إلى كتابها الناطق عليهم بأعمالهم التي كتبتها الملائكة في الدنيا.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقديم الخبر ﴿لِلَّهِ﴾ يفيد الحصر؛ أي: لله وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه خالقها والمتصرف فيها، فله تعالى ملك العوالم العلوية والسُّفلية، وأمره نافذ فيها، فكلُّ ما سواه مفتقر إليه تعالى، وهو ﷻ مستغنٍ عن كلِّ ما سواه، وله سبحانه التصرف المطلق في خلقه بمشيئته، حسب علمه وحكمته تعالى، لا رادَّ لأمره ولا معقب لحكمه، ولا يُعبدُ أحدٌ بحقٍّ غيرُه ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة ويبعث الناس ويحشرون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿يوم﴾ فائدته التوكيد والتهويل ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ جمع مبطل، وهو المصر على الباطل.

قوله سبحانه: ﴿وَتَرَىٰ﴾؛ أي: وترى ـ أيها الرائي ـ في ذلك اليوم، فهو خطاب لكل أحد ممن تصح منه الرؤية، ويجوز أن يكون خطابًا للرسول ﷺ، والرؤية بصرية ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم من المؤمنين والكفار ﴿جَاثِيَةً﴾؛ أي: باركة على الركب من هول الموقف العصيب؛ كهيئة الخائف الذليل لإجابة النداء، و﴿جَاثِيَةً﴾ منصوب على الحال ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ مبتدأ ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ خبره. المعنى: يُدعى كل واحد منهم لأخذ كتاب أعماله الذي كتبته الحفظة، فالكتاب في الآية اسم جنس، وقيل: المراد الكتاب المنزَّل من الله، والأول هو الصحيح، ويؤيده قوله تعالى بعده: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾.

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: ويقال لهم: في هذا اليوم تنالون جزاء أعمالكم من خير أو شر.

قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا﴾؛ أي: ويقال لهم: هذا كتابنا الذي كَتبت فيه الملائكة أعمالكم؛ أي: كتاب كل واحد، وأضاف اللهُ الكتاب إلى نفسه المقدسة؛ لأنه الآمر للملائكة بتدوينه، وفي الآية السابقة أضاف اللهُ الكتاب إلى الأمة؛ لأن أعمالهم مُثبَتة فيه ﴿يَنطِقُ﴾ حال من الكتاب ﴿عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾؛ أي: يشهد عليكم بالصدق من غير زيادة ولا نقص، وتعدية ﴿يَنطِقُ﴾ بـ﴿على﴾ لتضمُّنه معنى يشهد ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم التي عملتموها أي: كتابتها، والسين والتاء في ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ للطلب؛ لأن كتابة الملائكة تكون بأمره تعالى.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات عموم ملك الله تعالى.

٢ ـ إثبات يوم القيامة.

٣ ـ أن من أسماء يوم القيامة: الساعة.

٤ ـ ظهور خسران الكافرين في ذلك اليوم.

٥ ـ جمْعُ الأمم كلِّها في ذلك اليوم جاثين على الركب.

٦ ـ دعوة كل أمة لتقرأ كتابها الذي سُطِّرت فيه أعمالها.

٧ ـ إثبات الجزاء على الأعمال.

٨ ـ أن ما تضمَّنه كتاب الأعمال حقٌّ، لا كذب فيه ولا خطأ، ولا زيادة فيه ولا نقص.

٩ ـ إطلاق النطق على دلالة الدليل، وعلى تضمُّن الكتاب لما كتب فيه.

١٠ ـ أن أعمال العباد كتبتها الملائكة في صحف الأعمال.

١١ ـ إضافة ما فعلته الملائكة إليه تعالى؛ لأنه بأمره، وهو الاستنساخ.

ولمَّا ذكر تعالى أن كل أمة تدعى إلى كتابها يوم القيامة، بيَّن أحوال كل واحد من المؤمنين والكافرين، **فقال سبحانه:**

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

يخبر تعالى في هذه الآيات عن مآل الفريقين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون إلى رحمة الله والفوز المبين، والكافرون إلى العذاب الأليم والتوبيخ والتقريع على الاستكبار عن آيات الله، والشك في الساعة.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحات ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾؛ أي: فيدخلهم تعالى في جنته تفضُّلًا منه وإنعامًا، وإضافة الرحمة ـ بهذا المعنى ـ إلى الله من إضافة المخلوق إلى الخالق دلالة على أنها منه تعالى، خلافًا للرحمة التي هي صفته تعالى؛ فإضافتها إلى الله من إضافة الصفة إلى الموصوف، كما في قوله سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ﴾ [الكهف: ٨٥].

قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ذلك الجزاء وهو الدخول في رحمته تعالى ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الواضح البيِّن؛ لأنهم فازوا بالمطلوب

ونجوا من المرهوب. وفي الآية دليل على أنه لا بد مع الإيمان من العمل الصالح، ولا يكون العمل صالحًا إلا بأن يكون خالصًا لله تعالى، وعلى وفق ما جاء في الشرع.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله وكذبوا رسوله فيقال لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: في الدنيا تقرؤها الرسل عليكم إنذارًا وتحذيرًا ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾؛ أي: كافرين، والمجرم في اصطلاح القرآن هو الكافر، وسماه الله بذلك؛ لأنه جاء بالجُرم العظيم، وهو الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وإذا قال لكم الرسل أو المؤمنون: إن ما وعده الله ـ أيها المشركون ـ من الجزاء والحساب والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: ثابتٌ واقع لا يُخلف ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ أي: لا شك في مجيئها فاستعدوا لها بالعمل الصالح، وعطف ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ على جملة ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ من عطف الخاص على العام؛ تنبيهًا على شأن الساعة ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: قلتم متعجِّبين متكبرين: ما نعرف ما الساعة؟! أحقٌّ هي أم باطلٌ؟! ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؛ أي: إن نظنُّ إلا ظنًّا ضعيفًا، لما يفيده تنكير ﴿ظَنًّا﴾ من التحقير؛ أي: ما نعتقد في أمر الساعة في نفيها أو الإقرار بها إلا اعتقادًا ضعيفًا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾؛ أي: لسنا على يقين فيما نقول في أمر الساعة نافين أو مثبتين.

ويظهر أن المشركين كانوا مضطربين في شأن البعث والساعة؛ فتارة ينفون وقوعها ويقسمون على عدم وقوعها، وتارة يَشُكُّون ويتحيرون؛ لكثرة ما يسمعون من النبي ﷺ من دلائل القول بصحتها، وفي القرآن ما

يشهد لحاليهم، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، وقال: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦].

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾؛ أي: وظهر لهؤلاء الكفار في الآخرة قبائح أعمالهم بما سُطِّر في كتابهم، أو: وظهر للكفار جزاءُ سيئاتهم، وهو ما أعدَّ لهم من أنواع النكال، وكلٌّ من القولين حق ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ أي: وأحاط بهم، وصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع، ولا يستعمل ﴿حاق﴾ إلا في المكروه ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي: الذي كانوا به يسخرون وهو العذاب العظيم؛ أي: نزل بهم وأحاط بهم من كلِّ جهة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

الفوائد والأحكام:

١ ـ تحقيق ما نزَّه اللهُ نفسه عنه من التسوية بين المؤمنين والكفَّار.

٢ ـ الحكمة في جزاء العباد بوضع الرحمة في موضعها، والعذاب في موضعه.

٣ ـ إثبات الربوبية الخاصة؛ أي: ربوبيته تعالى للمؤمنين المقتضية لرحمتهم وإثابتهم؛ لقوله: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾.

٤ ـ إثبات رحمة الله المخلوقة، وهي الجنة.

٥ ـ قيام الحجة على الكفار بسماع آيات القرآن.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾؛ أي: النار ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٧١].

٧ ـ أن من أخلاق الكفار: الاستكبار عن الإيمان بآيات الله.

٨ ـ التباين في العاقبة بين الفريقين المؤمنين والكفار؛ فللمؤمنين الفوز المبين، وللكافرين الخزي العظيم.

٩ ـ أن المكذبين بالآخرة في حيرة منها؛ فمرة يجزمون بالنفي ويُقسِمون عليه، ومرة يشُكُّون.

١٠ ـ أن الكفار في ذلك اليوم تظهر لهم عواقبهم السيئة، ويحيط بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون.

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات توبيخَ المكذبين بالبعث واليوم الآخر وتهديدهم، وذكرَ سبب شقائهم، وثناءَ الله على نفسه باستحقاقه الحمد، وبربوبيته لكلِّ شيء، وبأن له الكبرياء في السماوات الأرض وهو العزيز الحكيم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ﴾؛ أي: وقيل للمشركين على سبيل التوبيخ والتقريع، والقائل هو: الله، أو الملائكة ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾؛ أي: نترككم في العذاب كالشيء المنسي الذي لا يلتفت إليه، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منصوب على الظرفية، و(أل) فيه للعهد الحضوري؛ يعني: أن هذا الحكم واقع في هذا اليوم نفسه ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ أي: كما تركتم العمل للقاء الله في يومكم هذا، فالنسيان في الموضعين بمعنى الترك، وإطلاق النسيان على الترك إطلاق حقيقي؛ لأن الترك أحد معنيي النسيان[1]، وإضافة اللقاء إلى اليوم من إضافة المصدر إلى ظرفه، كإضافة مكر الليل والنهار ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: مقرُّكم الذي تأوون إليه جميعًا النار، وبئس القرار ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ أي: وليس لكم من ناصرين ينصرونكم

---

(١) ذكره ابن فارس في «المقاييس» (٥/ ٤٢١).

ويخلصونكم من عذابها، و﴿مِّن﴾ حرف جر زائد لإفادة التنصيص على عموم النفي؛ أي: لا ناصر لهم البتة.

قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُم﴾؛ أي: ذلكم العذاب العظيم الذي نزل بكم ﴿بِأَنَّكُمُ﴾؛ أي: بسبب أنكم في الدنيا ﴿ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾؛ أي: جعلتم آيات القرآن هزوًا تهزؤون بها وتسخرون منها، وممَّن جاء بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: خدعتكم الحياة الدنيا بزخرفها، وظننتم أن لا حياة سواها، فلم تعملوا للآخرة ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ إعراضًا عنهم، وتحقيرًا لهم، فلم يقل: فاليوم لا تُخرجون منها، فهم مقيمون في النار لا يستطيعون الخروج منها ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: لا تطلب منهم العُتبى، يعني: أن يُرضوه تعالى بالتوبة والإنابة لفوات الأوان.

ولِما اشتملت عليه السورة من ذكر نعوته تعالى، والتذكير بآلائه وأفضاله، والتنويهِ بآياته الكونية والشرعية، وتقرير أدلة المعاد، وإثبات الثواب والعقاب، فقد خُتمت بالثناء على الله وتمجيده ﷻ؛ فقال سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾؛ أي: فللَّه ـ وحده ـ الثناء الجميل كلُّه؛ محبة وتعظيمًا، وهو تعالى يُحمد على كمال إنعامه، وعلى كمال أوصافه وأفعاله، ويُحمد في الأولى والآخرة، وفي السماوات وفي الأرض، واللام في الحمد للاستغراق؛ أي: جميع أنواع المحامد له تعالى، وتقديم الخبر ﴿لِلَّهِ﴾ لإفادة الحصر؛ أي: الحمد كلُّه لله وحده لا شريك له ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: خالِقهما ومالِكهما ومدبِّرهما وما فيهما ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: ربُّ جميع المخلوقات، ولم يعطف ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كسابقه؛ لأنه تأكيد لهما بما يعمُّهما ويعمُّ ما فيهما، وتكرار ﴿رَبِّ﴾ لتأكيد عموم ربوبيته تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ﴾؛ أي: وله ـ وحده ـ سبحانه ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾؛ أي: العظمة والجلال، والمجد والسلطان ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أنه تعالى معظَّم ممجَّد في السماوات والأرض، ويفسِّر هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الحج: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، فواجب على العباد تعظيمُه في القلوب، وإفرادُه بالعبادة والطاعة، قال رسول الله ﷺ: «**العِزُّ إزارُه، والكبرياء رداؤه، فمَن ينازِعُني عذبتُه**»[1]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: القويُّ الذي له القدرة التامة، والمشيئة النافذة فلا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: ذو الحكمة البالغة في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن نسيان اليوم الآخر بجَحْده أو بعدم العمل له يؤدي إلى ترك الله لمن هذه حاله، فلا يرحمه الله ولا يغفر له.

٢ ـ أن الجزاء من جنس العمل، وشواهد هذا في القرآن كثيرة.

٣ ـ أن نسيان اليوم الآخر سبب لثلاث عقوبات: نسيان الله لهم، ودخول النار، وفَقْد النصير.

٤ ـ أن من أسباب هذه العقوبات غير ما تقدم: الاستهزاء بآيات الله، والاغترار بالدنيا.

٥ ـ أن الاستهزاء بآيات الله من شأن الكفار وعاداتهم؛ لذا فهو كفر وناقض من نواقض الإسلام.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠) عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

٦ ـ أن الأعمال سبب للجزاء إن خيرًا فخير، أو شرًّا فشر؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمْ﴾.

٧ ـ وعيد الكفار بالخلود في النار.

٨ ـ تهديد الكفار بدخول النار، وتيئيسهم من طلب الاعتذار.

٩ ـ استحقاق الله للحمد كله.

١٠ ـ إثبات الربوبية العامة لله تعالى.

١١ ـ فيها شاهد لأول آية من سورة الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

١٢ ـ إثبات الكبرياء لله تعالى في قلوب عباده من أهل السماوات والأرض.

١٣ ـ إثبات العظمة والسلطان لله في السماوات والأرض.

١٤ ـ إثبات اسمين كريمين لله تعالى، وهما: (العزيز) و(الحكيم).

١٥ ـ التناسب بين أول السورة وآخرها بذكر الاسمين الكريمين: (العزيز والحكيم).

وبهذا تمام تفسير الجزء، والحمد لله ربِّ العالمين.



فهرس الموضوعات

الموضوع — الصفحة

سورة فُصِّلت ٥

سورة الشورى ٨٣

سورة الزخرف ١٧٥

سورة الدخان ٢٧١

سورة الجاثية ٣٠٩

فهرس الموضوعات ٣٥١